الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



رواية

دى واى بيشارد

الحب المدمر

ترجمة: إيهاب سعيد ابراهيم

مراجعة: مصطفى محمود

الكاتب: دى واى بيشارد. كاتب أمريكى كندى.

- ولد فى منطقة جبلية فى مقاطعة كولومبيا عام ١٩٧٤.
- قضى حياته بين كندا والولايات المتحدة وإقامته مستقرة الآن فى مونتريال.
- استغرق فى كتابة روايته الأولى هذه "الحب المدمر" ثمانى سنوات، ولذا أجمع النقاد أنها بالرغم من أنها روايته الأولى إلا أن المؤلف الشاب نحت على مدى ثمانى سنوات طريقة مميزة له فى أسلوب السرد والمفردات اللغوية وتناول الزمن والحوار الذى تعبر به الشخصيات عن نفسها.
- نشرت رواية "الحب المدمر" عام ٢٠٠٦ وحازت جائزة كتاب الكومنولث للكتاب الأول عام ٢٠٠٧

الجائزة: جائزة الكومنولث

تأسست جائزة رابطة الكتاب التى تمنحها الكومنولث عام ١٩٨٧، وتهدف إلى وصول الكتاب الفائز إلى جميع دول الكومنولث لضمان تعميم قراءته خارج الإقليم وكذلك إلى تشجيع أجيال جديدة من الكتاب، ولأكثر من عقدين من الزمان تمنح الجائزة بفرعيها "أفضل كتاب"، و"أفضل كتاب أول" سنوياً، بحيث يحتفى بها كل عام فى إقليم مختلف من أقاليم الكومنولث التى تشمل إفريقيا والكاريبى وكندا وأوراسيا" التى تضم المملكة لمتحدة" وجنوب شرق آسيا وجنوب لمحيط الهادئ، ويمنح الفائزين من ـل إقليم جائزة خاصة ثم يتم إعلان سمى الفائزين من هذه القائمة بجائزة 'أفضل كتاب" و"أفضل كتاب أول".

الحب المدمر

بيشارد، دى واى.

الحب المدمر/ دى واى بيشارد؛ ترجمة: إيهاب سعيد إبراهيم؛ مراجعة: مصطفى محمود. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

٤٤٨ص ؛ ٢٢ سم.

تدمك ٩ ٤١١ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص.

أ ـ إبراهيم، إيهاب سعيد (مترجم).

ب ـ محمود، مصطفى (مراجع).

ج ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٦٠١/ ٢٠١٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -411 - 9

ديوى ٨٢٣, ٨٠٨

الحب المدمر

رواية

دى واى بيشارد

ترجمة: إيهاب سعيد إبراهيم

مراجعة: مصطفى محمود

● الكتاب: الحب المدمر؟ Vandal Love

● تأليف: دى واى بيشارد D.y.Bechard

● ترجمة: إيهاب سعيد إبراهيم

● مراجعة: مصطفى محمود

● الطبعة الأولى ٢٠١٠.

● طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

الكتاب الأول

الجزء الأول

كيبك ١٩٤٦ ـ ١٩٦١

وحتى حينما كان "جودى" صبياً، كانت ذراعاه وساقاه مكتنزتين، رقبته كأنها حبل مشدود، بينما تتقوس عضلات بطنه القوية أسفل صدره. وعلى طول الحقول المنحدرة على جانب الطريق فوق النهر الواسع جداً الذى يعرفونه باسم "البحر"، كان يعمل بملابس يعلوها التراب، يحفر بقوة وسرعة تفوق القوة والسرعة اللتين يعمل بهما أعمامه، على الرغم من أنه حينما كان يتوقف عن الحفر، يتلفت خجلاً وقلقاً؛ لأنه تراخى عن العمل. لكن فى عمر الخامسة عشرة، نادرًا ما كان يتوقف، كان يجلس ويأكل فى الوقت نفسه. ويخلع ملابسه ويتمدد على فراشه وينام فى آن واحد. لقد حفرت المحن والشدائد فوق وجهه الزوايا والتجاعيد كتفاحة متغضنة مضغوطة فى "قفص" تحت إحدى الأقبية. وما كان يغمض عينيه أبداً ليتساءل عن ذلك الذى لا يمكن رؤيته.

جاء الخريف لينهى صيفاً جافاً. الأوراق باهتة بلون التراب المتجمع على التلال. وجعله محصول البطاطس يحفر الأخاديد فى قلب الأرض الباردة. وما كان يتخيل أبداً أنه بعد مضى عقد من الزمان سيظل أهل القرية يتجادلون حول الأيام التى أدت إلى اختفائه. أو أنهم فى بعض الليالى - سيشاهدون التليفزيون وهم يحلمون بقامته المديدة وشعره الأحمر، كما لو أنهم يرونه يقطع أحد شوارع هوليوود.

ومن بين أولاد "هيرفى" التسعة عشر، لابد وأنه كان أكثرهم اقتناعاً بالبقاء. فقد رباه جده "هيرفى هيرفى"، ومعاً كانا يقومان بالصيد فى مياه الآباء، وينتظمان فى حضور القداس. كان آل "هيرفى" يملكون مزارع الجبل الوعرة الأولى قبل "حرب السنوات السبع"؛ وعندما أحرق القائد "جورج سكوت" بيوت الفرنسيين، لم يهربوا إلى فرنسا. ولم ينتقلوا بحثاً عن الراحة بالقرب من خط تلغراف أو مقر طبيب حينما بنى تجار "جيرسى" القرى المجمعة. ولكن مع كل قوتهم، اتسمت العائلة بصفة غير عادية. فالأطفال يولدون بالتبادل عمالقة أو أقزاماً، كما لو إن الرحم يصيبه الوهن. كان كل شئ يتبدل بانتظام كعقارب الساعة، طفل هائل الحجم يليه قزم ضئيل. رأى القرويون ذلك، وخافوا منه كما لو أنه ذكريات قديمة باهتة أطلت عليهم من حكايات ما قبل المسيحية. كانوا يخشون حتى من الصغار الضعفاء الذين يجرون مسرعين من أسفل أخواتهم العمالقة.

وعلى الرغم من أن نصف أبنائه كانوا أقزاماً، كما لو أنها لعنة من الكتاب المقدس، إلا أن "هيرفى هيرفى" ظل فخوراً. وبقوة تتحدى السنين، قام بتربية أبنائه حتى آخر واحد منهم على الصيد والخدمة فى الحقول حينما تتراجع أسراب السمك وتعود المزرعة لتتداخل مع الغابة. لقد كبر خلال أسوأ أعوام الهجرة إلى الجنوب وشهد تغيرات كثيرة جدًا إلى الحد الذى فقد معه الثقة؛ فمن الفقر إلى ثراء الحرب، ثم إلى الفقر ثانيةً حتى أصبح معسراً مثل البلاد التى فر منها مئات الآلاف، وإلى أن أصبح هو نفسه من يفر أولاده منه. وفى القتال كانت أصابع الرجال تتكسر مفاصلها على وجهه الجامد العريض ذى الملامح الهندية التى لا تعبر عن شىء، وجلده البنى السميك الذى لا تظهر عليه آثار الكدمات أياً ما كانت. كان يأخذ أولاده للصيد لساعات عبر الآكام والتلال. لم يستخدم ـ أبدًا ـ البوصلة، وفى إحدى المرات عندما اختفى الجيولوجيون والمساحون الذين أرسلتهم المقاطعة إلى الأراضى الداخلية، استطاع أن يسترجعهم. وفى عام ١٩٠٤ وبينما هو يمشى فى إحدى الطرقات المظلمة، سمع صوت طلق نارى من الغابة، وحفت الرصاصة بعينه. لم يصدق أحد أنه كان حادثاً. وظلت عينه الباقية أكثر حدة فى التقاط الذكريات وصنع التخيلات. وادعى البعض أنه كان يقيس المسافة إلى البحر بتذوق طعم الثلج.

أنجب من زواجه الأول ثلاثة أولاد وثلاث بنات. ومن بين هؤلاء الأبناء كان اثنان من العمالقة. وكان

يتحدث عن أولاده، إذا تحدث، بلغة صياد. جعل الهدف من امرأته ولادة أقصى عدد من الأطفال، وحينما توقفت عن الإنجاب استبدلها بـ"جورجيانى"، امرأة قوية ذات ميول دينية طاغية، لتزيد له أحد عشر مولوداً. وكان "جودى" هو الابن غير الشرعى من سائح إسكتلندى أمريكى همجى الطباع ومن "آجنيس"، ابنة "جورجيانى" التى تبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، والتى فى تصميمها على ألا تلد، قامت بلكم بطنها، والإلقاء بنفسها من على التلال ومن أعلى السلالم، وأخذت تغطس فى مياه مثلجة، وتندفع بعنف بعكس اتجاه الجذوع والفروع المنخفضة، حتى بدت للقرويين كأنها فى تدريب عنيف استعراضى على الملاكمة بدون قفازات. لكن الحمل بقى، ووُلِد "جودى" بأنف مفلطحة ونظرة زجاجية لملاكم مقاتل. لكنه لم يُولد وحيداً. قيل إنه جاء إلى العالم وعلى ذراعيه أخت توأم صغيرة، كما لو كان المتوقع هو المزيد من العنف.

كانوا مندهشين جميعاً أن يروا عملاقاً وقزماً معه، كان يبدو كما لو أنه إلى جانب سلة من العظام النخرة. إن أهل القرية الذين كانوا يعرفون روايات العائلة، اعتقدوا أن لعنة "هيرفى" هى نتيجة لبعض فساد أو خطيئة فى الماضى. وحينما يأتى الشتاء أو المرض، كان الأقزام هم أول من يموتون، سواء من معاملة العمالقة السيئة لهم أو قلة رعايتهم والاهتمام بهم. والغريب بالرغم من ذلك أنه مع مرور السنوات، بات جلياً أن "جودى" يعتنى باخته التوأم. لقد كبر

سريعاً وبدأ المشى مبكراً جداً، حتى أن القرويين شكوا فى عمره، وبينما "إيزامارى" مازالت فى حفاضاتها، بدأت تصرخ، ومال على مهدها يهدئ من روعها كأنه يشحم إحدى الآلات. ولم يكن من الممكن أن يكبر أى طفلين مختلفين عن بعضهما أكثر منهما، فكثيراً ما تمضى "إيزامارى" إلى الكنيسة، وقد ازدحمت صفحات كتبها المدرسية بقصاصات المجلات عن البابوات أو الرهبان، بينما "جودى" شغوف بالعمل، يعزق الحقول كل ربيع إلى أن يرى الشقوق المشبعة بالماء تنعكس عليها السماء من خلال الثقوب الطينية الضخمة.

ولن تتبقى ذكريات عن "آجنيس"، فقط صورة فوتوغرافية لفتاة أنيقة، رموشها سوداء، وطويلة، شفتان بارزتان تستقبلان متع العالم. وقد أرضعتهما حليباً مراً لمدة ثلاثة أشهر، وفى الخارج، عندما يضىء الربيع الشقوق التى أحدثها الشتاء وتلتمع السماء مثل شاشة السينما، تنحدر أول قافلة من سيارات السياحة مثيرة لغلالات من التراب. وفى شهر يوليو هذا اختفت، ولم يتبق من ذكرها إلا التوأم اليتيم واسم "جودى". وربما كانت تخبرهم أن أبا السائح يُدعى "جودى". وبالنسبة لـ"إيزامارى" فقد أسمتها جدتها على اسم أخت لها ماتت منذ زمن طويل، لتستعيد بعضاً من "إيزابيلا" من الحياة أخرى.

كان "هيرفى هيرفى" فى السادسة والستين هذا العام، وقد فات أوان أن يكون أباً مرة أخرى. وفى يوم

ولادة "جودى" اعترف بالولد ابناً من أبنائه، وأخذ المولود الجديد الصامت ملفوفاً فى ملاءة إلى الموازين عند حفر الملح فى ذروة رياح إبريل لـ"سان لورنس" ووزنه مقابل "بنس" واحد. وبمرور الوقت بلغ "جودى" سبع سنوات، وكان "هيرفى هيرفى" يقوم بتعبئة ما يستطيع أن يجمعه: صناديق الأسماك وصوارى المراكب الصدأة. وكما أمر جده، فقد اقتصر عمل "جودى" على تعبئة لحوم الدجاج والمخلفات الصفراء. وتكومت الصناديق وانتقلت من جانب إلى آخر وارتفعت. وجمع "هيرفى هيرفى" العملات النقدية والسجائر ذات النكهة العطرية التى يحضرها البحارة، ودولاراً احتجزه أحد الأحجار قبل أن يطير مع الريح. وعلى جانب الطريق، شاهد "مويس ماهير" مع ابنه، وهو ولد شديد النحول بذقن بارز وعينين حولتين ويكبر عن "جودى" بخمس سنوات وبطول القامة نفسها. ووضع "هيرفى هيرفى" غليونه فى جيبه وأشعل سيجارة، وثبت كل رجل منهما عينيه على الآخر، وافترضا أنه سيكون لهما لقاء آخر. كان أحد أيام يونيه، والريح تنثر رذاذ الموجات الهادئة، بينما وقف جمع من الناس فى الأضواء الخافتة يتفرجون. كان "ماهير" يسدد اللكمات كما لو كان يقذف بالأحجار. وجاءت لكمة "جودى" مباشرة إلى الذقن. واهتزت رءوس الرجال وأداروا وجوههم. وقام "هيرفى هيرفى" بالعد، منح "جودى" بنساً لإنجازه الجيد.

كبر "جودى" فى إطار الكبسولة الزمنية من هذا الانطباع، كلوحة غريبة للخمسينيات: الجد الأسمر

بنظرته الهمجية، وهيئته البدائية، يقاتل، عارى الصدر حتى خصره، جلد خشن أحمر، كأنه قميص مبتل مشدود على عضلاته. قرر "هيرفى هيرفى" أن يدربه، أخبره أن يقوم بتقطيع الأخشاب، أكثر مما يمكن أن يحتاجوه أو يبيعوه. وصاح به أن أركض، مشيراً إلى الجبال. وكل صباح كان يعطيه "سطلاً" من الحليب الطبيعى الطازج، على الرغم من معارضة زوجته، وحيث تبقبق معدة "جودى"، ويداوم باستمرار على أن يزنه.

وفيما يتعلق بأهل القرية، كان القتال أقل تسلية كل عام عن العام الذى يسبقه، فالكدمات بلون الخوخ أصبحت أسنان مفقودة، عيون سوداء، أورام سرطانية كبيرة فى وجوه أبنائهم. وسرعان ما كان الناس يقولون، ألا يعلم أن هذه الأزمان قد ولت؟ هل يظن أن هذا سيستمر إلى الأبد؟ وتزامنت ولادة "جودى" مع نهاية الحرب، وبعد سنوات قليلة فقط وصلت الكهرباء إلى القرية. وامتدت خطوط القوى فوق الجبال وأعلى حقول البطاطس، حتى أنهم شعروا كأن عزق الأرض يغزل فى عظامهم. وسرعان ما وصل البائعون بأدواتهم الغريبة الجديدة، وتجمع الأطفال ليفتشوا عن المحتويات الرقيقة للحقيبة المفرغة، أو يتركوا العصا المعدنية توصل الكهرباء إلى ذراعهم. كان هناك شىء برىء، يتوهج مع العمر، ولاح المستقبل كأنه مقدر له أن يكون أفضل.

***

حينما كان "جودى" و"إيزامارى" فى العاشرة من عمرهما، أدهشت جدتهما القرية والأبرشية كذلك، بأن زعمت أن شبح ابنها قد زارها، ابنها المحبوب التائه منذ زمن طويل والذى هرب ناحية الغرب ولم يعد أبداً. وقالت بطريقتها المتبلدة أنه فى الخارج هناك فى العالم الواسع الناطق باللغة الإنجليزية، لديها أحفاد آخرون تحتاج إلى إنقاذهم. وعلى الرغم من أن "هيرفى هيرفى" حاول أن يكبح هذا الجنون، إلا أنها رحلت فى المساء ومعها فقط النقود التى كسبتها من غزل النسيج وبيع البيض، ومعها كذلك بعض ملابس الأطفال والملابس القديمة، ولم يرها أحد بعد ذلك. وأثارت الخيانة غضب "هيرفى هيرفى" وأصبحت نوبات سكره أكثر عنفاً، وعلاقاته مع أبنائه وبناته أقل وداً. كانت جدة "جودى" التى ينتمى إخلاصها إلى ورع العصور الوسطى تدير المنزل بحسم، وبدونها لم يكن يوجد أحد لينقذهم من نهمهم.

وسرعان ما رحلت حتى أصغر عمات "جودى" وأعمامه، هربوا أو تزوجوا. وأصبح البيت قذراً. ولم يكن هناك من يصلح الملابس أو يرتقها. وبينما كان "جودى" و"هيرفى هيرفى" يعملان، كانت "إيزامارى" تدرس أو تقرأ أو تقتطع الصور من المجلات الكنسية، وتلصق الصور المقدسة على جدارها: الكهنة المبشرون، والحيوانات المدللة للقديسين، وهمج الأدغال الذين سيلتحقون بالكهنة. وآثار الجروح النافذة الواضحة

حولها، والوجوه السعيدة. ومن وقت إلى آخر كانت تأتى عمتان متزوجتان تتبادلان النميمة فى المطبخ، وتنظفان وترفعان أوانى البيض المقلى واللحم المقدد والبطاطس التى أكلها "جودى" و"هيرفى هيرفى" باردة على الإفطار والغذاء والعشاء. وفى هذا الربيع جاءت عمة أخرى مع أطفالها الأربعة، بعد أن حطم زوجها مركبته على الساحل الشمالى وسحقته الألواح الخشبية. وعاد المنزل إلى طبيعته، وجبات ساخنة، روائح المخبوزات، تنوع المذاقات. حتى "إيزامارى" غامرت بالخروج من غرفتها لكى تساعد، وكان "جودى" يمشى متثاقلاً إلى جانبها، وهى تثبت الحفاضات، وتنثر المسحوق على مؤخرات الصغار. وفى هذه الأعوام، أصبح جودى أكثر طيبة، وبذل مجهودًا فى المدرسة ليضع الحروف إلى جانب بعضها البعض، تهتز عيناه متأرجحتين فى رأسه، عندما يحاول أن يستوعب أين يضع يديه على الكتاب. تعلم أن يكتب اسمه، يكتبه غالباً تحت إشراف "إيزامارى". وفى الصيف كانت هناك على المائدة زهور وفطائر مصنوعة من حبات التوت المقتطفة. وخلال العاصفة الثلجية فى فبراير، تهدى "إيزامارى" "بطاقات الحب"، كل ورقة منها ألصقت عليها قصاصات من صور مسيح ينزف، وعذراء تصلى، وصور بالونات منفوخة للنساء من كاتالوج "إيتون". لكن "هيرفى هيرفى" تمادى فى تعاطيه للخمور. ومع الخريف رحلت العمة مع أطفالها. واستأنفت العمتان الأخريان زياراتهما:

شرائح البيض المقلى، لحم الخنزير المدخن. كانتا تدخنان فى المطبخ، وتقصان الحكايات: الآباء الثلاثة السكارى مع البنات المراهقات، والمرأة الحامل التى ابتلعت بالخطأ مُبَيّضاً للملابس، فولدت طفلاً أبيض الشعر والجلد.

عادت إيزامارى إلى صمت غرفتها، الزهور تجف على المائدة، السيقان تتعفن فى الماء الآسن. راقب "جودى" عماته من المدخل. وتذكر الضحكة الفطرية البريئة للأطفال. لكن ماذا قبل هذا؟ امرأة عجوز لها فك متخشب منفصل، وتمسكه من ياقته بطريقة معينة وتمسح وجهه. كانت تلك ذكراه الوحيدة عن حب الأم.

وبعدما بلغ جودى الخامسة عشرة بوقتٍ قصير، بدأ "هيرفى هيرفى" يأخذه إلى العروض الجوالة، يدفعه إلى منازلة الرجال الكبار على الحلبات الخشبية بعد أن تغلق العروض. إن السكان المحليين الذى يتذكرون السائح الأمريكى الإسكتلندى العملاق ذا الفك العريض، يعتقدون أن "جودى" نسخة منه مصاغة بشكل أفضل. حتى وهو طفل صغير لم يكن من الممكن طرحه أرضاً، فهو يرتد ببساطة مثل دمية منفوخة ثقيلة القدمين. دربه "هيرفى هيرفى" جيداً. راهن عليه كثيراً، عالج جروح "جودى" بالويسكى، جرعة كبيرة، ونصحه فنياً أن يضعه على الجزء الأسفل من قفصه الصدرى ويعرضه للشمس. كانت الإشارة الوحيدة المكتملة للنعومة عند "جودى" هى الرموش الطويلة التى ورثها عن أمه، والتى لا تتلاءم

مع وجه أحمر مقاتل، على الرغم من أن أحداً لم يسخر منه أبداً. وكان يزن بالفعل مائتين وعشرين رطلاً.

وعلى الرغم من أن جودى كان ينفذ توصيات جده؛ يقاتل باستماتة ويحرص على ألا يخسر أبداً، إلا أن حبه الأعظم ظل موجهاً إلى أخته. ومنذ أن كان طفلاً صغيراً ظل يراقبها باهتمام. فإذا ضايقها أحد أو وبخها، سرعان ما يكون هناك يتهادى ويهز رأسه مترنحاً ووجهه عائم، وهو ينظر نظرة جامدة بعينيه الجاحظتين. فقط نبهه حديث عماته عن ضعفها، والطريقة التى يفرقعون بها بلسانهم ويمصمصون شفاههم عندما تترك الغرفة. كانت دائماً مصابة بالبرد والحمى، وظلت صغيرة الحجم، فتاة شاحبة بعينى أرنبة خضراوين، وإشارات مترددة. وفى الكنيسة كانت تصلى وكتفاها مسحوبتان إلى الأمام، حتى أنها بدت وكأنها تعانق نفسها، وغالباً ما كانت تجلس فى الشمس، تبدو نائمة، أو تفترش بطاطينها على الأرض تحت الأشعة الدافئة أسفل نافذتها. وعلقت العمات بأن الحرارة كانت تجرى فى عروقها، فعلى العكس من "جودى" ورثت من أبيها السائح الميول الفطرية الجنوبية. وقلن إنها لن تفعلها هنا. فقد كان هناك بلد لكل شىء.

وبعد الظهيرة فى أحد الأيام، من خلال الغرف المغلقة المظلمة فى البيت، سمع بالصدفة عماته يحكين عن الأيام حينما كانوا يتخلصون فيها من

الأطفال. وتذكرن كيف أن أحد الرجال كان يعول الكثير جداً من الأفواه التى لا يستطيع إطعامها، أعطى أحد أطفاله إلى جار له زوجته عاقر. فالأسر التى تحتاج إلى فتاة فى المطبخ أو إلى ولد ليتعلم حرفة، ربما تذهب إلى آخر يعانى من كثرة العيال. وأحياناً كانت تُعقد اتفاقيات لقروض، تنص على أن الولد سوف يعود حينما يغادر شقيقه الأكبر. وأحياناً كانت تتم مقايضتهم مقابل عربة حديقة أو منشار للخشب. وتذكرت العمات هؤلاء الذين استغنى عنهم "هيرفى هيرفى"، "جين فيليكس"، "مارى آنجى". كانت تلك الممارسة شائعة إلى حد بعيد فى وقت من الأوقات فى شبه الجزيرة، إلى أن تضاءلت نوعاً ما، حينما خجل "هيرفى هيرفى" من أخذ الأقزام. وضحكت العمات. كان يشترى شراباً للرجال ويكذب فيما يتعلق بالأعمار، ويقول ست سنوات وهو أربع سنوات فقط. وعرف كل فرد أنه قد أضاف اثنتين.

وبالتدريج تمكن الخوف من عقل جودى البسيط، وأصبح متأكداً من أنه بينما كان يعزق الحقول أو ينتزع أحشاء الأسماك، فإن جده سوف يلقى بـ"إيزامارى" مثل كيس من البطاطس. وعلى الرغم من أنهما يقضيان ساعاتهما الطويلة من العمل فى صمت، إلا أنه حينما يشرب "هيرفى هيرفى" يتكلم قليلاً، ويصغى "جودى" بأقصى استطاعته. يهمهم "هيرفى هيرفى" عن بلدة "ليس إتاتس"، يحكى عن الأبناء الذين سوف يغادرون مع الآلاف غيرهم يبحثون عن

حياة أفضل، وعن البنات اللواتى لن يسرقهن السياح. أخبر "جودى" عن "ميمى تا ميرى". شتم ولعن الغرباء الذين أخذوا كل شىء، السمك من "سان لورنس"، وفتيات القرية. وسمع "جودى" بعض الأحاديث عن السياح، وأنه من أجل المحافظة على قدومهم، استأجرت المحلات نساء يرتدين القبعات والملابس القديمة، وليحضرن الأنوال والمغازل من منازلهن ويشغلنهم. وحتى الرجال كانوا مجندين للترفيه والتسلية فى عروض عامة، كما كان يحدث على مدى القرون. لكن "جودى" لم يعتبر أبداً أن هؤلاء السياح الأغبياء الأغنياء يمكن أن يشكلوا تهديداً آخر لـ"إيزامارى"، أو أنه من الممكن أن يتوقف أحدهم، ويقذف بها فى صندوق سيارته مثل إطار فارغ.

والآن وهو يعمل، أخذ يتأمل فى غرابة السنين، كيف كان معها دائماً فى وقت من الأوقات، يمشى بها إلى المدرسة أو الكنيسة مع جدتهما. يحمل "إيزامارى" على كتفيه، أو يسير ببطء خلفها. كان قد توقف عن الذهاب إلى المدرسة واستمرت هى. ومع جده فى القارب، ومع ارتفاع الأمواج البطيئة وانخفاضها، أو عند تنظيف السمك وقد غطت قشوره قميصه مثل درع حربى، كان يتساءل أين هى الآن، وماذا تفعل بمفردها. وحينما رآها، لم يعودا يتلامسان. فى الأمسيات يجلس إلى جانبها يتأمل فيها صامتاً تفيض ملامحه بالتأثر، وتنظر هى إليه بوجهها الجميل الرقيق. كانت لديهما ألعاب صغيرة. تصفف شعرها

خلف أذنها، تهز كتفيها وتبتسم فيسقط إلى الأمام ثانية، فتحنى رأسها وتمشطه ثانية إلى الخلف. كان يراقب، وبعد أن يجلس لفترة، يراوغ محرجاً، يصطنع ابتسامة عابرة. ينظر على يديه الحمراوين، قبضتيه المقوستين إلى المنتصف، العروق فيما بين مفاصل الأصابع، الأظافر بشكل ولون الشرائط الملصقة على علب الصودا. وغالباً ما ينظر إلى أصابعها فوق الكتاب المقدس. بالخارج الريح تهز الأوراق. وتتحرك الملابس حركة صامتة على حبل الغسيل. وهى كانت تلاحظه. لقد اعتقد أن القدر يدخرها لدور عظيم.

فى هذه السنة كانت "إيزامارى" تنضج كامرأة أخيراً. لم تكن مؤخرتها، ولا طريقة ارتداء ملابسها وتصفيف شعرها ذات جاذبية جنسية، ولا كانت تمتلك صدراً نافراً كالبنات الأخريات، لكن ضعف الشهية أضفى عليها نوعاً من الجمال الناعم الهش. فكان سلوكها الخجول، طريقتها فى استراق النظر إلى العالم من خلف شعرها المسترسل، تثير فى الرجال الرغبة فى أن يحتضنوها فى رفق، كما لو إنها عروس طفلة، يداعبونها، يشدون أطرافها، يرفعون جذعها فى الهواء. وعندما صارت امرأة ظلت تعانى أيضاً من الميول الجنسية المنحرفة تجاه الأطفال من أحد البحارة ومشرف المدرسة كذلك.

لكن لأنها قد عرفت دائمًا لمسة رجل، كان هناك احتمال ضئيل. فـ"جودى" سوف يصفع المعالج لإطالته النظر، حتى لو لم يفعل المعالج أبداً، ذلك لأن "جودى"

عصمها من كل الخطايا، فيما عدا تلك الخطايا التى صانتها فى قلبها. ومن بين شباب القرية، فإن القلائل الذين جرءوا على السخرية منها، أو على أن يغمسوا نهايات شعرها الأشقر الذهبى فى زجاجة الحبر وهم يجلسون خلفها، قد تلقوا نظرة خجل بسيطة، وسريعاً بعد الضرب الشديد على قارعة الطريق، يترك كدمات بحجم حدوة الحصان. لكن هذه الشهور التى أصبح فيها جمالها الشاحب واضحاً للعيان، فإن أى رجل يحاول كثيراً أن يتحدث إليها، يكون معرضاً للخطر، فى الحال، فحينما يوقف السائح سيارته عند مفترق الطرق، يرميها "جودى" بخشب الوقود. وحتى البنات القليلات اللواتى اتخذتهن "إيزامارى" صديقات لها، بقين بعيداً، خائفات من "جودى" الذى وقف مثل مخلوق أسطورى يرقبها عن كثب. غالباً ما كان يحط عليها حينما تكون بمفردها، فى مواجهة الشمس الغاربة، وحينها قد تسمعه وتقفز. وجعل البرد الجلد حول عينيها متورماً كما لو كانت تبكى. وتنظر إلى الأرض حينما يكون قريباً. تنكمش فى نفسها، وتتريث بعد القداس. وفى البيت أقامت حضانة، على الرغم من أن الواعظ أخبرها أن يسوع الطفل لم تكن لديه علامات جروح الصليب وتاج الأشواك، فالحيوانات فى الزريبة لا تحتاج إلى هالات التقديس.

ومر الصيف الجاف، وهلكت زهور الليلك والأعشاب المعمرة والزهور البرية القليلة على لسان الأرض الممتدة فى البحر فيما وراء الحقول. وكان

"جودى" يراقب، كشبح بملابس قذرة، كحيوان يحوم، يخرج من الأوحال. وفى أحد صباحات أكتوبر، حينما ذهب ليطفئ اللهب بمضخة المياه، كان أحد زملاء "إيزامارى" فى المدرسة ينتظرها على الطريق الموصل إلى القداس. كان الولد يضع على عينيه إطار نظارة مثل تلك التى يضعها الراهب المبجل، وهو الذى حظى بالثناء من مدرس المدرسة لقيامه بتأليف قصيدة عن حياة القديس فرانسيس. كان يحمل لفافة من الأوراق مربوطة بشريط من الحرير، مدده حينما توقفت "إيزامارى" أمامه. وبمجرد أن بدأ فى الكلام، هبط "جودى" إلى أسفل التل من خلال الأشجار، باندفاعة ثور نحو ظبى رقيق. وبدون توقف أو تحذير، قفز "جودى" من فوق الحاجز، وحمل الصبى إلى الخارج، وقذف به إلى الأرض الطينية الموحلة.

وفى هذا المساء، سريعاً، هطلت أمطار باردة، ومع الضوء الفضى الأخير للنهار، التمعت بحيرات صغيرة، كما لو إن الصخور المنبسطة للساحل قد نُثِرت عليها مرايا. واستدارت "إيزامارى" عائدة على الطريق وتفادت القداس. ذهبت إلى البيت وإلى حجرتها، ولم تنظر كثيراً على "جودى" حينما أتى عابساً متجهماً. ورقدت فى فراشها، أدارت وجهها. وجلس يهز كتفيه، ويطقطق مفاصل أصابعه الضخمة، ووجهه الزجاجى الأحمر اللامع يومض كثيراً، غالباً كما لو كان مرتبطاً بالمشاعر. وفى النهاية مضى إلى الخارج، ووقف فى الظلام العاصف. الساحل تمسحه أمواج المد، وفيما

بين السحابات القليلة المعزولة، ارتسم أحد المذنبات ببطء وتوهج مضيئاً. وبقى هناك حتى أضاء الفجر بالتدريج قمم الجبال الشرقية.

ولم تغادر "إيزا" فراشها فى اليوم التالى. فى البداية لم يلاحظ أحد أنها لم تذهب إلى المدرسة، ولكن بعد مرور يومين، ظلت متكورة فى ملاءتها، وبدأت العمات يتهامسن. وشعر "جودى" بـ"هيرفى هيرفى" يراقبه. وكان الشتاء يأتى على عجل، و"إيزامارى" كانت تعانى دائماً مع البرد. وفى أوقات الفجر حينما تنبت الأزهار الثلجية من المماشى والحفر الطينية على الطريق، يعود "جودى" إلى الداخل ويذهب إلى حجرتها. وربما هى قد لا تنظر إليه. فهى ترقد فى الفراش تتنفس ببطء متوجهة إلى النافذة. وما كان يمر من ضوء الشمس خلال الزجاج المتسخ المعتم، جعل جلدها يبدو نصف شفاف، والعروق مائلة إلى الزرقة فى جبهتها ورقبتها.

والآن، حيث إنه أدى واجباته الغامضة، لأول مرة يشعر وهو مكتئب بأنه لم يفهم. بسبب صمته وصمت "إيزامارى"، أو بسبب أنها ولدت فى يديه، وأن قلبيهما قد دقا معاً طويلاً جداً، فهو قد افترض أنه يعرف عقلها. لكنها ربما كانت فى حالة حب فى اللحظات التى سبقت قدومه ليحطم على الطريق أسعد شىء فى حياتها. عمل بجنون، يطعم الحيوانات، يجمع الروث من الحظيرة، ويُكَوِّم السماد المتبخر فى المرعى. وتسقط بلورة ثلج جافة لتسيل بالقرب من

قدمه. فيتطلع ببصره إلى أعلى على نافذتها. حاول أن يفهم قلبها، أن يعرف ما الذى يمكن أن يجعلها فى حال أفضل. أغلق عينيه ورأى ضوء الشمس. رأى كأس العالم منشورة مثل زهرة مع الفجر، تتسع وتتألق تحت الشمس، ثم تنذوى فى ظلام الشذى.

كان السائحون يهربون من الشتاء، تعبر سياراتهم الطويلة عبر الطريق فى قوافل. تقصر فترات النهار، تتقلص السماء، يضيق الفضاء، ينخفض ويصير رمادياً، وفى العتمة التدريجية يصير الساحل إطاراً من الرماد. فقط قلة منهم تخلفوا مع كاميراتهم ومراجلهم ثلاثية الأرجل، يقفون فى الأعشاب البرية، يسافرون إلى أعلى ليلتقطوا صوراً للبحر، للأوراق المتحولة، الخشنة، الشكل المكشوف من الأرض. كان "جودى" يلاحظهم، هؤلاء دائماً نحفاء، رجال رشيقون ممن يرتدون السراويلات المحكمة عند الوسط مثل "الجونلات"، وآخرون شعرهم طويل، يتريضون بنظارات أنيقة لها عدسات ملونة. غامروا بالدخول إلى الحقل، يتعثرون فى الأخاديد، يراقبون الحركة السريعة التلقائية عندما يحفر ليحضر البطاطا من الطين البارد النظيف. لقد اعتبرهم عدوانيين، وغرس الجاروف فى الأرض إلى عمق أبعد.

وعلى الرغم من أنه لم يكن من الممكن ألا يتناهى إلى سمعك القصص عن الولايات المتحدة، إلا أن "جودى" لم ير أية جدوى فى المشاركة بالتكهنات. فالحديث عن دفع الغرامات والحياة الزهيدة السهلة، لم تكن تعنى شيئاً عنده. وربما يكون الأمر بالنسبة

للبعض أن الأرض الصخرية والصيفيات السريعة لم تكن كافية، لكنه كان يريد القليل الآخر منها. فقط الآن، للمرة الأولى، تساءل من هم السائحون، ومن أين أتوا، وما الذى يعرفونه. كان أبوه واحدًا منهم، وذهبت أمه إلى الجنوب، وربما كذلك هو يعتبر أنهم أهله أيضاً.

وحينما عاد إلى البيت، كانت العمات قد وصلن فى اللحظة نفسها الآن على وجه التحديد. وكان صوت سعال "إيزامارى" الواهن المستمر قادماً من أعلى. لقد كانت دائماً حساسة للبرد، وأطلقت العمات عليها اسم "المقرورة". ولم تكن تغادر الفراش أو تأكل لأيام. وخوفاً من أن يوقظها، كان ينصت من خارج حجرتها. وقد دخل فى مرات قليلة، فقط من أجل أن يسمعها تتنفس، ويخرج بدون أن يحدث صوتاً، يفتح الباب أو يغلقه بهدوء على قدر استطاعته. وعند سماع صوت سعالها، يشعر كما لو إنه يكافح شيئاً ما غير مرئى، يخنقه ويضغط على أنفاسه مثل بطانية تغطى وجهه. أراد أن يعرف ما الذى يستطيع أن يفعله، ومن يحاربه.

ومن المدخل المعتم، كان ينصت إلى عماته.

"إنها حزينة مكتئبة. لكنها لن تتزوج أبداً. إنها فقط مسألة وقت"

"نعم هى حزينة. يجب أن تذهب إلى دير الراهبات"

"نعم دير الراهبات. سوف تصير راهبة رائعة"

"إنها حزينة. كئيبة هكذا. فتاة لا تبالى بشىء"

ويخرج "جودى" متعثراً إلى الخارج. وتستقر الشمس الرمادية خافتة بعيدة فى الأفق الغائم. ومن على بعد، بدا برج الكنيسة كراية تهفهف بين البحر والجبال. وتجمعت البرودة واحتشدت من حوله.

وعند رصيف المرفأ، وجد "هيرفى هيرفى". سأل ما الذى ينبغى أن يفعلاه. كلمات متقطعة متلعثمة. كان "هيرفى هيرفى" مخموراً. كان لتوه قد ربط الحبل ووضع القوارب. وتوقف، وألقى نظرة من عينه الوحيدة على "جودى".

قال فى مواجهة هذا الصمت العاصف، لا يوجد حل. الناس يموتون. أن تستدعى طبيباً سيكون تبديداً للمال. ليس بإمكانك تغيير أى شىء.

واندفع "جودى" فى البرودة المعتمة فى مقابلة هذا الغضب. مضى إلى كومة الأخشاب، وانتزع الفأس وهزها عالياً، وأخذ يقطعها بقوة وبلا هدف وينظر سريعاً إلى الشظايا المتطايرة، حتى انفصلت يد الفأس. وانحنى لاهثاً. لا يعرف كيف يبكى، فقط ما استطاعه هو أن يئن. ومشى بصرامة إلى خارج المنزل. كانت تحده الأشجار من الخلف. فتح الباب، وركع مثلما علمته جدته فى الكنيسة منذ سنين مضت. رفع اللوح. وبدون أن يغلق عينيه، دفع برأسه إلى الداخل، إلى أسفل من خلال الطبقة الرقيقة من الثلج.

***

بدأت الهجرة إلى المدن الصناعية فى "نيو إنجلاند"(*) عند ثورتى عام ١٨٣٧و١٨٣٨ وتزايدت إلى ذروتها فى عام ١٨٨٠ العام الذى وُلِد فيه "هيرفى هيرفى". وحينما كان صبياً، شاهد العربات فى الأضواء المعتمة، حشود المسافرين بياقاتهم المشدودة إلى آذانهم. كان قد أقسم هو وأبوه ألا يسلم أبداً هذه الأراضى. وربما كانت كراهيتهما لهؤلاء الذين تركوها هى نقطة الاتفاق الوحيدة مع واعظ الكنيسة. وفى مرات عديدة فى كل شهر، كانت المواعظ تصف المهاجرين بالخمول والانكفاء على الذات. إنها كانت تُضعِف مهمة الكنيسة السماوية فى أمريكا الشمالية. لقد أفسدتهم رغبات زوجاتهم فى وسائل الرفاهية. إن هؤلاء المؤيدين للهجرة إلى الولايات الأمريكية سوف يفقدون إيمانهم ولغتهم. ومن المفهوم أن الفرنسيين الكنديين الأوائل قد ذهبوا بسبب السياسة ولافتقادهم للأرض الزراعية وعدم حصولهم على الفرص. لكن ترك الشتاء الشمالى يحتاج إلى القليل من المبررات، التى يتوافر الكثير منها: قصص الجنوب وازدحام الشوارع المشمسة وازدهار المصانع، البرهان الساطع على الثروة التى عادت فى شكل رجال يرتدون ملابس مصنعة ويحملون ساعات جيب ذهبية. ومع نهاية القرن، ذكرت مقالة فى الصحيفة أنه كانت هناك فى "نيو إنجلاند" عشر مدن جديدة يتخطى تعدادها عشرة آلاف نسمة، بينما مدينة "كيبيك"

(*) الولايات المتحدة الأمريكية حاليًا.. (المراجع).

الفرنسية نفسها لا يتعدى سكانها خمسة آلاف. وعبر الحدود كان الأقارب يتعجبون من المياه الجارية والكهرباء وشيكات الأجور الثابتة. حتى القساوسة بدءوا يذهبون، متأثرين بالثروة فى الأبرشيات الجديدة، مؤكدين بأن خدمة الرب يمكن أداؤها فى أى مكان آخر. وتغيرت رسالة الأحد: إنه على الكنديين أن ينشروا الإيمان الحقيقى. وأغلق الأطباء والمحامون مكاتبهم وتوجهوا جنوباً ليفتحوا عيادات ومكاتب جديدة. لكن بالنسبة لهؤلاء الذين بقوا، كان الاختيار حقيقياً مثل الأرض الراسخة، كما لو كانوا يؤسسون منازلهم يومياً فوق ساحل مهجور.

إن مرور قرن من الزمان مع تكرار الحدث نفسه هو وقت طويل بما يكفى؛ لأن يفكر الرجال بأنه جزء من النظام الطبيعى للأشياء. لذلك حينما تغيرت القوانين فى الولايات الأمريكية وتوقفت الهجرة وأُغلِقت الحدود، بدا الأمر كما لو إنه كارثة بكل المعايير. فهؤلاء الذين عادوا إلى الوطن للزيارة تحدثوا عن الكساد العظيم، حتى أن بضع عائلات عادت بالفعل. وفقط أثناء الحرب العالمية الثانية، انتعشت أسطورة الجنوب التى لم تكن تُنسى بسهولة.

وفيما بين المستأجرين لمدد طويلة للمنازل الواقعة على حدود القرية، كان يوجد رجل اسمه "هونورى" الذى على الرغم من أنه يبدو عجوزًا جداً، إلا أنه كان أحد أبناء "هيرفى هيرفى" من زواجه الأول. لم يتحدث عنه "هيرفى هيرفى" أبداً، لكن القصة كانت

معروفة، يرجع تاريخها إلى ما قبل غزوات "نورماندى". لم تكن الحرب أمراً مألوفاً. ولم يشعر أهل "كيبيك" بالولاء إلى إنجلترا، ولم يكن لديهم الوقت ليتعاطفوا مع فرنسا. ومازال يوجد القليل من القلوب الكبيرة جداً فى حياة القرية، وسرعان ما أُطلق على "هونورى"، بسبب مديحه للحرب وخطاباته البليغة عنها، لقب "الأمريكى". كانت القوات تُرسل إلى الغرب من أجل الحرب فى الباسيفيك، وبعد إخبار القرية كيف أن كل شىء سوف يكون يوماً ما أمريكياً، وكيف أنهم سوف يشبهون جميعاً السائحين الصيفيين بسيارت فارهة وزوجات شقراوات، قام "هونورى" بحزم حقائبه. وعلى الرغم من أن "جودى" لم يكن يهتم أبداً بالقصص، إلا أن هذه القصة كانت تُحكى أيضاً غالباً له ليس ليعرف. كيف أن "هيرفى هيرفى" أمسك بالشاب فى طريقه إلى مكتب التجنيد وضربه بيد جاروف مكسورة. ومات ابن آخر فى تلك الأثناء فى "دايبى"، واعتقد "هيرفى هيرفى" أنه كان ينقذ "هونورى". لكن بعد أقل من شهر شفى الولد بالكامل تقريباً، وغادر عند المساء، وتطوع وركب مع قلة من الصيادين الذين تبدو عليهم سمة الجسارة، ليلحقوا بالقطار المتجه غرباً.

وكما سوف يحكى "هونورى" فيما بعد، حينما عبر الجنود الفرنسيون الكنديون من خلال أقاليم "برايرى"، سخر منهم السكان المحليون. وقد علم بأن مشاعر الحرب المضادة للفرنسيين الكنديين، قد

أثارت الغضب من الساحل إلى الساحل. وتعلقت الصخور معتمة فى ضوء القمر. كان يهبط ثانية، ليتوقف فى إحدى المحطات الفارغة على بعد ساعات فقط من "فانكوفر". وتردد، ثم غادر عربته واستمر فى السير على الطريق.

وفى النهاية، وجد الطريق إلى الحدود مع شاحنة تحمل المهاجرين البولنديين. وعبر جنوباً على قدميه، وتطوع مرة أخرى، هذه المرة كأمريكى، وتم شحنه، ليس إلى الباسيفيك، ولكن إلى الصحارى العليا لـ"نيو مكسيكو". كان متأكداً أن هناك غلطة ما قد حدثت. فقد مشت فصيلته وعسكرت فى الصحراء. حفروا الخنادق ودخنوا السجائر، وبسبب حداثة لغته الإنجليزية لم يستطع أن يوجه أسئلة. وعند المساء توهج الأفق بالقنابل، وظن أنه ربما كان المكسيكيون لديهم سبب مشترك مع اليابانيين والألمان، وسرعان ما سوف يتدفقون عبر الحدود بقبعاتهم العريضة عليها علامات الصليب المعقوف وشوارب هتلر، ثم فيما بعد ظهيرة أحد الأيام، حدث انفجار مروع هز الأرض. كان منحنياً يدرس الإنجليزية مع إحدى مجلات السوبرمان الهزلية البالية، ونظر ليرى ضوءاً مبهراً مخترقاً، لونه أبيض مثل الذى وصفه الواعظ على أنه عرش المسيح. ووضع يديه فوق عينيه، وشاهد عظامها الهشة.

وفى الصيف الذى تلا مغادرة "هونورى"، نزل رجل عجوز إلى القرية بحذاء عسكرى طويل جداً، وهو يتصبب عرقاً بشكل مرعب. كان محنياً، أصلع

الرأس، مهدم الأسنان، وكانت القصة التى حكاها عن انفجار هائل، وكيف رجع سائراً فيما بعد إلى المعسكر وخلع خوذته ليجد شعره ملتصقاً بداخلها. وظن أنه ربما كان هذا من الشمس التى سخنت المعدن، لكن فى هذا المساء بدأت أسنانه تتساقط. إنه يرتعش ويسيل عرقه بغزارة ولا يستطيع الوقوف. وبعد أسبوع من حدوث هذا، أُطلق سراحه، وأخذ تذكرة عودة إلى وطنه. ومازال يعرق بغزارة، وبشكل مرعب وبدون سبب معين. ورفض "هيرفى هيرفى" أن يأخذه معه، وكذلك أخذ "هونورى" غرفة فى القرية. وقضى أيامه محنى الظهر، ليثبت مع الوقت أنه قصاص مرعب، وصانع متمكن للجعة من كحول البطاطس المتخمرة.

وبعد عودته، قرر الكثيرون أن الولايات المتحدة كانت مكاناً مرعباً، لكن هذه القناعة لم تستمر. فنوعاً ما، بالنظر على "هونورى"، منطوياً دامع العينين فى المدخل، وجدوا أنفسهم يقولون ليس مرعباً، بل اعتاد أن يكون مرعباً. وبدا أن ذلك بسبب عمره العظيم، وأن الحرب ومعاناتها كانت موجودة منذ زمن بعيد. فى الحقيقة، كان لـ"هونورى" حضور منتظم واتخذ شكل القاعدة، يلبس ملابس رجل عجوز، فمه مطبق، شارد الذهن.

وفى المساء الذى ذهب فيه "جودى" إلى المنزل على حدود القرية، وجد "هونورى" جالساً فى الردهة التالية للموقد، يرتعش ويتصبب عرقاً فى الحال، وتجاعيد حمراء أسفل عينيه.

سأل "جودى"، لماذا تركت الولايات الأمريكية؟ رفع الرجل العجوز وجهه وابتسم. قال وهو يبتلع ضحكته، وما الولايات الأمريكية؟ هذا سؤال كبير، "هين" (البيت الأبيض)، "مون" (الرهبان)، "جارز" (متحف العالم الطبيعى)؟

إن "جودى" الذى لم ينظر على خريطة لوقت أكثر مما يستلزمه التأكد من أنها ليست صورة، لم تكن لديه أية فكرة عن المساحة التى لا يعيش فيها. فقد جاهد من أجل إيجاد معنى لكلمات "هونورى"، الحرب الغريبة، والصحارى، والحجر الأحمر المتداعى، والنباتات ذات الإبر بدلاً من الأوراق، والثعابين التى تلاعب ذيولها على أنغام الموسيقى. هكذا تحدث هذا الهيكل العظمى المبالغ فيه بدون أسنان، لا يتوقف إلا ليرتشف من جرته "الماسونية" الشكل، محدثاً صوتاً. وصف عدواً مخادعاً، أسلحة لا تقتل، بل تصيبك بالشيخوخة. قال إن "نيو مكسيكو" كانت مكاناً رديئاً، كبيراً جداً غارقاً فى الأتربة. الأماكن الجيدة هى كاليفورنيا وكونيكتيكوت ونيوجيرسى، وخصوصاً نيويورك. وصف عالماً من الثروة والشمس المشرقة والسيارات الفارهة، نساء شعرهن لامع، الأمراض غائبة. تحدث عن الآلاف الذين ذهبوا ولم يعودوا بعد مزارعين، بل رجال أغنياء يتزينون بالحلى الذهبية. وأومأ "جودى"، فهم أخيراً.

وعندما عاد إلى البيت، تأكد من السبب الذى من أجله ذهبت أمه ومعظم عائلته إلى الولايات الأمريكية.

ارتعشت العاطفة فى بطنه مثل سمكة كبيرة ابتلعت الطعم. كانت عماته على حق. لم تولد "إيزامارى" لهذا البلد. لم تكن هى المرأة التى ستحمل فى ثمانية عشر طفلاً. كانوا قليلين. ولهذا السبب فقد هرب الكثيرون، على الرغم من أن "إيزامارى" لم تكن لديها القوة مطلقاً أو الشجاعة. وتساءل، بعد أن فكر فى كل شىء سمعه، ما إذا كان هناك مكان له ولـ"إيزامارى" فى الجنوب السحرى. وإذا ما تتبع سيراً على الأقدام الآلاف الذين غادروا، كيف سيصير به الحال؟ وماذا عن هذه الجبال والبحر؟ قال القرويون، إنه عندما تعبر الحدود، لن تصير إلى ما كنت عليه أبداً. فالأبناء الذين عادوا كانوا غرباء على الموائد. لكنه كان لديه ما يكفى من النحيب والأنين، المرفهين الأمريكيين، مآسى الفرنسيين الكنديين، الفقر والاستغلال. لديه ما يكفى من الناس الذين ولدت حكمتهم من رحم المعاناة. لقد بدأ الشتاء، وعبرت أمواج الخريف العاتية منذ فترة طويلة، وكان الحل الوحيد هو ضوء الشمس.

وحينما وصل إلى المزرعة، لم يواصل إلى الداخل. تسلق الممر الجبلى، وخفقت الريح بشدة داخل سترته المفتوحة. وتوقف فى حقول البطاطس. ظلت هناك القليل من الشلمات لم تُجمع، وبدأ فى العمل على الرغم من أن الشمس تأهبت للمغيب. ومع الوقت كان قد جمع حبات البطاطس المتبقية من الأرض المثلجة، وقد تجمعت السحب كأشرعة هائلة فوق الخليج، رقع سوداء على صفحة أفق مصبوغ

باللون الأحمر. وتدلت الكابلات المزينة بين الأبراج الكهربائية مثل غرزات واسعة. ووقف فى مقابل اشتداد الريح، حيث تنحدر الأرض الصلبة من حوله، وارتعشت النجوم الأولى من البرودة. ووقف هناك، ظل هناك على وجه التحديد.

وقبل الفجر تماماً، مشى "هيرفى هيرفى" إلى حيث صيحات الإوز العالية من أعلى. وللحظة، ظن أنها نبتات الربيع، فقد نمت الأعشاب الضارة خارج النافذة، لكنها كانت مجرد هبات ريح فقط هى التى أسقطت معها عناقيد ميتة من رءوس الأزهار، لمعت تحت ضوء القمر. ورقد فى فراشه ينصت إلى النقرات المنتظمة لصوت محرك الثلاجة من الطابق السفلى حتى توقف عن الطقطقة. وشعر بالسكون يخيم على البيت. والغريب هو أن ذاكرته عادت تطوف إلى الخلف عكس السنين، الطريقة التى ينتقى بها من يبقى من بين أطفاله، ويبنى عائلته مثل أى شىء آخر، والأقزام الذين ماتوا، من الذين كان يعرف أنهم سيموتون، والأراضى العظيمة جداً التى حتم القانون فقدانها. وأحياناً ينظر على "إيزامارى"، بدون أية عاطفة قوية تجاهها. لقد كانت غير قادرة على أن تفتح عينيها. وحينما عاد إلى البيت وهو مخمور ذات ليلة، رأى "جودى" يمشى على الطريق بثيابه الداخلية، نائماً، يهمهم، وقدماه الحافيتان تلتمعان على الأرض المكتظة المتجمدة. وأياً كانت الرابطة الغريبة من أنهما ليس لديهما أم أو أب، إلا أن الرابطة التى اشترك

فيها التوءم كانت كبيرة جداً. لقد كان الاثنان أبلهين، أحدهما رقيق، والآخر قاسٍ، وبينما ورثت "إيزامارى" شيئاً ما من قوة "جودى"، إلا أنها بدت الآن على العكس، وازداد حب "جودى" عجزاً.

رقد "هيرفى هيرفى" لفترة أطول، يتذكر، ويأمل فى أنه كان مخطئاً. ففى الليلة السابقة، ذهب إلى غرفتها. وجذب الملاءة، ورأى أنها كانت ميتة، وكان على وشك أن يغادر المكان، لكن شيئاً ما لمسه، ربما شفقة من أجل "جودى". وأغمض عينيه.

وأنصت "هيرفى هيرفى". كان متأكداً. إلى أين يمكن أن يأخذها "جودى"؟ إلى أى مدى يمكن أن يأخذها؟ وأزاح "هيرفى هيرفى" الأغطية ونهض وارتدى ثيابه. ونزل إلى الطابق الأسفل وإلى الحظيرة بالخارج. قام بتكسير الثلوج التى تغطى أوانى المياه، ثم وقف يراقب الطريق. ربما كان هو آخر شىء يراه القرويون الراحلون أو يتذكرونه، رجل غاضب ضخم الجثة يحملق بعين واحدة، ينتظر وهم يمرون. لسنوات طويلة كان يكرههم، لكنه لم يعرف كيف أنه من الممكن أن يخسر - ليس فقط أسرته، لكن قوة التباهى والحب والقانون البسيط للعنف. لم يكن بمقدوره أن يتخيل أطفاله فى مكان أو آخر غير المكان الذى كانوا فيه. هل حملوا معهم شيئاً من هذا العالم، أرضه أو بحره؟ فى انبثاق العتمة الأولى لهذا الصباح فى ديسمبر، اختفى كل شخص قد أحبه على طول الطريق. لم يتوقفوا أبداً عن الحركة المستمرة

والاختفاء فيما وراء الضوء الرمادى. وتوارت كنيسة القديس لورنس وراء صخور الساحل، والريح ثابتة مثل الجاذبية. لقد رأى صورة هؤلاء الذين فقدهم كما الأخشاب تُلقم بها النيران، الجنوب بلد الرماد، أرض الأشباح.

كيبيك ـ جورجيا
١٩٦١

كـان أهـل "جـاسـبـيـسـى" خـلـيـطـاً من الأكـاديـين والـنورمـانـديين وسكـان جـزيرة تـشـانـيل أو جيرسـى أو جيرنسى، والأيـرلنـديين والهنود والإسكتلنديين، وعلى الرغم من أن الموالين للمملكة العظمى كانوا هناك منذ الثورة الأمريكية، إلا أنهم فصلوا أنفسهم. لكن عائلة "هـيـرفـى" يمكن تتبعها إلى الخلف إلى "بـريـتـانـى"(*)، إلى رجل أخـرس، وهـو الـذى قـد أعـطـى قـوة دمـائه واسم القـديس "بريتون". وقد انتهى به الأمر بشكل ما فى "كويبك"، حينما كانت صناعة الأسماك تبنى المدن للعمل الموسمى. وتحكى القصص بأنه لم يصدر صوتاً أبداً. وفـركت امرأة حكيمة لسانه بسائل من نسغ نبات معـمر، ووضعت رماداً ساخناً فـى كفيه، وعلقت أسنانه وهـو طفل فى رقـبـة عـنـزة عـمـرهـا عـام، ورمت بها إلى البـحـر، لكن دون جدوى ـ فهو كطفل مولود حديثاً لم يصـرخ أو يقـوق، وكرجل رفـع الأحـجـار وتلقى الطعنات

(*) إقليم شمال غرب فرنسا (المراجع).

ومارس الحب بدون أن ينخر عند القذف. فلماذا يكون راضياً بأن يترك بيت آبائه وأجداده عند الضفة فى "بريتانى"، هذا ما لم يعرفه أسلافه أبداً.

وعلى مدى قرن بعد وصوله، أصبح اسمه دالاً على نوعية الدماء، الحكاية المبالغ فيها جداً ويصعب أن تكون حقيقية، بما يجعل رجال "هيرفى" يبدون فى الحال غير مكتملين وكثيرين جداً. وخلال كل "الجاسبيسيين" كان الاسم معروفاً للعمالقة، لأنه فى الماضى المنسى بدأت العائلة فى تعميد الأطفال الذكور باسمه المركب لأبيه وجده تفصل بينهما شرطة للتعريف بالفصل بينهما. وحينما يصبح كل ابن رب البيت يأخذ لقب "هيرفى بير". إن تخلى "هيرفى هيرفى" الوحيد عن هذا التقليد، كان من أجل أن يدع زوجته تعطى الأقزام توصيفاً أقل وضوحاً، لكن تعطى فى الوقت نفسه تسميات أكثر ملاءمة على الإطلاق للشهداء والقديسين.

وعند الكثيرين، القصة كانت هى بقاء القوة البشرية، لكن مع مرور الوقت، وُلِد "هيرفى هيرفى"، وطوى النسيان مغامرات جده الأعلى، حتى ذلك الحين تناقلها فقط الآخرون، أما "الهيرفيين" أنفسهم فهم عشيرة غارقة فى الصمت. وعلى الرغم من أن الشخصية الأصلية قد فُقِدت لكل الـ"هيرفيين" وكذلك بالنسبة إلى "جودى"، إلا أن اسمهم وقوة دمائهم كانت كافية. وهو لم يرغب فى شئ آخر.

***

لقد رسم الصقيع باقات الزهور على زجاج النافذة. وجلس "جودى" لفترة أطول، ثم عبأ حقيبة بملابسه. ووضع ثلاثة أزواج من الجوارب، ومضى إلى حجرة "إيزامارى". إن الأغطية المتكومة تكشف بالكاد عن الإطار المحدد لجسدها. كان شخص ما قد أغلق الستار، وغضب من هذا. وأزاحه على الرغم من أن الوقت كان مساءً. ونشر الملاءات على الأرض واحدة فوق الأخرى، حتى كانت ترقد بدون أغطية، والتفت ملابس نومها تحت ذراعيها وحول فخذيها بإحكام كأنها خيوط ملفوفة.

ورفعها. إنها لم تأكل منذ أيام. لم يحاول أحد. ركع وأغمض عينيه. اندفعت الدماء إلى أذنيه مثل جناح طائر يصفق. وحينما عاد الصمت، أراحها فوق البطاطين. لم ينظر إلى وجهها. لفها وهو يحاول أن يكون رقيقاً. وظل كل شيء كان ينوى أخذه على الأرض. وحملها وهبط بها إلى الدور السفلى. غادر المنزل ومشى على طول الطريق.

وظلت كنيسة القديس لورنس معه. كانت الأيام قصيرة، وخطواته منتظمة قوية، كما لو كان تدريبه من أجل هذا. ووافق على أن يركب بعض وسائل النقل، لكنه لم يضع أبداً حمله أو يتحدث مع أحد أو ينصت إليه. إن الحمل داخل البطاطين كان هزيلاً جداً، وما كان بمقدور أحد أن يعرف ما الذى يحمله. وحينما اكتمل قرص الشمس، رفع وجهه. كان هناك "ماتان" و"ريموسكى" والقليل من أتباع الكنيسة والكاتدرائية

والكثير من القرويين. أخذه رجل فى صندوق شاحنة إلى منتصف الطريق. كان يتجول بالمؤن التى ينبغى عليه تسليمها قبل تساقط الثلوج. وقدم إلى "جودى" سيجارة، ولم يهتم حينما تجاهل عرضه.

وفى "ريفيرا دو لوب"، اختبأ "جودى" بين صناديق الشحن فى أفنية المخازن، وتسلق أحد القطارات. ازدحم الصندوق ببالات الجلد بروائحه اللاذعة الحادة، وانحشر فيما بينها يحتمى من الرياح. وبهذه الطريقة شاهد "كيبيك"، "مونتريال"، والآن ضاقت شواطئ "سان لورنس" بما يكفى أن تسمى نهراً. ومن بين الملح لمح ناطحات السحاب.

وحينما مشى، استدعت مشاهد العاصفة الماضى، سواد الصنوبر أسفل الثلج، والظلمة الأعمق للجبال. وربما يعبر الحقول المنبسطة الشتوية المقفرة. كان الريف فى "كيبيك" أليفاً، محروثاً أو ضارباً للسمرة حديثاً، تتناثر فيه الأشجار، وهنا أو هناك تصطف بضعة منازل على الطريق السريع، ومخزن ومحطة غاز. لكن لبضعة أميال فيما وراء الحدود، كانت الغابة تزدحم بشحنات الأبواب. وظهر كأن القطار لا يتحرك لكن الأرض بدلاً من ذلك تنطوى فتمسح الحقل والقرية.

وفى الليلة التى وصل فيها إلى الحظائر، انتابه الدوار من اهتزاز العربات، وكانت خطوط السكك الحديدية الجانبية والجسور وأبراج المحولات، والشاحنات المزدوجة ذات المقطورة، كلها تدوى بصوت

كالقنابل. رجال يتسكعون، يتحدثون. كلب ينبح. بَدَّل القطار، فحزم الجلد هى الآن بالات من الصنادل المفتوحة. أفسح مسافة فيما بينها، ليس فقط من أجل الاختفاء، ولكن أيضاً للاحتماء من الرياح. لم يكن متأكداً كم مضى من الوقت. لم يعد لديه الكثير ليلف البطاطين. فكر فى أن ينظر إلى وجهها. ولم يفعل. ومؤخراً فى الصباح، بعد أن أخذ القطار يهتز، بدأ فى التحرك. انصرم النهار وتوارى، وبمجرد أن بدأ يتسلل عائداً، حينها استيقظ.

وصلت الشمس إلى الأفق. كان الهواء رطباً. بدا كما لو أن البالات قد احتوت جسده. أزاحها، ووقف عند الباب. وبيد واحدة حل سترته. واستنشق الهواء، أنفاس عميقة. ومستكشفاً احتمال التردد، ضم "إيزامارى" إلى صدره، وقفز.

حينما فتح عينيه، كانت الطرق خالية، تحدها الحقول، وتبدو الأشجار عن بعد وإلى الأمام، كأنها دخان أزرق فوق جبال منخفضة. وبالتدريج نظر إلى أسفل وكشف البطاطين. حملق، وبقى هناك راكعاً على ركبتيه. ومتأخراً فى الصباح أتى حيوان من "الراكون"(*)، ورفع قناعه عن وجهه. وجاء فأر وثلاثة غزلان، تمهلوا جميعاً. أحياناً قبل المساء، كانت تهب عاصفة تنثر الطين فيما حولهم. وجاء المساء، وكان القمر عالياً يقترب من الاكتمال، والحقول بيضاء

(*) الراكون: حيوان أمريكى ليلى صغير له قناع أسود يشبه الشريط على عينيه (المراجع).

وممتدة، والجبال جلية وطويلة، ناعمة الذرى. وحينما كان القمر مازال لامعاً، بدأت السماء تتحول إلى اللون الرمادى. النمل يختبر الأعشاب. الديدان أصفرت وتجمدت صامتة على الأرض. ربما تعفنت ملابسه. ربما مزقها. ربما كان يركض أياماً عبر الحقول والجبال. تذكر فقط الوقوف ليعرض حزمته لضوء الشمس، ليجعل البطاطين تسقط وهو يسلم "إيزامارى" مرة أخرى إلى السماء.

لأسابيع هام جائعاً عارياً. ينام دون اكتراث بأى شىء، يستيقظ على الحشرات الزاحفة، أو طقطقة الأمطار. ربما لا يستطيع أن يفسر هذه الأيام، ولا يتذكر ماذا حدث لـ"إيزامارى"، أو لملابسه، أو حتى كيف استطاع أن يهيم طويلاً فى بلد الطرق والتقسيمات. وبعد سنين، سوف يرى الأفلام التى فيها حادث أو موت أو زواج أو إعلان حرب، يتبعه عناوين بارزة فى الصحف أو صفحات التقاويم المعروضة والمعلقة، أو حتى حينما يتذكر هذه الأيام، تراجع الزمن الذى يمرق سريعاً إلى الماضى، والشموس تتحول فى السماء، تتمدد الظلال وتنسحب فى لمح البصر. كان هناك عالم من طفولته، واضح ومطلق، ثم القطار، واليوم نفسه ينقضى وينقضى، والشمس، والليل، والجوع، عجلة الزمن تغزل بحرية وبدون نتيجة، حتى يخطو من خلال مصد الريح إلى الفناء الخلفى لبيت من الطوب المتهدم، واحد من أكثر من عشرة بيوت على الطريق الضيق يوجد عبره المزيد من

الحقول. شاهد علبةِ باللون الذهبى لمطهر "اليزول" على الأعشاب، وملابس ترفرف على حبل غسيل. بدأ بالعلبة وركلها بمقدم قدمه. وقذف بخنفساء سوداء من أسفلها. حقيقة لم يكن شىء يبدو حينئذ طبيعياً مثل المنازل، والملابس، والعلبة - وكما لو إن روحاً حارسة قد أزاحت الحمل عن عواطفه، وحكمت الآن أنه قادر على حمله - غضبه. ومضى إلى الحبل المنشور عليه الملابس، وأتى إلى زوج من "شورتات" الملاكمة، أحدهما لونه أحمر والآخر أبيض وأزرق، وقميص "فانلة"، اختاره لأن الريح كانت تهب.

كان قد ارتدى فقط الشورتين حينما سمع صوت إغلاق باب ورأى رجلاً مفتول العضلات، مقدمة شعره شقراء وذراعاه بحجم فخذى بقرة. وكان للرجل عينان ضيقتان، وأكثر اكتنازاً من البقرة أو سمكة "الشوب"، من كاحليه حتى الثنيات السميكة التى يغطيها العرق فى رقبته من الخلف.

هذه ملابس الملاكمة تخصنى. أنت لا تعرف ما تفعله يا صاحبى.

وأسرع إلى أسفل المدخل مندفعاً يقفز بقوة. كان يرتدى لباساً داخلياً منقطاً، وحافى القدمين مثل "جودى"، كتلة من الدهن المترجرج فى سراويله.

ووصلا معاً إلى العشب الأخضر. كان "جودى" ضعيفاً وجائعاً لكنه كان غاضباً، ، يتوق إلى العودة إلى هذه السنوات من التدريب، وأياً ما كان المكان الذى

هبط منه هذا الرجل، فلن يكون أسوء معاملة من أم "جودى" أو المعاملة فى شجارات الرصيف. ومتدثراً بسراويله الواسع، زرع "جودى" قدميه وضرب كما سوف يفعل لسنوات، ليس الرجل المقابل له، بل فى المجسم الخاص بتدريب الملاكمين، محملاً بالفقدان والغضب والوحدة. ولم يتحرك الرجل بعد ذلك، لكن الأرض والمنزل والأشجار اهتزت. وأُصيب "جودى" بجرح فى جبينه، وسالت الدماء لتقوم بكل ما يمكن أن تفعله كل الدموع. الرجل نزل إلى أسفل. غرد طائر، زقزق. "جودى" أمسك بأرضه.

رجل ثان، هذا الرجل العجوز، أتى من أمام المبنى، يعرج قليلاً، قميصه مطبوع عند القلب بقفازين معلقين. نادى، أهلاً يا "بوس". رمش بعينين دامعتين، وتابع نظرة "جودى" إلى سراويله المنقط بالرسوم، وهو يعرج على الحشائش غير المقصوصة، كما لو إن "بوس" قد ذاب.

وحاول "جودى" أن يتكلم، لكنه نجح فقط فى أن يصدر صوتاً مثل النباح. تذمر، ابتلع، أخذ نفساً عميقاً. قال، لا إنجليزية.

ورد الرجل، لا خراء، يا ولدى. وأصبح أقرب قليلاً، فحص "جودى" كما لوكان قد تم طلاؤه حديثاً. وألقى نظرة فاحصة على الرجل المستلقى. ما اسمك يا ولد؟

قال "جودى" بعد مزيد من النباح المخنوق المتقطع، لا إنجليزية. فرنسية.

وهو كذلك أيها الفرنسى. هل تحتاج إلى مدرب؟ وما رأيك فى مدير؟

فقط حملق هو و"جودى".

وهو كذلك تعالى. سيارتى فى الخارج. فقط دعنى أجعل أحد الأشخاص هنا يفحص زوجة "بوس".

ووقف "جودى" هناك يلهث، ولم يفهم حتى أسبوعين فيما بعد أن اسم الرجل كان "هيرب كارنى" الذى صار حلقة الوصل بين "جودى" وعالم الملاكمة، وأنهما فى غضون سنوات قلائل سيصبحان على طريق الشهرة. أخبره "كارنى" فيما بعد، أنت لديك بعض العمل لتأديه أيها الولد الصغير، لكنك فهمت الحركات. أنت فتى جيد.

وبعد ذلك، بدأ التدريب، وأكدت التدريبات القتالية من أنه سوف يجد مكاناً فى هذا البلد، وأن الغائب تماماً فى الحقول والعاجز فى السماء والذى يتهرب من واجباته، قد بذل مجهوداً بالرغم من كل شىء.

جورجيا ـ لويزيانا
١٩٦١ ـ ١٩٦٨

كانت الولايات المتحدة مكاناً موحشاً، وقرر "جودى" فى هذه السنوات أن "كارنى" قد رباه مثل ابن له. ولم تكن الأحياء المجاورة تختلف عن حى "بوس" كثيراً، إلا أنه كان أكثر ازدحاماً، تحده طرق نقل سريعة، وشجيرات عشوائية رديئة مع أكوام من القمامة وحفر ومحروقات، أراضٍ غير مملوكة لأحد، حيث حاول السكان المحليون إحراق المخلفات المنزلية ولم يفلحوا. وعاش "جودى" فى سرداب أسفل بيت "كارنى"، ونام على سرير نقال أخضر خلف جدار من أنابيب اللدائن الحرارية البلاستيكية التى تقرقر. وعلى الرغم من أن "كارنى" لم يكن لديه فكرة عن عمر "جودى"، إلا أنه قدر أن الفتى يمكنه أن يمضى بضع سنوات فى التدريب الجيد، وبعض الوقت ليتعلم الإنجليزية. لم تكن هذه شفقة بسيطة. فهو يستطيع أن يتعرف على قدرة الشخص على صنع النقود حينما يراه. واستطاع أن يدبر شهادة ميلاد مزورة عن طريق

رجل يعيش فى "أتلانتا"، فهو قد عرف آخرين فعلوا الشيء نفسه للملاكمين المهاجرين، وهكذا استغل اتصالاته. وأصبح "جودى" هو "جودى وايت"، حيث إنه اسم آمن، أصر عليه الرجل فى "أتلانتا"، فلا داعى لجذب الأنظار. وتم تسجيل عمر "جودى" على أنه فى الثامنة عشر. لقد أراد "كارنى" أن يجعل وضعه قانونياً.

وفى أثناء النهار كان "جودى" يؤدى المهام الشاقة، أو يُقطِّع الأخشاب، كما كان يفعل من أجل جدته، لكنه الآن يفعل بإيماءة من "كارنى" المنهمك فى مضغ علكة، يبصقها على العشب، قائلاً، أسرع يا ابنى، أسرع. ويتصبب "جودى" عرقاً ويتنهد بقوة، وهو يقطع العقد ويزيل البروزات والنتوءات من جذوع الشجر، وكتفاه تحترقان من لهيب الشمس. وباقى الوقت يتدرب فى "جمنازيوم" أنشأه "كارنى" مع عدد قليل من الأصدقاء. وأهَّل نفسه بتقنية أبرع من تقنية جده، حيث ينحنى أسفل تحت حبل مربوط عبر الحلبة ويشده بكل قوة على أركان الحلبة التى يكون ضغطها بالغ القوة، ويجعله "كارنى" يحركها بأنبوب الفينيل الحساس للضغط. وعند المساء يرقد "جودى" على فراشه، يستشعر جسده الآخذ فى التمدد، وعظامه وعضلاته اللامعة التى تنمو وتبرز على طول ظهره. وحملق فى "كمرات" الأرضية الجرداء، سمع صرير الباب عند زيارات "كارنى" إلى الحمام التى تتكرر عند المساء.

عرف "جودى" الآن أشياء: الأطباء طبيعيون، والفقر غير ضرورى. وعند كل سعال بسيط يسرع "كارنى" بتناول الأقراص المسكنة، كان يأخذ قرص "أسبرين" فى الصباح ليبقى فى حالة جيدة، وأخبر "جودى" أن التقدم فى العمر كان الجحيم، ثم اعتاد الأمر. وبعد أن عاش "جودى" طويلاً جداً فى منزل مائل بأخشاب غير مطلية، ورسومات وكلمات مخطوطة على الجدران، وتسربيات فى كل مكان، أصبح ممتناً لمنزل "كارنى" بدلاً من المنزل الردىء. لقد وجده مشمساً ومفتوحاً ونظيفاً. لكن "جودى" مازال متأكداً أن هذا ليس هو المكان الذى جاء من أجله. ليس هو العالم الذى وصفه "هونورى"، ذلك العالم الذى لابد وأن أمه سعت إليه وكل هؤلاء الذين توجهوا جنوباً، كان يشبه كثيراً العالم الذى كان يشاهده "كارنى" كل ليلة فى التلفزيون. ولم يكن هذا يعنى أن "جودى" يرغب فى ذلك، لكن عند التفكير فى "إيزامارى" أو "هيرفى هيرفى" أو المزرعة، يغمره إحساس بالفقد. فى كل صباح يستيقظ، يظل قلقاً بشأن "إيزامارى"، ويكابد ليتأكد من جديد أنها ماتت. كان يشاهد التليفزيون ويحاول أن يصدق بأنه من الممكن أن يجد مكاناً هناك. لكن فى الليل حَلُم بحركة البحر.

جاءت الأنباء، واستمر "كارنى" يسهب فى حديث ممل أكثر من المعلق التليفزيونى. كان هناك رجل فى المدار الفضائى، ونوع ما من أزمة صواريخ، وإطلاق

نار على رئيس فى عرض. كانت هناك حقائق حول الكون، الأقمار الصناعية والمسبارات الفضائية، وكل هذا الخراب العبثى. تجاهل "جودى" السياسة الساخنة، والتليفزيون الملون، والفواتير الانتخابية. ما تعلمه من الإنجليزية كان من خطب "كارنى" الطويلة التى لا تنتهى، حديثه عن الأيام الخوالى والملاكمين الذين خسرهم فى الحرب. إن الرجل الذى قاتله "جودى" كان اسمه "هوس جينكينز"، ولقبه "بوس"، ملاكم قوى كان قد هزم "لو-روى ويبستر" و"تونى سالمبا" كلاهما فى الجولة الأولى بضربة خطافية قوية من يده اليسرى. وبعد قتاله مع "جودى"، نهض "بوس" من على العشب. واستبدل "كارنى" بنطلونه القصير من نوع "إيفرلاست"، لكن على مستوى المواطنين فقد خسر "بوس" على أية حال، وعاد إلى المزرعة، مكسور الجناح، يطعم العجول الصغيرة بالحلمة المطاطية. وقد استخدمه "كارنى" كعبرة.

قال، لا تقاتل بغضب. عليك اللعنة يا بنى، أنت تقاتل بغضب، وهناك دائماً شخص ما بالخارج ليهزمك. هذه هى مشكلة "بوس" العجوز. هو لا يعرف أن هناك من الفتيان من هم أكثر منه غضباً.

وفيما يتعلق بغضبه الشخصى، شك "جودى" فى هذا. فقد كان يائساً إلى الدرجة التى تمنعه من أن يبدأ فى الصعود إلى الحلبة، لكن "كارنى" كان حريصاً على أن يخبره بأنه مازال لم يتعلم الملاكمة، وبأن الملاكمة ليست قتالاً.

وحينما كان "جودى" فى الثامنة عشر، بدأ فى جولات الهواة. نظم المباريات وكان يختصرها بكسر عظام الفك وتحطيم الضلوع، يرفع الرجال من على الأرض بضربات قوية أسفل الذقن. ومضى على الصعيد الوطنى يفوز بسهولة. يبلغ طوله الآن ستة أقدام وسبعة، يزن ما يزيد على مائتين وستين رطلاً ولا توجد بوصة من جلده إلا وبرزت عضلة من تحتها. يخبره "كارنى" دائماً بأنه كان عظيماً، يقيس، يزن، ينخس لحمه، يجمع المال من المباريات. وبعد الملاكمة، يأخذه "كارنى" إلى مطاعم شرائح اللحم من أجل الجبن المخبوز بالبطاطا وقطع اللحم المشوية والمتبلة. كان يغذيه كما لو كان يداعب سمكة قرش.

لكن "جودى" كان يخرج من كل مباراة غير راضٍ. لقد كان يقاتل بيض فقراء، ومواطنين من أمريكا اللاتينية وإيطاليين وسود متبلدين. فى هذا العالم، مع الكثير من أشعة الشمس، لم يستطع إلا أن يفكر فيما فقده بسبب وجوده هنا، واعتبر أنه يمكن أن يكون سعيداً مع أسرة من صنعه. لكن على الرغم من أنه فتش فى الزحام عن أناس سعداء مشرقين، فإنه لم ير إلا ذقون معقوفة، شفاه منافقة، بعضهم صلع، رجال سمان بلحى يرتدون بنطلونات بحمالات ملطخة ببقع الزيت، يقهقون على سقوط الملاكم. فقط عند الوطنيين المقيمين، كانت توجد فتيات جميلات عازبات، يرتدين البنطلونات "الجينز" الضيقة والقمصان الجلد بدون أكمام، يحتسين البيرة ويهللن

صاخبات. ولاحظهن لبرهة، وهو يفكر للمرة الأولى كيف كان يمكن فعل هذا. كن يبتسمن حتى يقترب متثاقلاً بما يتيح لهن أن يرون رأسه الذى يشبه السمكة تغطيها البثور، وحاجبيه الحمراوين المتباعدين، وعضلات جذعه المتوازنة فى انتشارها. وبعد ذلك يهربن. ولاحظ "كارنى" شروده.

قال، يا بنى، نحن نعتنق الديانة المسيحية اليوم لأن المسيح لم يستسلم لفتيات من هذا النوع.

كان "جودى" قد نشأ على المذهب الكاثوليكى، ورأى المسيح على أنه العمل الشافى، التهديد أو الوعيد، أو الشرائط الملونة التى تُمنح فى المدرسة للدرجات المتقدمة.

قال، ببساطة يا بنى ينبغى عليك أن تحتفظ بلحمك قوياً. لقد استثمرت فيك بالفعل.

وهكذا استمر "جودى" فى القتال. تأرجح فى طريقه خلال هذه الشهور، كما يحدث عند غسيل السيارة، حينما تضرب السوائل المرشوشة كأنها فرشاة هائلة ترسم الوجوه والشعر وقفازات الخصوم. كان يأمل أنه، طال الزمن أم قصر، فالغضب والوحدة سوف يتم غسلهما، وأنه لن يكون لديه مبرر للعودة.

وعلى الرغم من أن "جودى" كسب الوطنيين، إلا أن أولمبياد طوكيو كان فى الصيف السابق، وتساءل ما إذا كان "كارنى" قد احتفظ به ليتجنب هزيمة مبكرة على يد "جو فريزر". وافق كلاهما على أنه لا ينبغى أن

ينتظر ثلاث سنوات أكثر وعلى أنه يجب أن يكون محترفاً.

أخبره "كارنى" ألا يفقد عزيمته، سوف تكون أنت "على" الغرب بأسرع مما تتخيل.

وفى هذا الخريف وخلال الشتاء، قاتل "جودى"، وصنع شهرة، محطماً مراكز الملاكمين المتوسطين. ولم يكن "كارنى" بعيد النظر. فلم تكن الجائزة ضئيلة جداً، ولا يوجد ملاكم أو صالة عرض متهدمة تبعث على الخزى الشديد. كانت الأحداث أكثر فى الغالب من أن تكون عديمة الأهمية على الإطلاق، وحينما تكون الجائزة النقدية على الطاولة، يقبضها "كارنى"، ويدس بها فى جيبه، يعطى "جودى" دولاراً واحداً مهترئاً. وفى الربيع الحار للسنة التالية، سجل لمسابقة فى "نيو أورليانز".

ومن بين الملاكمين، كان "جودى" الملاكم الوحيد الأبيض، وكان المشاهدون يضمون عدداً كبيراً من السود أكبر مما قد رآه أبداً فى مباراة من المباريات، فتيان ارتقوا مقاعد الملعب المكشوفة، فتيات يملن برءوسهن ويأتين بتعبيرات ساخرة وصاخبة. لم يستطع أن يهز شكوكه حول مقاتلة هؤلاء الرجال الذين يكافحون أيضاً للارتقاء والتقدم، ولكن مثل هذا الصبى الذى يطيع أوامر جده، كان عاقد العزم على النصر. تسلق الحلبة بدون أن يستعرض أى شىء. لف كتفيه قليلاً، وبدا تحت الأضواء أنه خامل فاقد

الاهتمام. ودق الجرس. مباراته الأولى لم تستمر أكثر من دقيقة.

وفى اليوم الثانى، نزل ضد "جيروم نايت"، رجل رشيق، أخذ يتأرجح على الأحبال ويرقص حولها، ويلاكم الهواء، ثم شرع فى لكمات هادئة طويلة، متقاطعة وخطافية، تزداد حدتها كلما قفز من جانب إلى آخر. ووقفت البنات الجميلات وهتفن، "جيروم"، "بيبى" أسقطه أرضاً! لتريه!.

كان الهواء من خلال الأبواب عاصفاً طوال بعد الظهر، عاصفة تهب عبر الخليج الرطب. وعندما أظلمت السماء، تساقطت قطرات المطر الأولى على السطح المعدنى، ومع صوت البلل مثل أيادٍ تصفق، بدأ الانهمار السريع للمطر. ودوى صوت الرعد، اللكمات المسددة إلى الأرض تتوقف عندما يتحرك "جيروم"، ويدور حوله. واحتفظ "جودى" برأسه مائلة يتلقى الضربات بخفة. وكان مندهشاً لأن يرى مثل هذا التعبير فى وجه الرجل. وحينما كان "جودى" يلتحم به، يثبت "جيروم" قدميه ويحرك رأسه كما لو كان يتعامل مع طفل. كان يتمايل وهو يوجه المزيد من اللكمات. وحينئذ بدأ "جودى" يشن هجوماً خاطفاً بلا هوادة بصورة بديهية. وومض البرق فى كل باب حينما أتى "جودى" و"جيروم" معاً فى نهاية الجولة الثانية ملتحمين عن قرب، وضربا الجبهتين. وساد التذمر، وطلب الحكم التوقف. وانطفأت الأنوار العلوية، وسالت الدماء على وجه "جودى"، أطلق خطافية

حملت ثقل جسده بالكامل. وفى الغرفة المعتمة ارتفع قوس فضى من العرق من وجه "جيروم". كان الصمت هائلاً. وحينما أعلن الحكم الضربة القاضية كان صوته خافتاً مجهداً فى العتمة.

وفيما بعد، كان "كارنى" هادئاً. لم ينظر إلى عينى "جودى". وأُضيئت القناديل ومصابيح الغاز على الرفوف وعلى حواف الغرف المغلقة. وتراقصت الظلال على الجدران وعند نهاية الممرات. واعترف "كارنى" باهتمامه بآخر الأسبوع القادم. كان هناك جرح عميق فى جبهة "جودى" طويل ومهترئ مثل فتحة البنطلون.

قال "كارنى"، أنت سوف تضطر إلى أن تخرج. عليك الاحتفاظ بهدوئك لهذه المباراة.

وفتح "جودى" شفتيه المتقرحتين وأغلقهما. نظر إلى "كارنى".

قال "كارنى" بمرارة، إنه يحدث.

إن المدرب الذى لقى ملاكمه الهزيمة، جاء ليلقى نظرة. كان رجلاً قصيراً يعرق بغزارة، يمسح فقط جبهته حتى يبدو كأن الدموع تجمدت على وجنتيه.

قال، هذا قطع خفيف. أنا سأقول لك ماذا. سوف استدعى شخصاً ما من أجلك. إنها قد تساعد فتاك.

وأومأ "كارنى" وشكره. وأخبرهما الرجل أن ينتظرا.

ربما كانت لحظة. ولكن لا تغفل عن استشارة طبيب. فهذا يُعقد الأمور. جعل هذا "جودى" يتعجب، فالطبيب عند استدعائه قد أعطاه كمادة وثلج لكن تركه مع "جيروم".

تنهد "كارنى" وقال، حزين على الفتى.

ربما بعد ساعة، استيقظ "جودى" من النعاس عندما انزلق من الحزمة الباردة. واستلقى "كارنى" نائماً فى مقعده، ذقنه على ياقته، الآن استيقظ ودمدم، إلى الجحيم معها يا فتى. بصق فى زجاجة "الكوكا"، ونهض واقفاً حينما تردد صدى طرقات حادة لحذاء نسائى على أرضية المدخل الخراسانى. أتت من ظلمة متقطعة كبيرة وقاتمة. كان أنفها مثل منقار الـ"شيروكى". كانت تأكل "السجق"، وفى منتصف الطريق إلى الحجرة، بدا أنها ترى "جودى" فى الحال. ألقت بباقى "السجق" فى القمامة.

قالت، أظن أننى أتيت من أجلك. وتفحصت بنظرها من رجل إلى آخر. ذكرت "جودى" بعماته اللواتى كن يدرن البيت على الرغم من أنها كانت أصغر. كانت شفتاها مكتنزتين، وشاحبتين أكثر من بشرتها، ومنفصلتين عن خشونتها، ومستديرتين غير مصبوغتين، ارتدت بنطلوناً فضفاضاً له ثنية سفلى من الأمام وخيط من الخرز. نظرتها جادة، تشبه فى الوقت نفسه نظرة الفتيات "الخنافس" اللواتى يظهرن فى كل مكان.

وضغط "كارنى" فكيه يمضغ مجدداً ويراقب وهى تزيل كمادة "جودى". وعلى الرغم من أن "كارنى" كان أحياناً يقول آراءه بشأن من يقوم بماذا، من هم الخدم، الرؤساء، الاهتمام الأدنى ـ السود، الإيطاليون، اليهود ـ إلا أن عنصريته كانت تتسم بالاحترام بسبب نصف قرن من الملاكمة. فلم يكن "جودى" مندهشاً من أنه سوف يثق بها.

سألت، متى سوف يحتاج أن يقاتل ثانية؟

قال "كارنى" آخر الأسبوع القادم. فماذا تخططين أنت لفعله على أية حال؟

الكمادة. تكلمت بحيادية كما لو كانت تتحدث عن الجرح. أظن أننى أستطيع أن أجعله جاهزاً فى هذا التوقيت فى الغالب.

كم تأخذين؟

الناس تدفع ما تستطيع دفعه.

وهو كذلك، اللعنة، عليك فقط أن تبذلى أقصى ما فى وسعك.

كان اسمها "لويز"، وقد عالجت جرح "جودى" فى هذا الأسبوع. كانت تحمل حقيبة وزجاجات من الزيوت فى كيس منسوج مثل سلة. وعلى الرغم من أن يديها كانتا كبيرتين كيدى رجل، إلا أنها كانت بارعة. تحضر الضمادات النظيفة المجهزة من الكتان الأبيض ثلاث مرات فى اليوم. وتدلك أطراف جرحه، وفى كل

لمسة كأنها تقشر بشرة من الجرب، اللحم المنتهك يواصل الإحساس عبر فكه، وخلف رقبته. وجرت دماء قليلة شاحبة إلى ما بعد ركن عينه. كان صامتاً، ينصت إلى صوت تنفسها. تكلمت فقط لتمنعه من القيام بأى نشاط آخر غير المشى.

ولليالٍ، كان يتقلب فى أرق. يشاهد برامج التلفزيون حتى تنتهى بقضبان من الأسود والأبيض بظلال مختلفة، ثم تصدر صفيراً حاداً. وفى أحيان، كانت أضواء السيارة تومض من خلال الشارع. ويتذكر جدته التى كانت تعمل فى الحقول، ثم ترتدى مريلة الكنيسة، ويداها الكبيرتان الخرقاوان على ثنيات مريلتها. ومجرد أن كانت "لويز" تنشر المرهم، يمسك بمعصم يدها الخالية. وتقوست فتحتا أنفها بقوة. تراجعت للخلف، فتركها تنسحب. وتأكد من أنها كانت أصغر مما ظن.

وقبل أيام قليلة من ملاكمته التالية، سألها عن شىء ما ليساعده على النوم. كانت المرة الأولى التى يتحدث فيها.

قالت بلهجة غريبة، هل تتكلم الفرنسية؟ كانت تنظر إليه.

نعم. وتحدث بتردد، ليس متأكداً كيف سيبدو صوته الآن بالفرنسية. لم يكن يتحدثها كثيراً لكى يبدأ بها. من كندا، سمع نفسه يدمدم، لم يكن متأكداً أين كانت تلك.

قالت، الكثير من الناس يتحدثون الفرنسية هنا. فى صوتها أمل كما لو كانت تريد أن تغنى. ليتك لم تكن تعيش هنا، هل تدرى؟

قال، يا ليته لم يكن هنا، أوه... جورجيا.

هذا يحزنك أيها الجورجى. أنت لا تتكلم كثيراً... كما أتخيل.

وبينما كانت تُعِد له الشاى، قالت أشياءً قليلة عن اللغات التى تعلمتها من والديها. ومؤخراً، سريعاً بعد أن انصرفت كان ينساق أسفل الظلال والأشكال المسحوبة المدببة الغامضة، مثل الكاتدرائيات والأشجار. وعند نقطة ما كان فى مطبخ طفولته، على الرغم من أن الضوء من خلال النوافذ كان هو الضوء نفسه الذى يغمر المشهد الخارجى فيما وراء أبواب الشاحنة حينما قفز، حينما عبر لأول مرة الجنوب مع "إيزامارى". كانت هناك لمحة من جلستها على حافة الفراش، وهى تُجمِع معه رسما كرتونياً على ركبتيها من مجلة مصقولة الأوراق لتشكل كلمة لم يهتم أو لم يكن قادراً على قراءتها. ومرة أخرة يأتى المساء. حلم عظامها والحقل الذى فقدها فيه. كلب ينبش فى الأعشاب. كان يجرى. الرجال فى السترات الزرقاء، رفعوا المشاعل خلال الظلام ليجدوه.

وحينما عاد إلى الحلبة فى نهاية الأسبوع، كان جرحه عبارة عن خط رفيع محبب. جال ببصره فى الجمع ورأى "لويز". كان ينبغى عليه أن يقاتل على

الأقل مرتين أكثر ليكسب المباراة. وعلى الرغم من تحذير "كارنى" له من التراخى وقلقه على سجله الخالى من الهزيمة، إلا أن "جودى" احتفظ بهدوئه. واقترح "كارنى" ألا يلعب هذه المباراة، إلا أن "جودى" رفض. ضرب القفازين. كان لخصمه ذراعان طويلان، شاب ضخم بالنسبة لعمره. وراقب "جودى" الضربات الخطافية الملتفة ليحمى جرحه. لقد لاعب الرجل الشاب حول الحلبة، يلكمه وينسحب، حتى عاجله بالضربة القاضية فى الثانية.

قال "كارنى"، عليك اللعنة. إنها ملاكمة يا فتى. ليس قتالاً. هذه ملاكمة.

كان سعيداً لأنه استطاع أن ينزع واقى الأسنان ويلقى به، حتى يستطيع أن يتكلم. نظر "جودى" حوله. ظهرت "لويز" فيما بعد. عالجت جرحه مرة ثانية، بدون أن تبدى تعبيراً. إنها لم تكن شقراء أو جميلة، لكنه أراد أن يؤثر فى مشاعرها. فأغلق عينيه.

سألت، هل أنت بخير؟

قال، نعم، نعم.

وفى اليوم التالى كسب المباراة على الرغم من أن جرحه قد نزف، وجاءت من بين المشاهدين لتعالجه. كانوا فى غرفة خلع الملابس، وكارنى فى مقابلة مع الرعاة. استخدمت كمادات ذات رائحة نفاذة أصابته بالدوار والغثيان.

بدا أنها تبتسم. وحينما انتهت، أصبح وجهها غير معبر مرة أخرى. قالت، إذاً هذا حال العائد الجورجى. كانت قزحية عينيها باللون البرتقالى. ووصل من حيث كان يجلس وأخذ يدها. وحدق كل منهما فى الآخر. وتركها تذهب، ومضت.

وحينما عاد "كارنى"، أراد أن يدفع لها. وهو لم يكن لديه حتى رقم تليفونها.

قال، عليها اللعنة. ما معنى هؤلاء الناس، يريدون فقط المساعدة؟ وتنهد وجلس وتحدث عن مهنة "جودى". ومع نهاية السنة، قال، يمكنك أن تقاتل "على". توقف وبدا أنه يفكر. آه، هذه المرأة سوف تعود فيما بعد.

ووصلت إلى الفندق الصغير بعد منتصف الليل بنشاط. عربية فورد كبيرة، الأضواء الساطعة تضىء غير منتظمة من بين ثنايا الستائر. نهض "جودى" من الفراش.

سألت، هل أستطيع الدخول؟ كان شعرها ملفوفاً على شكل كعكة تنبثق منها تجعدات قليلة. واقتربت بجبهتها على مستوى ذقنه. لم يكن يعرف شيئاً عن النساء. فهو لم يتوقف عن العمل أو القتال فى الشعائر المعتادة لفترة الصبا. رفعت ذقنها ووضعت شفتيها على شفتيه. كانت تلك المرأة الهائلة التى ينبغى أن يتردد معها. مع عينيها تنظر إلى وجهه، قبلته. وتراجعت للخلف تراقبه، شغوفة، مثل فتاة مرة

أخرى. وبدأت بعد ذلك تفك أزرار قميصها. وجعلها ثديها المتدلى تبدو هشة. ورقدت على الفراش المبعثر، كفاها إلى أعلى، وكتفاها إلى الخلف. وانسحق الفراش مثل علبة البيرة حينما ضمها. ووصلت إلى أعلى لتمسك بوجهه الكبير الحزين.

وشعر "جودى" بالراحة فى أن يعود إلى بيته فى "جورجيا". لا شىء تم الاتفاق بشأنه بينه وبين "لويز". فقد كان هناك شىء ما مقلق فى السكون الذى أحس به معها. لقد شعر بأنه لم يكن من المفترض أن يرغب فيها أو فى هذا العالم، هذه الأحياء المتهدمة، على الرغم من أنه كان هناك ما يكفى من الشمس المشرقة.

وعند العودة إلى البيت، أخبره "كارنى"، أنه حان الوقت أن يعمل جدياً فى دائرة الاحتراف، ووافق "جودى". لقد رأى فى الملاكمة وسيلته الوحيدة لإكمال هذه الرحلة التى لم يرغب أبداً فى أن يبدأ فيها. لكن قبل أن يشفى جرحه، عرض عليه ناد جديد خارج نيو أورليانز رعايته ومرتب كامل. فى البداية لم يكن "كارنى" مهتماً، ولكن حينما اشتم رائحة النقود، وسمع عن نصيبه الوفير، قال، إلى الجحيم، ثم باع كل شىء، المنزل والمعدات. وتوجه هو و"جودى" إلى الجنوب، وارتديا حلل الضيوف.

كان مالك النادى وعقله المدبر هو "بيل واتسون"، رجل الأعمال الذى كان يهوى كتابة المقالات الرياضية

لجريدة محافظة محدودة الانتشار، وحديثاً فقط اقتحم مجال التدريب - على أمل، كما كان يحب أن يقول، إنقاذ الملاكمة الأمريكية. كان يحشد المراكز المرموقة من الرجال المحترمين الذين حاربوا من أجل المدارس الكبيرة، لكنه شعر بالحاجة إلى شخص ما حسى، ومقاتل شرس، ووجه جديد، وليس فقط لأن "جودى" مؤثر بسجله الخالى من الهزيمة، ولكن ببساطة شديدة، كما قال "واتسون"، لأنه أبيض. لم يشك "واتسون" فى الماضى الكاثوليكى أو الاسم المزيف. أخبره "كارنى" أن الشرخ فى سقف حلق "جودى" حينما يتكلم، ليس إلا تفسيراً أفضل لهذه اللهجة الفظة.

أخبرهما "واتسون" أن الخطة هى اجتذاب المثقفين إلى الرياضة. نبنى جمنازيوم مجهز بأحدث المعدات التكنولوجية، ونستقطب ونصنع أسماء، وسوف يكون لدينا أناس محترمون يشاركون بأنفسهم. هذا وإلا فإننا سوف نفقد التقاليد. وسوف يسود الزنوج ورعاع الإيطاليين.

وأنصت "جودى" إلى الرجل القصير المكتنز ذى الشارب الكثيف الذى كان يتوقف غالباً ليعدل بذلته. وبعد أن شرح فلسفته، أخذهما "واتسون" فى جولة فى مجموعة المبانى والمستودعات مع العديد من الحلبات، وأكوام من الأوزان المعالجة بالكروم، وأكياس تدريب الملاكمة الزرقاء اللامعة، والمقاعد الخشبية، وأجهزة الروافع.

أخبرهما، نحن لدينا هنا المواد الأساسية اللازمة لبناء كل عضلة فى جسم الإنسان.

وعلى اتصال بالحائط كانت هناك خوذة مبطنة معقوفة، مزودة بمكابس هيدروليكية.

أخبره "واتسون"، ثبت رأسك فى هذا.

وفعل "جودى".

حركها دائرياً.

وأجهد "جودى" رأسه إلى أحد الجوانب. وأصدرت المكابس صوتاً كالفحيح. وأكد "واتسون" أنها تكسب رقبة قوية. تخيل ما الذى يمكن أن يفعله هذا بك على الحلقة. وأخذ منديلاً من جيبه، ومسح جبهته.

وعند عودتهما لجناحيهما، حذر "كارنى" "جودى"، ابق بعيداً عن هذه الماكينات يا فتى. إنها سوف تبطئ من سرعتك. ابق سريعاً، وقاتل بهدوء. إننى لا أثق فى رجل يرتدى دائماً بذلة. عليه اللعنة، لا يأتى بشىء له معنى.

لكنه اعترف فى النهاية بأن النقود هى النقود، وأن "واتسون" لم يقدم القليل. وهو قد قدر أن "جودى" لديه ما يكفى تقريباً من الأسباب ليوافق بعد بيع المنزل حتى لا يتقاعد فى مكان ما حار وهادئ ويعيش أيامه فى ملل تام.

وبدأ التدريب فى الصباح التالى. وكانت صورة "جودى" على بضعة ملصقات. "أبيض" بخط أسود

كبير أسفل الصورة. وجاء أحد المحررين ليغطى الأحداث. سأل "جودى" ما إذا كان يعتقد أن هذه الحركة يمكن أن تبعده عن عالم الرياضة، وما إذا كانت لديه قضايا شخصية مع الملاكمين السود، وما إذا كان لديه أهداف سياسية بعيدة المدى. وهز "جودى" كتفيه، وهرش فى فروة شعره الملون، وحول رأسه الفظ إلى ناحية، ثم إلى الأخرى، وفى النهاية أجاب، لا أعرف.

أخبره "واتسون" فيما بعد، عمل جميل يا فتى. الصمت هو دائماً أفضل رد، سوف يعرفون.

وفى هذا اليوم، دفع بضعة آباء من المقيمين النقود حتى يتمكن أبناؤهم أن يشاهدوا ويتعلموا. ونظر الأولاد ذوو الأجسام النحيلة والشعر الأشقر المقصوص فى رعب، بينما كان "جودى" يتبادل الضربات السريعة مع "ريد بينسون"، رجل ليس فى مثل حجم "بوس" لكنه أشد بنياناً منه، وقد اختار جسده استراتيجية فى التطور تستغنى عن الرقبة والذقن. وفيما بين الجولات، كان "جودى" يتنحنح ويبصق عند الركن. وعندما يرى "واتسون" خيوط المخاط اللامعة تتدلى من حبال الحلبة، يخبره، لا تفعل هذا من فضلك. قال، إن المشروع يهدف إلى تهذيب الملاكمة.

وبعد ساعة جاءت "لويز".

قال "واتسون"، عذراً هل استدعاك أحد؟

رآها "جودى"، وأسقط خصمه التالى، مستثمر طويل نحيف، يضع جوارب على الركبة، قادم من "شريفزبورت"، والذى أوصى طبيبه بمزيد من التمرينات المكسبة للياقة أكثر من التمرينات الروتينية المتعلقة بتقوية البنيان.

واندفع "جودى" متجاوزاً "واتسون" ليقابل "لويز". لقد تكلما كما لو كانا يتحدثان دائماً بشكل عرضى، هو بصوت ناخر مبتور، وهى بجمل مفصلة. بدت أصغر سناً وأكثر تفتحاً. أخبرته أنها قد قرأت عنه فى الصحيفة. سألته إذا كان من الممكن أن تراه ثانية. قال، نعم بالفرنسية قبل أن يفكر فى الأمر. وخططا للمقابلة تلك الليلة. ويبدو أن "كارنى" لم يلحظ، فقط جدد ما يمضغه، وقال "واتسون"، نحن نحاول أن نكون نماذج تُحتذى هنا. صبى مثلك يحتاج إلى أن يُكَوِّن صورة عن ذاته لدى الآخرين. لقد حصلت على مهنة تتقدم صورتها عن صورتك. فالملاكمة لا تدوم إلى الأبد.

وفى هذه الليلة وهو ينتظر "لويز"، حاول "جودى" أن يفهم معنى ذلك، السعادة البسيطة فى وجوده معها، الطريقة التى تنظر بها إليه. لقد بقى صامتاً حينما وصلت. واصطحبته إلى حيث تعيش، منزل صغير شمال المدينة على قطعة أرض تحيطها الأشجار فيما بين المزارع. كانت الغرف نظيفة ومفتوحة، تتدلى الأعشاب الجافة من عوارض السقف، وعلى الأرفف كتب ومزهريات.

قالت بالفرنسية، أشياء أمى. أخبرته أن جدتها "كريولية" من جنوب أمريكا، وأن أباها هو فى الغالب هندى. لقد تعلمت التوليد من أمها وجدتها، وأضافت، والفرنسية.

وتوقفت، فقد كان الصفير المستمر لصراصير المزارع والحشرات الليلية يملأ المكان. أخبرته أن أمها ماتت منذ وقت ليس ببعيد، وهى صغيرة جداً كان عليها أن تتولى القيام بكل هذه الأشياء التى لم تشعر أنها مستعدة للقيام بها. بدأت تقول بالفرنسية وحيدة، لكنها لم تجد الكلمة الإنجليزية المرادفة لها.

وفيما بعد مضيا يمشيان. تحدثت عما علمتها أمها إياه، والأشياء التى أشارت إليها، غير متأكدة بنفسها عما فقدته بالفعل من التقاليد. وتتبع هو و"لويز" صوارى الغابات والأشجار القديمة حول المنزل المتهدم، الشجر الهائل للجوز والسنديان. وخرجا من الممر إلى خطوط القوى الكهربائية التى تقطع الريف. الكوكبة المضيئة الساطعة التى استطاعا أن يريا أسلاكها عالية فوق رأسيهما. كانت خيوط شبكة الكهرباء مثل تلك التى كانت فى الحقول فوق منزل طفولته. ولمست رسغه المفتول. كانا يعتصران بعضهما البعض على الأرض. وتحول كفاها إلى أعلى ناحية ضوء النجوم. وغرس أصابعه خلال العشب والجذور، يقذف بكتل الطين مثل سنابك حصان جامح.

ومؤخراً، سألته عن حياته. وثدياها يضغطان برفق على صدره، ويدها على بطنها. وأغمضت

عينيها وهى تنصت. كانت أول من يحكى له عن "إيزامارى"، وعن موتها، والرحلة إلى الجنوب، وعدم تذكره لما حدث لها، وعن تجواله، وحتى عن أحلامه بعظامها. ورقد يتذكر مشاعر الفراغ حينما قرر أن يترك هذا الخليج الواسع ليلاً إلى الجبال والحقول والرياح، ويقف فى البرد القارس. ماذا حدث لهذا العالم وما الذى ينبغى أن يكافح من أجله فى هذا العالم الجديد؟ رأى المزارع، الساحل، البحر العاصف. لقد أراد هذا العمل البسيط. لقد أراد "إيزامارى" حينما كانا طفلين، ليحملها عبر الطريق، ويشعر بنفسه مخلوقاً من أجلها. كان رعبه شيئاً لم يعرفه فى الحلبة. وفجأة، لم يقدر على مغالبة الرعب، قفز وأخذ يركض. اندفع عبر زقاق بين الحقول يغطيه التراب، وقفز فوق السياج إلى فناء أحد المزارعين. وخلف السقيفة، حافى القدمين وعارياً انتزع فأساً يقلب بها كومة من الحطب. كانت المزرعة تلمع باللون الفضى للقمر الذى سكنت ظلاله تحت الأشجار. وطنت الدماء فى أذنيه. لم يرغب فى أن يتوقف الآن أو يفكر. أخذ يُقطِع حتى أطلق العرق الحرارة من جسده، حتى نبح أحد الكلاب وأُضيئت أنوار المنزل، وحينئذ جرى بعيداً.

وفى الشهور التالية، تآمر "كارنى" و"واتسون" ليزحما جدول المباريات. واعترف "كارنى" بأنها كثيرة جداً، لكنه قال، إنها ستزيد من صلابة "جودى"، بغض النظر عن النقود التى ستأتى بها. وبالنسبة لـ"جودى"،

بدا الأمر كما لو إنه يقاتل كل أمريكى تجاوز وزنه المائة وخمسة وسبعين القليل منهم كانت له بطن منتفخة. أحدهم كانت تغطى بطنه آثار حروق وله عين واحدة، وآخر خرج حديثاً من السجن، على ظهره وشم لأكثر النساء عرياً ودعارة رآها "جودى". وانهزموا كلهم سريعاً، على الرغم من أن بعض مديرى العرض عرضوا رشوة على "كارنى" ليجعل "جودى" يطيل الملاكمة ثم ينهيها بقسوة.

وعلى الرغم من مباريات القط والفأر، إلا أن "جودى" كان مرتاحاً. فهو قد احتاج لوقت. كان يرى "لويز" فيما بين المباريات. حينما زارها، كانت تنتظر بملابس مبهجة، الطعام على المائدة، الأرز، والبامية المطبوخة، وقرون البامية المقلية، وطاجن الجمبرى ذو الرائحة الشهية. أكلا لمدة أربع ساعات. وأدارت بعض الموسيقى الصاخبة، وفيما بعد استرخيا على الفراش الوثير. لقد أحب الألفة، العلامات النحاسية الممتدة على فخذيها، وآثار ندوب على ذراعها نجمت عن سقوطها على زجاج مكسور حينما كانت فتاة صغيرة. أحياناً كانت تجعله يتحدث، ويشعر بكلماته القليلة واضحة كأنها كلمات واعظ الكنيسة المجاورة له. لكن فى الحافلات المتجهة إلى فيجاس، رينو، نيويورك، كان يكافح ضدها من داخله. وقبل كل قتال، كان يبدأ من عند النساء الجميلات من بين المشاهدين، على الرغم من أنه حينما يذهب إلى الجمهور، فإن كل شخص ينسحب، وقد يغير حتى ملامح وجهه تعبيراً

عن الاستياء. وفيما بعد فى الغرفة المغلقة، واجه المرآه.. لم تكن ملامحه المحطمة تحمل شيئاً من "إيزاماري"، أو حتى "هيرفى هيرفى"، واعتبر بصورة مكثفة أن قبحه لابد وأن مصدره الأم أو الأب. إن غضبه وإحباطه ما كانا لينصرفا. وأخذت الأنابيب تأن فى الجدران، وتأكد من أنه كان يمسك البالوعة، يجذبها من المثبتات الأسمنتية، يحاول، لكن تبدو كأنها تتشبث به فى المكان.

فى هذه الشهور، حينما عاد إلى نادى "واتسون" المضحك، اعترف بتردد برغبته فى أن يرى "لويز". وعلى الرغم من أن "كارنى" كان يحتفظ بنقود الملاكمة، إلا أنه اشترى لـ"جودى" واقى الضربات الجانبية من المزاد، وخصص بضعة دولارات لدروس تعليم القيادة. واستخدم "جودى" السيارة فقط من أجل أن يذهب إلى بيت "لويز" ويرجع منه، وهو محشور أمام عجلة القيادة. وتحدث مع أهلها، عن الرحلات التى قاموا بها باختيارهم أو ضده، عن الأمور الغامضة التى تجاهلها الكثيرون جداً والتى حكمتهم. ولكن، فى إحدى الأمسيات بعد العودة من الرحلة المطولة إلى نيويورك، رأى "جودى" أن بطنها، كما لو كانت فى يوم واحد، قد كَبُرت واستدارت. وتعجب كيف لم يلحظ ذلك. وبعد أن مارس الجنس، مشى مرة أخرى إلى الخارج على الطريق. لقد عرف الطريقة التى تفتح بها وتلمس. هى قالت إنها تعلمت من أمها أن تخفف عن الموتى، كما لو كانوا أطفالاً،

بمجرد أن تضم وتلمس. قالت إن الموتى يشتاقون إلى أمهاتهم، وهذا ما أخافه، وجعله يتساءل كيف يمكن أن يشتاق إلى شخص ما لم يعرفه أبداً. ما الذى حدث لكل هؤلاء الذين تركوا القرية ـ العمات، الأعمام، أمه، حتى أبيه؟ حينما كان صبياً تحدث الرجال عن المدن فى الدول، حيث يتكلم كل فرد الفرنسية، حيث كان الوعاظ ورجال الأعمال يعيشون، كما كان يحدث فى "كويبك"، فقط فى غنى أفضل. بدا أنه قد تتبع خطواتهم، لكنه لم يعثر على شىء. فكر فى القرية، كاتدرائية سان لورانس. العالم الذى توقف عن الوجود، على الرغم من أنه فى الأوقات التى يتذكره فيها بكل وضوح، كان هذا العالم بدونه، لقد بدا أنه هو الشخص الذى تلاشى.

وفى الظلام الرطب، تابع ببطء على طول الطريق. إن الفصول هنا قد أربكته. كانت نوعاً من السحر الآخر، الشتاءات الدافئة، والصيفيات الحارة القبيحة. لم يعد يعرف كم يبلغ هو من العمر.

لويزيانا ـ نيوجيرسي ـ فيرجينيا
١٩٦٨ ـ ١٩٧٠

أخبره "كارنى" فى اليوم التالى أنه يشبه "على" للوهلة الأولى خارج الصورة ـ وهو مازال يتجرد من ذلك الحزام اللعين ليتهرب من جر الأثقال. ولكن إذا أبليت بلاء حسناً فى مبارياتك القادمة، نستطيع أن نخاطر ونضعك مع "جو فريزر". وبعد ذلك هو التاريخ يا بنى.

ولم يسمع "جودى". إنه يلاكم ولكنه لا يتابع الملاكمة. قال "كارنى"، ربما كانت هى النقود التى يحتاجها من أجل التقاعد. لقد أصبح نحيفاً فى الشهور الماضية، وبرزت عظام وجهه، وأصفرت عيناه. لكن "جودى" لم يكن يفكر إلا فى بطن "لويز"، والخط الممتد أسفله مثل الخط الذى يشق ثمرة الخوخ. ذهبت الفتاة. كانت ذكية وقوية وخارج قدرته على الفهم.

فى إحدى الأمسيات، مشيا على الممر المعتاد فيما بين القنوات الناشئة والحقول وأشجار الجوز

القليلة المتناثرة على الطريق، والقواقع نتاج السنين السابقة فى وسط الحصى.

قالت، أنا أعرف أنك لست سعيداً يا "جودى". أشعر بهذا. أنت لا تتحدث، وأنا لا أتوقع منك أن تتكلم، لكن... أنا أحاول فقط أن أفهم هذا. هل لأننى حامل؟ أم إنه أنا؟

ولاحظ حذاءه وهو يجر قدميه فى التراب.

قالت، لا أعرف... مجرد وحدة... كنت أظن أننى أعرف.

ووصلوا إلى إحدى المزارع حيث اعتادا أن يمشيا. وتجاوزا المثلث المزروع أمام المنزل بمسافة. والتمعت سماء الليل على صفحة بركة لسقى الخيول. وبالقرب من الحظيرة شم رائحة الخيول والبرسيم الطازج.

وتوقفت. قالت، أحب مبنى الحظيرة. الغرف العلوية. تمنيت أن تكون لدىَّ واحدة حينما كنت صغيرة.

وكانت أبواب الحظيرة مفتوحة. وصهل أحد الخيول، ومشى بتثاقل إلى مكان ما بالداخل.

سألته وهى تنظر إليه، هل تريد أن تصعد؟ والتمعت عيناها. وندم على أنه قابلها فى يوم من الأيام.

أنت كبيرة جداً.

قالت له، لا، اعتادت النساء أن يحملن كثيراً. وبالداخل تماماً، وجدت السلم. اختبرت الدرجات، ثم

بدأت فى التسلق. حملق فى فخذيها، ثم تبعها. كان القبو نصف ممتلئ، بالات مكومة على السقف. وألقت بنفسها فوق إحداها، وجلس هو على التى تليها. إذا لم يكن قد غادر "كويبك" على الإطلاق، لكان الآن مزارعاً أو صياداً. حاول أن يفكر فيمن يكونه. ملاكم. إن عضلات كتفيه متكورة.

قالت، من الطبيعى إن تكون خائفاً. لقد أخبرتنى جدتى ذات مرة أن قبول الحب أو الولادة يشبه القبول بأنك ذاهب لتموت.

ومع صفير صراصير الليل، جاء صوت شىء ما من بين العوارض الخشبية، تبعه صوت طائر يغرد فيما يشبه نغمة الفلوت. وحينما تكلمت مالت عن قرب. شمت رائحة الحشائش المقصوصة والتربة النقية فى جذور الأعشاب المنزوعة. وشعر وهو ينصت كما لو إنه يغادر الوطن يدفع نفسه تجاه حلم بضوء الشمس الذى يأتى فقط فى ومضات، وعند معرفته بالفعل بأن من أحبه مات. تحرك فى الهواء شكل شاحب، واستغرق الأمر منه ثانية واحدة ليتأكد. لقد كانت بومة تحوم لتنقض، وتقبض بين جناحيها المفرودين على المحيط الكلى لضوء القمر. نادت "لويز" على اسمه بحدة. ضرب بقوة، وبدا أن الطائر ويده متصلان تماماً، وضرب مرة أخرى، وسقط الطائر برفق على القش.

نادت، "جودى"، وأخذت يده. كانت الدماء تلتمع داكنة بين أصابعها حيث لمسته.

وحينما عاد إلى النادى، ورأى "كارنى" اليد المتورمة، واللحم الممزق لراحة اليد والعضلات المحفورة، حملق وحسب.

قال، حسناً. أعتقد أننى كنت قريباً جداً من التقاعد. وذهبا إلى الطبيب فى هذه المرة. وبعد الغرز والحقن، أعطته "لويز" علاجها. وقام "كارنى" بإلغاء عدد قليل من المباريات. وكان "واتسون" قلقاً، وجهه أحمر، وشعر فوديه مبتلاً. لم يكن النادى يسير على خطة محددة. واعتقد البعض أنه لم تتوافر له المنافسة الكافية، ولم يعد الآخرون متأثرين بوحشية البيض أكثر من السود.

وفى الليلة التالية، مات "كارنى" فى فراشه. قال الطبيب، ربما قلبه. قد تكون جلطة. لا يوجد سبب يدعو للتشريح. شعر "جودى" بخسارة فادحة. لم يستوعب فقدان "كارنى"، الثابت الوحيد فى حياته فى السنوات السبع الأخيرة. لقد بدا "كارنى" فقط هو القادر على أن يفهمه. إنه لم يوجه له الأسئلة، إلا أنه اختار عمر "جودى" واسمه، وأن أياً منهما لم يكن له اعتبار. وشعر "جودى" باليأس وشبه الجنون. فقد اعتاد "كارنى" أيضاً على ما هو غير مُتَوَّقع. فقد أخبره ذات مرة أن الملاكمة هى عالم ما لا يمكن أن تراه. اليوم تكون هنا، غداً تذهب، وأحياناً الأشياء الجيدة أيضاً. ليس بمقدورك أن تحول دون وقوع أى شىء. فكل شىء كان مزروعاً فيك منذ البداية.

لكن "جودى" لم يقاتل قط من أجل نفسه، فيما عدا ربما فى هذا اليوم العاصف حينما قابل "بوس" عند منشر الملابس. لقد قاتل من أجل جدته أو "إيزامارى" أو "كارنى"، والآن هو أراد أن يفهم ماذا سيكون مبرره. أغمض عينيه، وحاول أن يسكن الألم فى يده، لكنه استطاع فقط أن يستوعب الفقد، وأنه أراد أن يملأ المساحات الشاغرة. فكل هؤلاء الذين أحبهم كانوا هناك منذ البداية ثم ذهبوا. لم ير اختياراً آخر إلا أن يقاتل ويقاتل، ليجد لنفسه مكاناً ما، حيث إنه من المفترض أن تكون الأشياء أفضل من ذى قبل.

وبعد ثلاثة أيام فى النادى، رد على التليفون. طلب منه رجل يتكلم بلهجة "جيرسى" أن يؤكد له حجزاً. الكلام معك مباشرة يا فتى؟

أخبره "جودى" بالموافقة. وفيما بعد مازال "واتسون" يلح فى طلبه أن يصبح مدير أعماله.

قال، إنهم يدفعون لمباريات "جاردن" هذه، أليس كذلك. ويبدو أن كليهما قد نسى اليد المتورمة، وحقن البنسلين. قالت "لويز" إنها لا تشفى. أخبرته أن هناك روحًا لكل شىء، حتى الجروح والخدوش.

فى الليلة التى أعقبت إصابته، جعلت أحد الأولاد من الجيران يتسلق إلى العوارض الخشبية لسقف الحظيرة، وأحضر أفراخاً حديثة الفقس. كان هناك ثلاثة منهم تحت الغطاء. قامت بإطعامهم. وجلس

"جودى" على الأريكة متظاهراً بالنوم. لقد حاول مرة واحدة أن يمارس الجنس عقب إصابته، وهو الشىء الذى كان يريده فى المساء، لكن يده ارتجفت، فتوقف على الفور.

ولم يتدرب فى هذه الأسابيع السابقة على المباراة.

أخبرته "لويز" أنه لا يستطيع أن يلاكم على الأقل لمدة شهرين أو ثلاثة. فنظر على قزحيتى عينيها الغزلانيتين، وإلى شفتيها. اسمع يا "جودى" لا تكن مجنوناً. سوف تدمر يدك.

تأمل قبضته القوية المفتولة. لم يستطع أن يفهم كيف أمكن لأى شىء أن ينقطع فيها. وتعمد ألا يجيبها. وأمضى أياماً بدون أن يتكلم.

أخبرته، كنت وحيدة. لم أستطع أن أسمح للفتاة بداخلى أن تنمو، وأنت كنت مجروحاً ووحيداً. ولم أهتم بكونك أبيض.

وانتظرت لترى إذا ما كان سيجيب. وحينما لم يفعل، وضعت يده فى إناء السائل المطهر، ونهضت لتذهب.

قالت، لدى آخرون فى حياتى.

هو لم يلحظ أى أحد على الإطلاق، لكن الآن لأن حوله الكثيرين، واقترب موعد ولادة الطفل، فإن الآخرين أصبحوا واضحين، شابات سوداوات، رجال نحفاء يمرون دون أن ينظروا، كما لو كانوا مثله، لا يستطيعون أن يفهموا لماذا كان هو هناك.

وفى يوم الخميس هذا، وهم فى طريقهم إلى المطار مع "واتسون"، حدق "جودى" فى الأقسام الجانبية بالقرب من المدينة. كانت هناك بضع سحب مثل حبات الفراولة فى السماء داكنة الزرقة، على الطرق الأسفلتية فتاة تلوح فى ضوء الشمس إلى شخص ما لا يراه.

وفى نيويورك لاكم إيطالياً. هاجمه الرجل برعونة، وكانت له قدمان لزجتان. ولم يستخدم "جودى" يده اليمنى. فضربات قلبه وحدها جعلتها تؤلمه. كان يراوغ ويلدغ. وقال المعلقون، صحيح أن "جودى" يملك يساراً قوية، لكن هل أعتقد أنه يستطيع أن يجفف خصمه بيد واحدة؟ قالوا إنه بدا كرجل يمارس الملاكمة فى الجمنازيوم. لقد أطلق الإيطالى بضع ضربات ضعيفة، لكن "جودى" تلقاها ببساطة. فلم يحدث أبداً أن ضربه أحد ضربة قاضية، أو ضربة أثرت فيه بشكل حقيقى. وعند احتساب النقاط، كان عدد اللكمات التى أوقعها "جودى" أكثر بكثير. لقد كان الإيطالى فى حالة مؤلمة، ووافق القضاة على أن "جودى" كان هو الأقوى. وزعم الكتاب الرياضيون بأن هذا الإصرار على اليسار كان نوعاً من الاستخفاف الذى لا يمكن الموافقة عليه.

وخلال المباراة تمزقت أربطة "جودى". كان مريضاً عندما عاد إلى غرفة خلع الملابس. فالجراح التى لم تكن قد شفيت قد فُتحت. أراد أن يستريح. كان "كارنى" على حق فى أن يموت.

"جودى" أخبر "واتسون" أن عليه أن يتمهل فى النقود، ربما سوف ينتظر سنة. وتصبب عرق "واتسون"، حاول أن يجعله ينظر فى إمكانات الملاكمة باليد اليسرى. ولم يسمع "جودى" منفصلاً مع الألم. وفى اليوم التالى حينما عاد إلى النادى، كانت هناك على الأبواب سلسلة من القيود والإشعارات من البنك. كان هناك إشعار واحد فقط من "واتسون"، بأن النادى متقدم على عصره: الناس غير مستعدين للخطة. هرب "واتسون" بالنقود الخاصة بالملاكمة. فما تركه "كارنى"، بعد أيام قليلة من الجنازة، ظهر ابنه "شامب"، وجه غير معروف لم يسمع به، جاء ومعه شاحنة، وحمل كل شىء تركه. وافق "جودى" على الملاكمة الأخيرة. وفيما بعد، وفى مكتب مسجل العقود، تناثرت العقود على المنضدة، وجاهد "جودى" ليفهم معنى كل هذه الكلمات. وتذكر كتابة "إيزامارى" لاسمه ليقلده، ووقع حيث أخبروه أن يوقع.

كان المنافس هو "ليون براون"، رجل ضخم، لم يُهزم فى مشواره الثابت إلى لقب الوزن الثقيل. كان من المستحيل أن يلاعبه "جودى" بالطريقة التى لعب بها مع الإيطالى. وبعد أن تلقى "جودى" ضربات فى الجولة الأولى، حاول أن يستخدم يمناه، لكنها آلمته أكثر مما آلمت خصمه. وشعر بغرز الجراحة تنفك، وكبر القفاز وصار أكثر ثقلاً. ومع الجولة السادسة، كان الحكم على وشك إنهاء المباراة، فقد تورم وجه "جودى"، وتهتكت شفتاه، وأُغلقت إحدى عينيه، ولم يتلق "ليون" إلا لكمات قليلة غير مؤثرة. وكان كتف

"جودى" الأيمن منهكاً، فلم يحتمل ثقل وزن القفاز على يده. وفقط حينما وجه "ليون" خمس لكمات عنيفة، ونكس حارسه رأسه لأنه كان متأكداً من أن الملاكمة انتهت، صرعه "جودى". كان القفاز المبلل مثل حجر. ارتطمت رأس "ليون" إلى الخلف. وسالت الدماء على ذراع "جودى"، وتناثرت على المتفرجين الذى قفزوا إلى الحلقة غير متأكدين مما حدث، ومن الذى مات. وفيما بعد انتشرت الشائعة بأن "جودى" ضرب بقوة تكفى لكسر ذراعه، وكسر فك "ليون". وتبنت الصحف هذا. وفى غرفة الملابس، قام الطبيب بتمزيق القفاز، كما لو كان شيئاً ما حياً، كاشفاً عن قبضته الجنينية. وجمع "جودى" نقوده. كانت أكثر من كافية.

وأُعطيت له المسكنات، ولم يأكل لعدة أيام. أخبرته "لويز" أن الطفل كان بنتاً، لكنه لم يذهب ليراها. كان المولود ينمو، تاركاً حملقات الدهشة فى عيون كل من يمر به. سألت، ما الذى تريد أن تفعله الآن؟ الأقراص جعلت معدته تؤلمه. يحترق حلقومه فى كل مرة يتجشأ فيها. قال، النوم ـ مجرد النوم. وغدت تعبيراتها أكثر نعومة. ومن الطريقة التى نظرت بها عليه، بدت قلقة على ما حدث لوجهه.

وبقى فى الفراش، يده مثبتة على عصا فى الجبس. أحياناً، ترقد إلى جواره، على الرغم من أنها سرعان ما تنهض لترضع طفلتها، أو تقوم بواجبات روتينية، أو لتمشى فى ضوء الشمس. لم يقترب هو من مهد الطفلة بخرزاته المتحركة والريش الذى يزينه.

قالت له، اعتدت أن أفكر أنه ينبغى على أن أداوى كل فرد، بدون أن أتحقق ما إذا كان مستيقظاً أو منصتاً. وحينما كبرت، كانت الأحوال سيئة ، لكننا لم نكن فقراء للغاية. كان جدى . أبو أمى . تجرى فى عروقه الكثير من الدماء الفرنسية. أظن أنه اختار جدتى من أجل جمالها . لقد شعرت بالذنب لأننى لم أنشأ مثل الناس الملونين الآخرين...

رقد هناك. وذهبت هى إلى الزريبة وأحضرت مسحة خفيفة من العسل. شعر بشىء غريب، ومضة من الذكرى، هذه الأيام الصيفية تأتى من الحقول إلى الظلال الباردة للمنزل، حتى يستطيع أن يرى "إيزامارى" فى حجرتها تقرأ مقطوعات من الكتاب المقدس. وانتظر "لويز" لتخرج إلى الحديقة. وعلى سرير الطفلة، حاول أن يتحكم فى الارتعاشة فى يده السليمة. وخفض وجهه المتورم. أراد أن يلمس ابنته، أن يقرب وجنته من الطفلة الساكنة النائمة.

وفى هذه الليلة، نهض. ارتدى ملابسه ومضى إلى الخارج. كانت قبضته تؤلمه. لقد أخذ ثلاثة مسكنات. كانت عتمة الصيف خانقة ولا إنسانية. وتساءل لوقت قصير، أين يمكنه أن يذهب، ويكون مجرد رجل آخر. وكان خائفاً حينما فكر فى الطفلة الصغيرة، من أنه ربما يبقى.

كانت الحقول فى الحصاد ولها أريج فواح، وكلما مشى طفت الظلال الشاحبة للأسقف ومنازل المزارعين تحت ضوء القمر عبر الظلام. وفى النهاية

ينحدر الطريق إلى آخر. جرى كلب إلى سياج شبكى، وهو ينبح نباحاً متقطعاً، ثم هرب متوارياً فى الظلال. وأضاء القمر، وانتثرت النجوم على صفحة السماء. ودخل إلى عمق الغابة الكثيفة.

أين سيكون إذا هو استمر؟ هل يعود إلى الذات البرية فى الجبال؟ ومرة أخرى، حاول أن يتذكر ما الذى فهمه أهله حول هذا المكان. وفى طريقه إلى مباريات الملاكمة، رأى عشرات المدن، لكن كل رحلاته تعجل واندفاع وشوارع مزدحمة، ولم تكن هناك طريقة للتوقف.

وفى هذه الليلة المزدهرة، كان هناك صوت محرك. وسطعت أضواء خافتة لسيارة فى الظلام. وقف فى سكون شاعراً برطوبة التفتح وحلاوته، تمتد الظلال على طول الطريق. واقتربت الشاحنة. وجاء صوت من الداخل.

هل تحتاج الوصول إلى مكان؟ صوت ينادى باللكنة الملفوفة لرجل أسود. فتح "جودى" الباب. ولم يضئ نور الكابينة. وصعد إلى الداخل. وتحركت الشاحنة إلى الأمام، وبعد برهة كانت عيناه ثابتتين على اندفاع توهج خافت. كان السائق بديناً، ووجهه صبيانى سمين. الأشياء كلها تقرقع. حتى مقاعد السيارة تصدر صريراً.

سأل الرجل، إلى أين أنت ذاهب فى هذا الوقت المتأخر؟

قال "جودى"، لا أعرف. "موبل". لقد كانت أول مدينة معقولة استطاع أن يحدد اسمها، أحد الأماكن التى لاكم فيها ذات مرة. كانت نقوده وبطاقة تحقيق الشخصية فى صندوق سيارته.

إنها بعيدة عن هنا. "موبل".

وحملق "جودى" إلى الأمام. فكر فى أن يقول شيئاً عن ابنته. وامتدت الأضواء الساطعة أمامهم على الطريق.

هل أنت بخير؟ أرى يدك.

تردد "جودى"، أنا... أنا أعول امرأة سوداء.

وخفض الرجل رأسه. كان كما لو إنه يعمل فى وظيفة لوقت كامل.

واستمر الصمت لمسافة أطول، حتى تحرك شىء ما على جانب الطريق عندما كانت الشاحنة تلف على أحد المنحنيات. واستقرت الأضواء الأمامية لتقع على ظلال مطوية من الأيائل وعين سوداء. وحثه "جودى" على أن يتوقف.

لم يتكلم حينما استدار الرجل بالشاحنة، وانطفأ أحد الأنوار الأمامية، وتوجه الآخر على الممر. ومال إلى أسفل المقعد وأخرج سكيناً. ومشيا إلى الحشائش التى تحد حافة الطريق. كانت أنفاس الظبى تتحشرج فى كمامته.

قال "جودى"، ربما قد صدمهم أحد بشاحنة.

كان أحد الظبيان مبعثراً، واقترب الرجل من الآخر بحرص. كان الرجل ضخماً، لكنه لا يُقارن مع "جودى" . كانت عيناه ذهبيتين تلمعان تحت أضواء السيارة. أخذ الظبى السليم وجذب الرأس إلى الخلف، وقطع رقبة الظبى. وجحظت عيناه. حاول أن ينهض لكنه مات.

أخبر "جودى"، هل تعلم أن هذا دائماً يحدث. كما يقول الكتاب المقدس، يبالغ فى لكنته الآن - مثلما يقول الكتاب المقدس، إنها أرض غنية عامرة بالخير، ترسل لى دائماً طعاماً شهياً. وأنت مع امرأة سوداء. ما الذى تفر منه؟

مهما كان الذى شهدته عينا الظبى، فقد انتهى. وجثم الرجل ورفع ساقاً. وعمل سريعاً، وأخذ ينشر. ثم شمر أكمامه ودس يده. وانتزع ذراعه إلى أعلى بصعوبة. وفصل الأمعاء إلى الخارج. كانت الرائحة مألوفة عند "جودى"، مثل تلك الرائحة التى عرفها للحساء المصنوع فى البيت.

نظف الرجل السكين، ثم وقف وحدد شكل الظبى على العشب. ولمس "جودى" المعدن الدافئ للشاحنة. وفكر فى الاستلقاء على العشب المبلل تحت خطوط الكهرباء، والطريقة التى رقدت بها "لويز" على ظهرها ورفعت فخذيها إلى أعلى، والألم فى معدته حينما يفكر فى أن رجلاً آخر قد يرى جسدها ويقول الكثير جداً.

قال "جودى"، حسناً، ها أنا هنا.

أخبره الرجل، الآن انصت. ألقى على "جودى" نظرة طويلة، ثم أومأ لنفسه، وانحنى ليرفع الظبى. كان يرتدى بنطلوناً عادياً وحذاء بدون كعب. نظر على "جودى" متفحصاً، وانتظر. ووضعا معاً الظبى على ظهر الشاحنة.

وتنحنح ليفتح مخرجاً صوته. أنا متأكد أننى لا أستطيع أن آخذك إلى "موبل". يمكننى أن أوصلك إلى مسافات معينة. وتساقطت حبات العرق على شفته العليا.

أخبره "جودى"، أنا على مايرام. ومشى الرجل فى اتجاه باب الشاحنة. ألقى حجراً، وقال كما لو أنه يغنى، وسوف تصل إلى ما تريده فى "موبل". ونظر على "جودى" قبل أن يركب. وانقطع الضوء الأمامى الوحيد للسيارة مع امتداد الأشجار. لسنوات، سيظل "جودى" يتذكر المشى فى هذه الليلة عائداً لمنزله. لقد فهم أنه مهما كان ما حلم به "هونورى"، فإنه لن يجده هنا. عاد إلى المنزل. صورة فوتوغرافية بالقرب من سرير الطفلة تظهر أم "لويز"، ذقن مرفوعة باعتزاز، أو ممارسة للسكون، ضفيرة على كتفيها مثل حزام للذخيرة. وبسبب التقدم فى العمر، أو لمتطلبات حرفية فى صناعة الصورة، فقد كان خداها يلمعان باللون الأبيض. كانت "لويز" نائمة. وكان حريصاً. ذهب إلى قفص البومة. وفتحه بيده السليمة، وأخذ كل جسم

مرتجف ناعم وسحقه. وأخذ الطفلة من المهد ولفها برفق على قدر استطاعته. لم يفكر فى أنها يمكن أن تبكى، وهى لم تفعل. وارتعشت يداه، ولكن مهما كان، فإن وخزة الألم من الفراغ والفقد قد تلاشت، وكان هو الرجل الدمث الضخم يمسك بها. وذهب إلى سيارته، وأدار المحرك وغادر المكان.

قاد خلال الوقت المتبقى من الليل. وفى اليوم التالى توقف من أجل الحليب وتغذية المولودة الجديدة الهادئة. لم يقدر على أن يتوقف عن النظر إليها. كان عاقد العزم على ألا يخاطر. سوف يفعل لها فى هذه المرة الشيء الصحيح، ويذهب إلى حيث أخبره "هونورى". ومع الصباح عبر خارج "ديلوار" فوق الجسر المنخفض الطويل المتجه إلى "نيوجيرسى". كان الصيف، ولم تكن هناك سحب.

كانت الأيام الأولى صعبة. ومن المكتبة أشترى كل شيء عن الأطفال. ولأنه غير متمرس على الكلمات، فقد بحث فى الصور، ومعظمها لأمهات يرضعن أطفالهن. ولأنه لم يكن يعرف الاسم الذى أطلقته "لويز" على البنت، فقد أسماها "إيزا". اشترى لها خليطاً مغذياً كبديل للبن الأم، وملابس جديدة، وبلوفرات بالقدمين، وملابس صيفية صفراء. واستأجر مربية لتساعده، وأخبرها أن زوجته قد ماتت. وأنهى إقامته فى الفندق حينما وجد منزلاً يستأجره فى "نيوجيرسى" يبعد بضعة شوارع عن أحد الأحياء الراقية. وعلى الرغم من أن غرفه ضيقة، إلا

أن طلاءاته كانت جديدة، وكان بمقدوره أن يحمل "إيزا" ويخرج ليشاهد المنازل الكبيرة بمروجها وأحواض السباحة.

لم يغادره أبداً الشعور بالاندهاش. كان ينقعها ويعرى ذراعه ليضعها فى تجويف مرفق يده اليمنى الذى كان كبيراً بما يكفيها تقريباً بينما يطعمها أو ينظفها مع الأخرى. وغالباً ما كان يعود بتفكيره إلى تلك السنة فى شبابه حينما أتت العمة مع أطفالها لتعيش معهم، والإحساس بالبهجة وتوقع الفرحة. لكن على الرغم من أن "إيزا" ظلت هادئة ترقب بعينين تبرقان أكثر من عينى أمها، إلا أنه ظل هناك بكاء غير مفسر لليالٍ، حينما كان يحملها فى يديه المصابة، ويجلس فى مقعد صغير جداً، لا يعرف متى ينتهى هذا الألم. فقد كانت هناك صرخات غير مفسرة أيضاً حينما يضعها فى الحفاضات، وفجأة تحك وركها فى مسمار التثبيت. وفى أحد الأيام تحقق من أنه لم يكن يعرف يوم ميلادها، ومن ثم التقط تاريخاً يرجع إلى أسابيع قبل أن يأخذها.

وخوفاً من أن يُكتشف، اشترى حذاءً للتسكع وباروكة شعر وسترة رياضية، وكذب على جيرانه فيما يتعلق باسمه. قال، أنا "وليام وايت"، وهم كانوا واعين بغياب زوجته، وبدلوا اسمه إلى "ويلهيلم وايس" أو شىء من هذا القبيل. ودعوه حتى إلى بيتهم. وأمسك "إيزا" ووقف فيما بين جيرانه. كان أحدهم مجرياً، والآخر بولندياً يرتدون جميعاً "الأوفرولات" المتواضعة.

وشرب قليلاً، وحملق فى التليفزيون، وقال، حسنًا، وهو كذلك، ليلة سعيدة. لم يعرف أنه كان من المفترض أن يحضر معه صحناً من الطعام. ولم يدعونه أبداً مرة أخرى.

وعلى الرغم من أنه كان لديه نقود كافية، إلا أنه مع "إيزا" بمفرده حاول أن يفهم ما الذى يمكن أن يملأ السنين. وحينما يمشى إلى الحى الغنى، يرى الرجال يرتدون البذل ويتوجهون إلى محطة القطار فى الصباحات الباردة، أو يعودون للظهور مرة أخرى فى ساحات الدور مع الأبناء وجلود الخنازير. وفكر "جودى" فى الرجل الأسود الذى ركب معه فى لويزيانا، فى هذا الركوب المختصر خلال الغابات المظلمة. لم يكن "جودى" يريد الكثير، فقط أراد أن يحفر طريقاً لحياته.

مر هذا الشتاء مؤلماً بطيئاً. اشترى تليفزيوناً، مقعداً، فراشاً. كانت "إيزا" دائماً بين ذراعيه، نائمة وهو يشاهد حلقة فى المسلسل إثر أخرى، وهو يحاول أن يفك شفرة الكتب فى كيفية تربيتها. التعليمة الوحيدة التى لم يتبعها كانت هى زيارة الطبيب. فالخوف من إمكانية الإمساك به هو الذى تغلب على هذه التوصية. ظهرت "لويز" فى الأحلام. ابتسمت، كما لو كانا دائماً معاً، أو نامت بعمق مع كفيها وقد تحولا، كما لو كانا قد ماتا. وحينما يستيقظ، تبدو منظومة المنازل خلف نافذته المطلة على الخليج مثل حلقة مستديرة لقطار كهربائى للعبة أطفال. وغالباً ما

تختلط كوابيس العظام المفقودة لـ"إيزاماري" مع الكوابيس الأخرى لغضب "لويز"، والرجال بالمعاطف الزرقاء، والأضواء المنسوجة. لابد وأنها تنظر، لابد وأنها تندم على أنها لم تتعلم أكثر من التمريض والتوليد من جدتها. باختصار، هو تعجب على الولادة. فقد كانت "لويز" أكثر من مجرد فتاة، وهو قد قدر حجم معاناتها. وقرر ألا يفكر فيها ثانية، وبالتدريج أصبح هذا الكذب ضد مشاعره حقيقة، ولم يفعل. ولكن فى أوقات، كانت الأعصاب المقطوعة من القتال القديم تؤلم جسده بشدة، وفى نومه المتقطع كان يشعر بأطراف أصابعها على جبهته، تداوى هذا الجرح، وتضمه هناك.

وفى أول يوم دافئ ونهار مضىء فى الربيع، بدأ يمشى. لم تكن تعنيه المسافة أو الاتجاهات، فقط يمشى بتكاسل مع "إيزا" على ذراعيه، وقارورتها فى جيبه، بحيث يستطيع أن يتوقف عند مقعد خشبى فى حديقة عامة، أو على درجات بعض مبانى البلدية ليرضعها. لقد نمت لحيته ولم يكن يقص شعره. وفى الشارع، يتوقف الناس لينظروا عليه. وبعد أن مشى أسبوعاً فى النهار، كان دائماً مندهشاً أن يرى الشمس تسقط بسرعة جداً عبر السماء. وسرعان ما يجلسها على كتفيه، كانت هذه اللحظات تلقى بذكرياتها الأولى، أصابع فى الشعر الأحمر الذى ارتدته على قدميها مثل بطانية، أو تخبئ ذراعيها اتقاءً للريح، والطرق العريضة ذات الأضواء المنسابة، وظلمة الغسق

فى المدينة، وناطحات السحاب البعيد فى نيويورك تشبه سلة المجوهرات. كان يمشى بظهر الملاكم المنحنى، ويمسك بقدميها حتى أنها إذا نامت يبقيها على رأسه. كانت تشبه قصة من كتاب وعظ للأبراشية، التجوال، السنة تمر إلى الصيف، الخريف، بللورات الثلج عند الفجرعلى النوافذ. حزمها فى الملابس والوشاحات، حملها مثل صرة على ذراعيه، حتى تلمح بطرف عينها نتف الثلج. وجاء الربيع ثانية، وتقدما أكثر، عبرا الجسور أسفل العوارض المعدنية، من خلال أضواء الشمس المتشابكة، وإلى مانهاتن. حدق فى البائعات الجميلات من خلال نوافذ المحلات، بدا انعكاس صورته مخيفاً، البنت الصغيرة تضحك، شعرها هالة مجعدة لونها نحاسى، مقود من عنده فى كل قبضة من يديها. وإلى "بروكلين" و"كوينز"، حيث ينظر الناس السود عليه باحترام صامت لقبحه وقوته، ومن أجل البهجة البسيطة على وجهه. والعودة، "باليسادز بوليفارد" و"إنجليوود كليفس" و"بورت لى"، و"إيدجواتر"، والبيت مرة أخرى فى ساعة مفقودة ما، إلى منزلهما الخاوى. لينام وقتاً قصيراً ثم يغادره. غير قادر على إنهاك نفسه، تتبع النهر، حافظ على رؤية المدينة المتكدسة من طرف عينه، حركة المرور عبر الماء إلى طريق "هنرى هادسون". "جوتنبيرج" أو "ويهاوكن"، مراكب المسافرين، ومرة أخرى المدينة المتميزة. وفروع حدائق "سنترال بارك" أمام تلك المبانى العالية اللامعة.

وأضاءت قناديل الشوارع. وانعكست الأنوار الخافتة لغسق المدينة على صفحة النهر. ووضعت "إيزا" قبعة للحماية من الشمس، وهى الشىء الغامض الذى سوف يظل معها لسنوات فيما بعد.

وفيما بعد ظهيرة أحد الأيام، تتبعته سيارة شرطة ببطء لمدة عشر دقائق، قبل أن تنطلق مسرعة. تأكد من خلال بعض الحركة الضبابية الهيئة التى كانوا عليها. فكر فى المرأة التى تتولى رعاية الطفلة بالنهار التى كانت تساعده من وقت لآخر. لقد كانت معجزة أنه لم يُقبض عليه. خاف من الخسارة، سمع الأبواب تُغلق عند المساء، وصوت محركات سيارات الشرطة. ذهب إلى النافذة، ثم نظر حيث تنام "إيزا" على البطاطين. أن يفقد هذا الحب، هذا العالم الصامت البسيط، وكل هذا الذى يدور بداخله، كان شيئاً كثيراً جداً الآن، مرة أخرى.

وفى الحمام تلك الليلة، وقف أمام ملامحه التى لا تعبر عن شىء. كان الوجه ينطوى على الكثير جداً من العنف، ورغب لو إنه استطاع أن يسألها ما الذى يفعله هنا، أو يمكن أن يفعله، لكنه قد وصل إلى نقطة داخل الفشل، بحيث إنه لم يعد ممكناً بعد الآن أن يسأل. لقد فشل مع "إيزامارى"، والملاكمة، و"لويز"، وحتى هنا، فى المكان الذى سعى إليه أهله. وكل ما تبقى هو ضعف طفلته.

وفى اليوم التالى بعد الفجر، جهز سيارته، وهرب. رحل جنوباً خلال "نيوجيرسى" إلى "ميريلاند"،

"فيرجينيا"، توقف ثلاثة أيام فى مدن صغيرة، يقرأ الصحف المحلية ليأخذ فكرة عما يلى، حتى وجد وظيفة فى مزرعة للخيول. وهناك حصل على شقة فوق مرأب عربات الخيول، وبدلات نقدية، واستطاع أن يُجلس "إيزا" فى الشمس بينما هو يعمل. ورأى أنه كان من الممكن أن يكون راضياً فى هذه التلال الهادئة، والمرابط الكسولة، يراقب طوال الليل المراعى ويفكر، متى يستطيع، لا شىء، مطلقاً لا شىء على الإطلاق.

فيرجينيا
١٩٧٠ ـ ١٩٨٨

مرة أخرى عاد اسمه "جودى"، "جودى وايت". ارتدى ملابس العمل التى تشبه كثيراً الملابس التى ارتداها فى صباه، كما لم يكن السماد الذى ينشره بالجاروف مختلفاً. وأدهشته السهولة التى استوعبته بها البلد. وأحياناً، يسمع الناس يذكرون "على" أو "فريزر"، وفكر فى كل ما مر به. لم يتحدث أبداً عن الملاكمة، لم تقترب قدماه مرة أخرى إلى الجمنازيوم. وتخفى خلف لحيته، وأولى اهتمامه بالخيل وابنته. وعن البنات لم يعرف الكثير، لكن عن الخيول عرف الكثير من جده.

وعلى الرغم من أن "إيزا" وُلِدت فى أمريكا فى خضم أزمة فيتنام، إلا أنها شعرت ليس بالحرب، ولكن بكسوف القوى وتراجع الوجود الذى اجتاح ظلها، وبالمثل هى تلهت فى طفولتها ببطاقات الديناصور والزواحف المجنحة. وحينما كبرت، أصبح "جودى"

أكثر غموضاً بشعره المشتعل وحاجبيه اللذين تتقاطع معهما ندوب الجروح، ويده المثنية المتورمة التى تؤلمه فى الليالى الباردة. كان صامتاً فى معظم الأوقات، يتكلم الفرنسية والإنجليزية بطريقة متقطعة حتى أنها تعلمت الهمهمة، تقول، لقد أصبحت إنجليزية الفكر، أو تستعمل الكلمات الفرنسية بالتبادل مع الإنجليزية مع تعبيرات "اللعنة"، "الخراء"، "الجحيم"، حيث وظفت كل هذه الكلمات فى عملها مع الخيول.

ومع الوقت، استطاعت أن تحس بالحالات المزاجية لأبيها، الطريقة التى تسحب بها السماء ثقلها على العالم وتبطئ من سيره، العاصفة فيما وراء الأفق. كان يجلس يفكر، ثم يمضى إلى كومة الأخشاب، يقطعها ويقسمها حتى يتشقق الجلد عند جرحه القديم، ويساوى قطع الخشب الكبيرة غير متساوية الأطراف، حيث يقيمها ويساويها، حتى يجرح قبضته، وتسيل منها حينئذ الدماء. كان الشتاء هو الأسوأ. لم تكن تستطيع أن تتصور فيما كان يفكر، لا ترى دموعه، أو اليد التى تدمى على الأرض المتجمدة، وهو جاثم فيما بين القطع المتناثرة، يرغب فى أن يختفى.

ولم يكن "جودى" نفسه يفهم أحواله المزاجية. كان يخاف منها، ويحب "إيزا" بضراوة. وفى المرة الأولى التى مرضت فيها، حينما رآها تسعل فى فراشها، وقف فوق رأسها، يرتعش ويحاول ألا يصرخ. وبنظرة سريعة رأت هذا الخوف كأنه غضب، ليس فقط

الجزء الظاهر منه. أدار مقياس الحرارة، وأتى بالمسافة الدالة على الحرارة، وغطاها بالبطاطين، وبعد يوم بطوله تصبب عرقها، وتحسنت حالتها.

وفى النهاية تعلمت أن تجعل نفسها صغيرة، وهذا ما أزعجه. هذه الفتاة بكل أوجه الضعف البادى. وبسبب خجلها وتواريها، لم تكن تفهم ما هو الشىء الآخر الذى يمكن أن يريده. لكن الحب كان يُلح، ذكرى شىء ما لم تكن جميلة لكليهما، هذه التمشيات فى المدينة، أو الطريقة التى حملها بها على شعره الأحمر، أو تلك الحقول، الشمس من خلال الباب الموارب حينما يضعها فى الحوض الجاف بينما هو يعمل، والكمامات الناعمة العطرة للخيول الفضولية العجيبة التى تلامسها برفق.

ومع الوقت تركها تعتنى بنفسها. كان يطهى شرائح اللحم "الاستيك" كل ليلة ليضمن الصحة الجيدة لها. حيث إن "الاستيك" كان من أوائل الكلمات التى نطقت بها. كان يقول حينما يضعه أمامها، إن "الاستيك"، المتبل بالفلفل، قطعة دموية من اللحم. لقد كانت تحولاً حاداً عن المعادلة، لكنها قد فعلت الشىء الصحيح. وحينما تتعقد الأمور، كانت تعود إلى مالكة المزرعة "باربرا" التى كانت تفعل ما تسميه هى العمل المحدد، تطحن الأسبرين قبل أن تخلطه مع عصير البرتقال، وتصفيه من الشظايا والشوائب. امرأة نحيفة، أتت إلى "فرجينيا" من سكوتلندا وهى فتاة، وأخذت المزرعة عن أبيها. لم تتزوج، لكنها بدت

راضية، ومازالت تتحدث وتغنى. كانت "إيزا" تتجسس عليها فى المنزل مع الرجال، وفى الغالب مع النساء، يفعلون ما تعرف هى أنه يشبه أفعال التناسل. وحينما سألت "إيزا" لماذا لم تتزوج، أخبرتها "باربرا"، أنا أحب الخيول. الرجال ربما أصادفهم فقط.

وفى إحدى المرات، فى الضوء الخافت للإسطبل، فتحت "باربرا" قميصها لـ"إيزا"، وكشفت عن ثديين منبسطين، وعلى ظهرها حينما استدارت، أثر من ركلة حصان مثل علامة جمعية سرية، جلد رقيق يغطى حفرة غائرة.

أخبرتها "إيزا" إنها جميلة.

قالت "باربرا"، أنا أعرف، ووضعت يدها على رأس "إيزا"، توغلت بأظافرها من خلال تجعيدات شعرها تداعب فروة رأسها. أغلقت "إيزا" عينيها، وأخذت تغنج.

مرت السنوات بسرعة متماثلة، ولكن مع العلامات الأولى للبلوغ الجنسى لـ"إيزا"، انسحب "جودى". كان ينهض ليساوى الغطاء على التليفزيون حينما تتكلم، أو يذهب مباشرة إلى الخارج. وأجابت "باربرا" على أسئلتها حول هذه التغيرات بالمقارنة بينها وبين فرس، وهو ما جعل الأمر لايبدو بالغ السوء. لكن "جودى" رأى هذه النظرات المشرقة الجديدة، والطريقة التى تقف بها "إيزا" عند المرآه تمشط شعرها المموج، أو تثرثر مع الرجال الذين يمتطون

الخيول. أراد أن يضرب كل شىء، الخيول التى لاطفتها، الرجال الذين تنفسوا فوقها، النساء اللواتى مارست تضفير جدائلهن. كانت "إيزامارى" هناك، لون الغابة، وحدها فى المدرسة، وحدها على الطريق حيث الفتى الصغير أتى بالقصائد. مضى "جودى" بعيداً. لقد نجت "إيزا" من ذلك إلى الآن. وتذكر جده وهو يسكر لمقاومة ألم الفقد. اشترى اثنتى عشرة زجاجة بسعر الخصم، وتعمد الشرب حتى أصبح عادة، بنية إيقاف أكبر تهديد لـ"إيزا".

وسقط فى غمام النسيان، فما يكاد يستيقظ حتى يبدأ فى الشراب، ثم يعمل فى هذه الواجهة الأمامية للوضوح. أحياناً كان يتعرف على حضورها فى "إيزا"، كما لو إن أمها تنظر من خلال تلك العينين الوقادتين، لترى مدى الحماقة التى كان عليها. لكن، مع نوبات الغضب فى سكره فى منتصف الليل، كانت الحكمة الغريزية لـ"إيزا" تتوارى خلف الخوف. وعلى مر السنين، أخبرته نوبة ما من المنطق أنه قد فعل ما قد فشل فى فعله مع "إيزامارى"، حتى حينما تعامى بنفسه عن فقدان "إيزا" المحتم. سمع فى نومه أسماءً بالصوت القاسى لجده: "جاسبى"، كاب-شات، ليس ميشينز، ستى ـ آنى ـ ديس ـ مونتس، ريفيرا كلود. لم تعد تهاجمه بعد كوابيس العظام المفقودة وغضب "لويز". حلم بالهواء الشمالى، "سان لورنس" مثل قاعدة صخرية، متسعة، مياه تنثرها الرياح التى تحكم التفاف الأشجار، الطريق المتعرج. واستيقظ وهو يلهث بصوت مخنوق.

وعندما كبرت مضت من خلال الشعائر المتقنة أمام المرآه التى تضمنت ليس فقط وضع المكياج أو الإعجاب، بل أيضاً التركيب الحذِر لوجه ربما يكون وجه أمها. كانت شفتاها الشاحبتان غامضتين، كما لو كانتا علامتين غريبتين على الجزء الأعلى من الفخذ. كانت لها رموش عين "جودى"، ولكن أكثر من ذلك أثر جرح على أنفها بدا على أبيها، منذ وقت حينما كان عمرها أربع سنوات، حينما أزعجته بينما هو يقطع الأخشاب. وأرادت أن تأكل فوقفت قريبة جداً منه، وانفصلت قطعة من الخشب من الكتلة لتضرب وجهها. وصرخت، وهمهم هو، أنا آسف، أنا آسف. كانت خائفة وهى ترى نظرته التى تدل على أن الجرح كان خطيراً. وقد دهن أنفها باليود من صندوق الأدوية البيطرية. وقالت "بربارا" إنها بدت مثل مهرج السيرك، لكن قولها لم يفلح فى أن يجعل "إيزا" تبتسم.

وفى مكتبة المدرسة، وجدت كتاباً عن آكلى لحوم البشر، ومن كل شىء قرأته فإن هذا التصق بها، المعلومات بأن ـ فيما وراء شعائر المرور والرجولة ـ إنهم أكلوا بعضهم لاكتساب القوة. لقد رسمت نظرة فى عيون آكلى لحوم البشر بعد أكلها ورؤية الضوء الذى يومض. ما الذى حدث لقوة أمها حينما ماتت؟ هل ماجت مثل ملاءة منشورة على حبل غسيل وانجرفت تسوقها الريح، غبار أحمر خلف سيارة عابرة؟ إذا كانت هى قد أكلت أمها، هل تصبح أذكى وأقوى

وتعرف من سيكون فى يوم ما بصورة أكثر تأكداً من اختبارات تقييم الذكاء التى تقدمها المدرسة: أمينة مكتبة، أو سكرتيرة أو مساعدة فنية؟

وفى أوقات قليلة، "إيزا" سمعت "جودى" يتمتم عن أعمام، وأخوة وأخوات، وقوة جدة، وقتال على أرصفة الموانئ، وعمل فى الحقول. لقد سمعت الفرنسية بما يكفى لتفهمها، وحتى تتكلمها. وقبل الإجازات حينما كان رفاق الدراسة يتحدثون عن لم شمل عائلاتهم، كانت تشعر بالغيرة. ما الذى حدث للأقرباء الذين وصفهم "جودى"؟ الآن حينما يشرب، تعلمت أن تختار توقيت أسئلتها، حتى يتحدث. إنها تنصت بشغف: قتال، عواصف ثلجية، رجال يبدون مثل المتشردين بسبب طريقة "جودى" التى يلوك بها حديثه. ما أخبرها به كان فى أوقات خارق للعادة بشكل كبير. أخوة وأخوات يمنحون إلى الجيران، الأعمام الذين تصيبهم الشيخوخة بين عشية وضحاها. وهى ما شكت فيه. شخصيات تظهر مثل العمالقة الغريبة المشوهة فى إطار تفردهم بقوتهم. لكنها بالتدريج رأت أعمال عالم أفضل، حيثما ينتمى كل فرد. وشعرت حتى ربما بالافتخار الغامض من أنها تنحدر من سلالة أكثر صلابة. استعارت أطلساً جغرافياً واطلعت "جودى" على خريطة كندا. أشار إلى "كويبك". سألت، لكن أين؟ وطرق بإصبعه الفظ على الإقليم، والقرية غير المحددة، وفى ذاكرته فقط اسم، ريح وحقول وماء.

لكن السؤال الذى كانت تسأله فى الغالب عن هذا الذى كان ينتابها لأطول وقت ويستحوز عليها.

من كانت أمى؟

تذمر وأشاح عنها بيده.

قال ذات مرة، لا شئ أكثر.

ومع بلوغها سن الرشد كانت "إيزا" هى أطول بنت فى المدرسة. أطول حتى من معظم الأولاد. كانت قوية مصطبغة باللون البنى من العمل، لكنها تتمتع بالكثير من الشعبية بسبب تأثير الملابس والمواقف، وليس فقط الحجم، لكنه أيضاً هو الحلم الغامض وملابس المزرعة المزركشة جعلتها منفصلة. اعتقدت أنه فى المكان الذى أتى منه "جودى" أياً كان هو مثلها، وأنها ربما سوف تذهب إلى هناك إذا أرادت أن تتزوج. وعلى الرغم من أنها أعلنت عن خططها للالتحاق بالجامعة وأن مدرسيها قد شجعوها، إلا أنها كانت تحلم فى الغالب فى أوقات متأخرة من المساء بالكتابة فى جريدة، وبالمعاناة مثل "جين إير". فقد أحبت الطريقة التى تتحدث بها الأصوات النسائية من قلب الصمت.

لم تلتحق بالجامعة. فقد وقع حادث لـ"جودى". كان مخموراً حينما سقط الجرار فى حفرة ليقع وتتكسر ساقه. فبقيت هى للعناية به، وحتى حينما كان يعرج، لم تستطع أن تتخيله يطبخ وجباته المقززة. وبدا أن "باربرا" التى كانت حاضرة فقط كأم، تحتاج أيضاً

المساعدة. فهى التى كانت فى وقت من الأوقات قادرة على أن تلكز الفرس، أصابها ضعف فى ركبتيها، وأصبح لها جدولها اليومى من الشرب الثقيل، وكانت فى حالة مماثلة من الاعتمادية.

أخبرت "إيزا"، ربما كنت سأطرد أباك، لكنه أدى عمله بصورة جيدة وسريعة، وأتصور أنه له الحق أن يعود إلى العمل القبيح للشرب بنفسه حتى الموت. فى الحقيقة ربما كان يلهمنى.

كان "جودى" يتماثل للشفاء، كان يخلط الويسكى مع أقراص الدواء، وينام، أو يقضى نهارات من النوم المتقطع فى النهاية.

قالت "باربرا"، إنه عديم القيمة الآن، لكنه جزء من المزرعة، وعلى أية حال نحن قد حصلنا عليك.

جعلت "إيزا" هذا ينهار الآن. كانت الخيول مسئوليتها، فالنقود التى كانت تدفع فى وقت من الأوقات إلى "جودى"، الآن تُدفع فى مظروف بدون اسم. كانت حياتها مثابرة، حجرتها تقريباً فارغة، توجد صورة واحدة على المكتب. فتاة ترتدى ملابس مزرعة "جودى"، وحذاء جلديًا طويلا يصل إلى ركبتيها، وأكمام مثل الأجنحة. لم تستطع أن تتذكر المناسبة، إلا فقط أن "باربرا" قد أخذتها.

لكن واجبات الصيف المرهقة تخف فى الخريف والشتاء. ثم الربيع المزدحم. إنها قامت بعملها وأخذت جرار المزرعة إلى المتجر والصيدلية، وتناولت الغداء

مع "باربرا"، حينما شاهدا معاً القنوات القليلة ذات الإرسال غير الواضح فى تليفزيون المنزل. قالت لنفسها، إن هذه الخيول كانت حب حياتها. وبمفردها فى الغرفة، ومع انقضاء النهار، تطالع كتب "زمن الحياة" عن الأشباح والأسرار الغامضة.

بعد الحادثة التى وقعت لـ"جودى"، اجتاحته شيخوخة مرعبة. كان هزيلاً. هيكلاً متهالكًا يبرز من إطاره. كتفان مثل عقدتين تحت قميصه. تتحرك رأسه كما لو كانت مركبة على "زنبرك". تذكر "هيرفى هيرفى" وهو يمشى خلال ضوء الشمس الساطعة إلى أرصفة الميناء، والعمل الذى كان تقنية متأصلة فى مركز حيواتهم. وفى أحد نهارات أغسطس جاءت "إيزا" من الحرارة لتشرب. استيقظ من على الأريكة ورآها من النافذة.

قال، "إيزامارى". وقف فى الغرفة المعتمة. مضى يعرج تجاهها.

إن ضوء الشمس من خلال النافذة جعل الحجرة تبدو مظلمة. فتراجعت.

كرر، ""إيزامارى" سامحينى. تعلق بها وضغط يديه على ظهرها بمثل هذه القوة القديمة، فلم تكن قادرة على التنفس.

بعد ذلك، كانت تتجنبه. تغلق بابها عند المساء. أصبحت تكره الرائحة النفاذة للكحول، ولم تستطع أن تفهم لماذا بدأ فى يوم من الأيام الشرب. كانت فى

العشرين، ولم تعرف بمن تثق، وفكرت فى الصلاة. ما أقل ما عرفته عن الله مما سمعته فى المدرسة. تخيلته صوتاً مثل صوت رجل الأرصاد الجوية. ركعت فى الإسطبل الذى تخزن فيه التبن. ذرات الغبار السابح تشبه ومضات يقبض عليها ضوء الشمس، ويلفها عطر الصيف من كل اتجاه. لقد أرادت الحرية. لكنها أغلقت عينيها تحاول أن تصوغ مصطلحات انعتاقها، وشعرت بنفسها على حافة عمل حقيقى مثل العنف، كما لو إنها قادرة على أن تتمنى موت "جودى"، وتوقفت.

وبعد ذلك مشت خلال الحقول، والعجلات الصامتة لأزهار اللؤلؤ، تحاول أن تنسى ما يثقل كاهلها، أن تمسك فقط بالسماء، باهتة وواسعة وفارغة.

وبعد أسبوع، رأت "إيزا" سيارة "جاجوار" تقف عند الحظيرة. كان السائق رجلاً نحيفاً عجوزاً، به قليل من التخنث، مع بعض من الحزن، وتتدلى شفتاه اللتان يلمسهما بعصبية. كانت بشرته بنية اللون ذابلة، وعيناه لوزيتين، ورموشه سوداء على وجه الخصوص. وشعره مجعدًا ومسترسلاً.

قال بصوت لم تشعر معه بالراحة رغم أنه جنوبى وجاف، عفوا يا سيدتى الصغيرة، إننى أبحث عن حصان أشتريه. سألت، أى نوع من الجياد؟ وهى تفكر فى أن توقظ "باربرا".

لا أعرف. أظنه ربما يكون من نوع "تينسى ووكر".

قالت، أوه، عليك أن تتحدث مع "باربرا".

حدق، عيناه كبيرتان، وابتسامته مثل تلك التى على علب معجون الأسنان. كانت أسنانه مربعة وسليمة على الرغم من كبر سنه.

هل تعملين هنا؟

قالت، أنا أعيش هنا. وضيق عينيه ورفع ذقنه. فى المزرعة مع هذا الرجل العجوز الذى يرتدى صدارى، وجدت أنه من الصعب أن تصدق أن الزمن كان أواخر الثمانينيات.

سألها، هل هذا حلمك؟ الجياد؟ بنات كثيرات يحببن الجياد.

لا. أنا لا أعرف.

وأمال رأسه. لا، أو لا أعرف؟

قالت، لا أعرف.

أخبرته القليل عن نفسها، من أنها تحب أن تقرأ لكن لم تخبره ماذا تقرأ، وأنها قد أحبت الجياد، على الرغم من أنها لا تفكر بها حينما ينتهى عملها. وفجأة تنبهت مكتشفة كيف أن أفكارها كانت ضئيلة، وافقت على أن تريه الجياد التى كانت معدة للبيع. واعترف بأن التربية لم تكن بأهمية الجمال، وأنه يمكنه أن يعود حينما تكون "باربرا" أكثر استعداداً.

سألت "إيزا"، فيما تريد الحصان؟

تـردد، ثم قـال لـهـا، من أجل الجـمـال. ووصف مزرعته، كيف فكر فى أن مزرعة رجل نبيل دائماً تبدو فى صورة جيدة مع حصان جميل، ربما اثنين حتى لا يكون أحدهما وحيداً.

وماذا عن المأوى والطعام والتدريب؟ سألت وهى متأثرة باهتمامه بالجمال.

ربما سوف استقدم فتاة لتعتنى بهما.

ولأنه عجوز، فإنها لم تكن منزعجة. وعلى الرغم من أن ارتفاعه كان يصل إلى مجرد أكتافها، إلا أنها شعرت بنفسها فتاة وتحدثت مثل إحداهن. كان اسمه "ليفون ويليس"، وأخبرها أنه يُنطق "ليف أون"، وخلال هذا النهار، تجولا فى المرعى، وعلمت عن مزرعته، بيته الكبير وهواياته: القراءة والتأمل والتثقف.

قال، لقد اعتدت أن أُريد، الآن اعتدت أن أفكر.

واستمتعت كثيراً بالمحادثة حتى أنها كانت تتطلع لزيارته القادمة. لم تذكر عنه شيئاً أبداً إلى "باربرا"، وهو لم يسأل أبداً عن شراء خيول مرة أخرى. رأت أنه كان رجلاً عجوزاً لا ضرر منه، ودوداً وذكياً، وهو بالتأكيد من مكان ما بعيد، حيث يمكن للمرء أن يبدو مذعوراً من حصان مراعى، يمد يداً ويقول، أود أن ألامسها.

وفقط حينما سألت كيف أصبح غنياً، حتى شعرت سريعاً بعدم الأمان، كما لو إنه قد اعترف بأنه خرج حديثاً من السجن. أخبرها بقصة مزرعته، التى

وصلت إليه عبر أجيال من خلال عائلته، وكيف ظل لسنين غير قادر على سداد الضرائب، لكنه لم يقدر على أن يغادرها، فلم يكن يعرف مكاناً غيرها يمكنه الذهاب إليه. وفى الخمسين من عمره وصل إلى أن يكره العمل الذى لا معنى له. لقد قلل الضرائب عن طريق أنه جعل معظم المزرعة كمشهد جمالى للترويح والاستمتاع. باع معظم المواشى والآلات، وبدأ يكلف السكان المحليين أن يستخدموا أرضه كمكان للنفايات لتجميع المواد. وكان يحرق ما يستطيع إحراقه فى المواقد، ويبيع الخردة إلى ورش التصليح وأحواض السفن. وفى هذه السنوات تقدم من قراءة الموسوعة حيث أفصح - شىء ما قصدت دائماً أن أفعله - إلى الكتب عن الاستثمار الذى سرعان ما حاول أن يمارسه مع الصبر. وفى أحد الشتاءات، استُؤجِرت شركة هدم محلية لتفكيك وشحن عوارض لمعامل معالجة مياه غير مستعملة والتى تآكلت قواعدها. تقول الأسطورة المحلية إن الشاب "جورج واشنطن" قد احتفظ بمكتب فى طابق تحت الأرض من المبنى الأصلى حينما كان يخدم تصميم المدينة الرائعة التى انفصلت عن العاصمة وحملت اسمه أيضاً. وذهبت العوارض إلى منزل عطلات نهاية الأسبوع لرجل غنى فى "ميدلبيرج"، لكن النفايات والأخشاب المتناثرة، كل شىء قد سقط من طابق إلى آخر، بقى هناك لقرون، وانتهى بها الأمر فى "ليفون". وقام الطاقم بالتنظيف إلى حجر الأساس، وأحضر أكوامًا متجمدة من الأتربة

وقطع الأخشاب والمسامير والزجاج. لم يكن "ليفون" يريد مثل هذا النوع من النفايات، لكن فى الربيع حينما كان يلقى بها، وجد أول عملة، عملة تصميم ١٨٠٢ وفى غضون أسبوع، وجد عدة عملات أخرى، كلها من الفترة نفسها. واشترى كشافًا للمعادن واكتشف العملات ذات القيمة من فئة الأربعين دولار، مثل العملات المعدنية لسنة ١٩٤٣ إلى العملات الأخرى. يستطيع أن يذكرها. العملة الذهبية ليبرتى وعملة البنسات العشر الفضية ١٩١٧ والرأس الهندية ١٨٧٧ وعملة رأس التاج ١٨٣٩، وعملة النصف بنس والكثير غيرها، من بينها اثنتا عشرة من عملات "درابد باست" المعدنية المصممة، وهى العملات التى سُكت فى العقد الأول من القرن الثامن عشر، وكل عملة منها تساوى الألوف. وهو يرى أن عمليات الهدم لابد وأنها صدمتها وحركتها من مخبئها. وقد قرأ عن جمع العملات، وفى النهاية باعهم هواة جمع العملات. وأنفقها فى المتع والمسرات، ولم يمض طويلاً حتى طار مخزونه وتبدد. كانت سنينه معدودة، وكان يصوغ الحياة بالصورة التى ظل يعتقد أنها هى ما يجب أن تكون عليه.

أنصتت "إيزا" فى دهشة. أخبرته هى أيضاً أنها شعرت بأنها مختلفة. شرحت أن أباها كان فرنسياً، وأنها لم تعرف أبداً أمها، وبأنها كانت دخيلة على المدرسة.

قال، آه أنت لديك دماء فرنسية قاتمة. لقد كنت أتعجب.

قالت، لابد وأنها، مع الأخذ فى الاعتبار أن هذا ربما يكون الشيء الآخر -"الفرنسية المظلمة". وكررت العبارة بنعومة تختبر بها مدى ملاءمتها.

فى هذه الزيارة الثالثة، بدا "ليفون" عصبياً. هو يأتى دائماً فى التوقيت ذاته، لكن تصادف بالنسبة لها أنه لم يكن أحد آخر فى الخارج حينئذ. كانت تخبره عن إحباطها، عن شعورها بأنها واقعة فى شرك. كانت مندهشة حينما سمعت نفسها تستخدم هذه الكلمة.

قالت، إنه السجن. لابد وأننى أعنى أكثر من ذلك.

تردد "ليفون"، ثم أخبرها أنه كان لديه اقتراح يفكر فيه. وتنحنح، ومرر أصابعه يساوى رموشه الرطبة. كانت نغمته تشبه رجل أعمال.

أنت غير سعيدة، قالها بإنجليزية واضحة جداً. أنت ربما ترغبين فى مشاهدة العالم. الآن ربما يبدو هذا غريباً. أنا أيضاً رجل وحيد. وأنا كذلك منذ سنين، وما أشعره نحوك ربما يكون أول صداقة حقيقية. لقد فكرت فى ذلك، إنه ممكن فقط لأنك أصغر من أن تضعى افتراضات مسبقة. أنت توافقين على. إن ما أريد أن أقترحه هو زواج عمل، على الرغم من أنه ليس عملاً حقيقياً. فأنا أشعر بحب عظيم نحوك، لكننى أعرف أننى أظلمك. فأنا رجل عجوز جداً. لذلك فإن ما أقدمه - ما أقترحه - هو أننا نتزوج.

لن يكون هناك إتمام زواج بالدخول. وأضاف، لا جنس، وهو ينظر بعيداً، كما لو كان غير متأكد من أنها فهمت. بإمكانك أن تسافرى، أن تذهبى إلى الجامعة. سوف أدفع تكاليف ذلك. بل إننى حتى سأشترى لك جياداً. كل شىء كما تحبين. لكنها سوف تكون صداقة لتساندينى خلال أيامى الأخيرة. هل ستقولين نعم؟

وشعرت "إيزا" كما كانت مع "جودى" حينما قررت ألا تذهب إلى الجامعة، لأنها لديها القوة للإنقاذ، فقط الآن كانت هناك إمكانية الهروب. أحبت "ليفون"، لا أكثر من هذا. كان قصيراً ونحيفاً ويرتدى ملابسه بطريقة رجل عجوز جداً. كان يضع وردة حريرية فى عروة سترته.

قالت، وهو كذلك. لكن علينا أن نذهب الآن ونتمم ذلك.

اتسعت عيناه. أنا أقصد سريعاً، ولا أريد حتى أن أعود ثانية أبداً.

حاولت ألا تفكر فى "باربرا" النائمة مع الويسكى الاسكتلندى والماء، و"جودى" يشاهد التليفزيون فى انبهار. سوف يغضب الناس. فالمزرعة تحتاجها الآن. يحتاج إليها "جودى" و"باربرا". من الأفضل لو استطاعت أن تنسى ما فعلته، ولا تراهما مرة أخرى.

وكما كان مُدبراً، الهروب فى الظلام. حزمت الأشياء، كتبت رسالة، ثم تسللت من المبنى ومشت على

الطريق المعبد بالحصى. حاولت أن تفكر فى "جودى" وهو يفسر بصعوبة كلماتها التى تركتها، بعينيه الكبيرتين اللتين ترفرفان وتتدحرجان فوق الجمل. هذه المزرعة هى المكان الوحيد الذى عرفته، وهى تخشى الآن من أن كل رائحة أو صوت مألوف سوف يذكرها بها. سوف تسوء حالة "جودى" من إفراطه فى السكر. لقد وقع له حادث. توقفت، وتلفتت حولها، غير متأكدة من أن لديها ما يكفى من الشجاعة. تحركت أضواء طائرة فوق شجرة سنديان ساكنة، تشبه فروعها جهازًا عصبيًا تضيئه نجوم السماء. وتوقعت إشارة، وأن أحد جوانب العالم من حولها سوف يشير لها بما ينبغى أن تفعله.

وعند منتصف الليل، قابلها "ليفون" فى "الجاجوار". بدا مجهداً.

اعترف، أنا فى العادة لا أسهر إلى هذا الوقت المتأخر.

وبعد أيام قليلة، تزوجا. هذا أيضاً كان يشبه صفقة أعمال، على الرغم من أنها رفضت أن تغير اسمها، حيث قرأت أن النساء لم يعدن يفعلن ذلك، ولأنها فكرت فى أن ذلك يمكن أن يحطم قلب "جودى". وبدا "ليفون" منزعجاً. وانتقلت إلى غرفتها، المزرعة بعيدة كثيراً حتى أن أحداً سوف لا يعرف أين ذهبت. لقد حافظ على وعوده، واشترى ما طلبته. لكن سرعان ما انتابها الإحساس، حينما بدأ يحضر إلى البيت ملابس من القمصان بدون أكمام، وأصر على

أن يجلسا على المدخل أو يتمشيا عند المساء، الإحساس بأنها تشبه الحصان الأملس فى المرعى، موجود لاستكمال المظهر.

كان الله هو محور الحديث كثيراً. قال "ليفون"، غالباً ما أتأمل. أحياناً، أفكر فى سفن الفضاء والأجسام القادمة من الفضاء الخارجى، فكل هذا يبدو مهماً فى قضية الله. إن إحدى متع الزواج هى المشاركة فى أفكارى. فليس هناك أسوأ من التفكير فى الله بمفرده. لقد كان وحيداً جداً.

كان يستطيع الحديث لأيام عديدة. وقد كان هذا صعباً على "إيزا" بعد سنوات طويلة من الصمت. ظهر عمره أكبر مما هو عليه، وكان غالباً ما يتجول بالبيت وهو يرتدى برنس الحمام مثل "هيو هيفنر" صاحب مجلة البلاى بوى، قصيراً نحيفاً. وربما يرقدان على سريره، ويتحدث، طفل حكيم وعجوز، ثم يغلبه النعاس، وتذهب لتمضى يومها حتى تسمعه ينادى.

قال، توجد قصة أريد أن أحكيها، أردت فقط أن أتأكد من أنك فهمتنى. وإلا ظننت أنها سخيفة.

كان الوقت مساءً، وكانا جالسين فى المدخل مع كتبهما. لقد عرفها بالكثير من الأعمال المذهلة والفلسفية، وعلى رؤيته المفضلة من أن الكتاب المقدس كان سجلاً للحياة خارج الأرض، وكيف أن كل النصوص المقدسة ترمز إلى حرب فى السماء خاضتها الآلهة، أسلافنا البشر الأعلون الذين وضعوا

هندستنا الوراثية. كان الأمر ساحراً، ووافق هواها. لقد جعلها تريد شيئاً ما ليحدث، غرباء يصلون من الفضاء، أو مذنب يصطدم بالأرض. لكن كما كان الحال غالباً، يقاطع قراءتها ليخبرها بقصة أخرى.

هل ترين هذه الغابات؟ وأشار إلى ما وراء الهيكتارات الخاصة به أسفل المنحدر إلى جدار حجرى منهار.

قال، هذه الغابات كانت هناك منذ كنت صبياً. الحكومة تملكها. أظن أنه لا أحد يعرف بالفعل. يوجد جدول هناك، وعبر الطرق بالأحرى طريق مزدحم، لذلك إذا ذهبت بعيداً جداً، ترين النفايات التى تركها الناس. لكن الأشجار عجوزة وهى مظلمة، مخيفة تماماً.

إن القصة التى أراد أن يشارك فيها تعتبر إحدى الأمسيات، حينما كان يصنف ركامًا من القطع المعدنية وأفرغ دلواً من المسامير، متصوراً أنها سوف تصدأ أسرع فى المياه. وقد حصل على القليل فقط إلى الغابة حينما رأى الرجل والفتاة. كان التيار يجرى عالياً هادراً، لذا لم يكن هناك طريقة يمكنهما بها سماع صوت اقترابه. كان الرجل طويلاً، يرتدى بذلة سوداء.

قال "ليفون"، كان شاحباً بشكل لا يُصدق، أكثر الرجال شحوباً رأيته فى حياتى. بدت الفتاة أصغر قليلاً منه. ترتدى ملابس خفيفة على الرغم من أنها

باردة. كانت جميلة، ولم أستطع أن أوقف مشاعرى تجاهها. لكنها كانت طويلة، والرجل كان خائفاً. وقفا هناك فقط، دقائق على الأقل. كان وجهه فى مواجهة رقبتها، ومال رأسها على كتفه. كان طويلاً جداً، ولم يبد هذا طبيعياً. راقبتهما لأطول وقت استطعت أن أتحمله. بدا أن الفتاة مستغرقة فى النوم، من الطريقة التى بدأت بها يداها تنزلق على ظهره. أصابنى الرعب ورجعت إلى البيت. وأغلقت الأبواب فى هذا المساء.

الآن أنا اؤمن بالله وبالمسيح وبصدق الكتاب المقدس. هناك، فى الغابات، رأيت أسئلة فلسفية عظيمة مطروحة. إذا استطاع الشر الخالص أن يوجد، إذًا كذلك يمكن لله أن يوجد. وكنت أخرج كل مساء فى أعقاب ذلك لأبحث عن الرجل، وأفكر أنه إذا استطعت العثور عليه، فإننى سأكون مؤمناً بأعمق الطرق. وتوقفت عن الذهاب منذ أن تزوجتك. أشعر بالأمان، ولا أريد أن أتركك بمفردك. لكننى أعتقد أنه ينبغى أن أذهب ثانية. إنها أخذت كل شجاعتى، وأعتقد أنها تأخذ كل شجاعة المرء ليبحث عن الله. فالمرء يُخاطر ولا يعثر على شىء، ويجد المرء نفسه وجهاً لوجه مع الموت.

وفى الأمسية التالية استأنف "ليفون" سهر حراسته الليلية، واقفاً فى الهواء البارد عند الجدول، يراقب الظلال. أفزعت القصة "إيزا"، وسألت ما إذا كان قد قرأ الصحف بعد ما شاهده. لقد فعل، لكن لم

تكن هناك فتيات صغيرات مفقودات. أخبرها، إن الشر ربما لا يكون بسيطاً جداً. لقد فكرت فى كل شىء قد راوغها حول حياتها، بالطريقة التى اختارت بها أن تنقذ نفسها وتهرب بعيداً، وبالوحدة التى لابد وأن "جودى" يشعر بها.

عاشت "إيزا" هناك عدة أشهر، حينما سمعت عن لقب "ليفون". كانت فى المتجر العام، وسألها العامل إذا كانت هى المرأة تعيش مع المكسيكى.

كررت، المكسيكى؟

قال، أعرف أنهم فقط ينادونه بذلك. لقد نسيت صراحة اسمه الحقيقى.

"ليفون ويليس".

نعم هو كذلك. وضحك العامل ضحكة خافتة. إنه يسمى المكسيكى منذ مدة طويلة، نسيت. ومن هذه المحادثة، ومما أخبرها "ليفون" عن نفسه، كانت "إيزا" قادرة مؤخراً أن تفهم معنى اللقب. فقد كان أجداد "ليفون" الأوائل مختلطين، وهو قد جاء من الشحوب النسبى المشوش. إن آخر أقاربه قد مات، أو رحل بعيداً ليصبح أبيض، وهو قد اعتبر نفسه أسود جداً عن أن يتزوج بيضاء، وأبيض جداً من أن يتزوج سوداء. فحياته بالكامل التى قضاها على الأرض، يُشاع أنها فى مساحة الأربعين هكتار لعبد. لقد تحول إلى شىء ما، ناسك، وحيد فى منزل بناه أحد جدوده السابقين بصورة جيدة والذى فى السنوات التى أدار "ليفون"

فيها مكان النفايات، بدأ يميل. وفيما بعد بنى بيتاً جديداً واستأجر مصممين لتجميل المشاهد الطبيعية لتجميل المزرعة. كان يلبس ملابس فاخرة، ويقود الـ"جاجوار"، ويحافظ على نفسه. لقد بدا فقط طبيعياً إعطاء رجل لقب غير مفسر مثل هذا. وحينما فكرت "إيزا" فيه، لم تكن متأكدة مما إذا كان يجب أن تشفق عليه أو تخجل منه.

وفى هذا الخريف، اشترى "ليفون" لها سيارة "هوندا" حتى تستطيع أن تلتحق بالجامعة. لقد كانت أكبر من أن تكون طالبة مبتدئة، ولم يكن لديها إحساس بما هو مألوف، أو بماذا يحبه الشباب الآخرون. وبدلاً من ذلك اهتمت بتراثها. لكن حينما حاولت أن تبحث عن اسم عائلة "الأبيض"، لم تتوصل إلى شىء مثل هذا فى "كويبك" الفرنسية. لم تعرف كيف يمكن أن تنتمى إلى أية عائلة ليست إنجليزية. وبغض النظر عن ذلك فإنها مارست فرنسيتها، وقررت أنها سوف تحرز درجة متقدمة فى هذه اللغة، ولكن حتى مع إحباطاتها المتنامية، فإن أساتذتها ليسوا متأكدين لماذا كانت مهتمة بماضى الملابس العتيقة فى "كويبك"، لماذا لم ترغب فى أن تدرس بالخارج فى باريس.

وعبر هذه السنة، وخلال السنة التى تلتها، تغير "ليفون" قليلاً. كان جسده مرناً، وذهنه نشيطاً. كان يمشى ويقرأ ويتحدث حتى بدأت تكرهه. فالأسئلة الوحيدة التى سألها تتعلق بسلسلة نسبها. وأقلقه

جهلها فيما يتعلق بأمها. قال، يمكنك أن تكونى أى شىء، ونظر إليها بتمعن، ثم فى يوم من الأيام أفزعها. هل تظنين أنه صحيح بالنسبة لنا ألا نتم زواجنا بالدخول؟

وعلى الرغم من أنها حاولت أن تبدو هادئة، إلا أن الشحوب المفاجئ كان إجابة كافية. ونهض، ومشى بعيداً.

وظل طوال هذا الأسبوع منسحباً. ولم يعودا يتحدثان فى فراشه. كان يرتدى الملابس الرسمية مع ساعة ذهبية وأزرار حلية فى ياقة القميص ومشبك لربطة العنق. وكانت لديه خواتم ذهبية فى أصابعه. وفقط حينما كانت تمنعه الأيام المملة من المراقبة، فإنه يجر قدميه فى ثوبه. وظهر فى هذه الأسابيع منكمشاً. وعرفت أنه تقابل مع محام ربما حول موضوع وصية، ثم بالتدريج أصبح يعاملها برقة أكثر من ذى قبل، على الرغم من أنه بنوع ما أعطى الأولوية للمراقبة.

وفى كل شهر كان كل منهما يرى الآخر فترة أقل. وحينما لا يكون منهمكاً فى القراءة، كانت "إيزا" تمشى فى المراعى المنحدرة. لقد أصابها هاجس الماضى، تشعر بالكيفية، كيف أنها حينما ذكرت الأصول أو أعادت الحكايات، فإن "جودى" كان يخبرها أنها صارت متميزة. ومن خلال رقتها غير المقصودة، تنبأت بعائلة مفقودة، بهجة ليالى الشتاء، حينما تقمع الثلوج العالم، ولا يمكن فعل شىء إلا الانتظار. ماذا عن الأم

التى محاها وطواها فى صمته؟ كيف أتى إلى هنا ووقع فى الحب؟

لم يكن النوم سهلاً. استيقظت مضطربة، تفكر فى أنها عادت إلى الحجرة التى عرفتها معظم حياتها. ومع إغماض عينيها، كان يصيبها دوار فعلى، إحساس بالسقوط، أو بالطفو. كانت تدرس الفرنسية حتى الفجر، ويتمكن منها الأرق مع مسجلات الصوت والأفلام التى تتركها بمشاعر معقدة، ولهجة باريسية تخص الستينيات.

الجزء الثانى
فيرجينيا إبريل ١٩٩٣

وصلت "إيزا" إلى عمر الخامسة والعشرين فى نهاية إبريل المشبع بالرطوبة. وغسلت الحشائش التى تجمدت من البرودة أديم الأرض، وكانت الأزهار التى أينعت على طول السياج قليلة وصغيرة. خمس سنوات عاشتها هناك الآن، تقرأ أو تقوم برحلات قصيرة إلى الجامعة على طريق طويل متعرج تحفه السيقان الطويلة للنباتات. كانت تُحضر معها كتباً لها معانٍ طقوسية، تحملها إلى بيتها مثل الفاكهة التى يحضرها عمال اليومية. وحيث إن الغرفة فى الطابق العلوى أصبحت حجرة مكتبها، فقد كدستها بالكتب، وكانت تعرف كل مجلد من المجلدات التى كانت تزدحم من الأرضية إلى السقف. وعلى الرغم من أنها حصلت على درجة علمية فى الفرنسية، عن الأقليات فى التاريخ والأدب، إلا أنها لم تكن مهتمة بالتدريس. فهى قد أحبت الكلمات القديمة والأفكار الخالدة. ولم تكن تحب المال أو الشباب.

وبمرور الوقت تعلمت هى و"ليفون" أن يتعايشا، وبينما هو يسهب فى حديثه عن . الحضارات فى العالم الخارجى، ونظريات القارة المفقودة أطلانطس، والكواكب غير المرئية . كانت تلوذ بالصمت كوقاية. فهذا الذى كانت تقرؤه هو كتب حقيقية، وعرفت أنه كان يمارس هواية غير واضحة. لكنه كان يمتلك خبرة العمر الطويل لعجوز أحمق، وعلى الرغم من أنه كان يزداد كل سنة نحافة وذبولاً وقسوة، إلا أنه ظل صادقاً فى ذكر المقاطع الصوتية لاسمه: (ليف) (أوون). ربما أصبح حاداً ينظر بخوف لكل ما هو جديد وارد، ومستغرقاً فى الخيال، قابعاً فى أحد الأركان، لكنه لا يتوقف مطلقاً عن الكلام. وبينما هو يتلاشى تجاه الخط البعيد للأفق، كانت "إيزا" تشغل المقدمة، وملأت المساحة غير المحددة من حولها أولاً بالكلمات والتاريخ، ثم الطعام. وسرعان ما استهلكت مدخرات "ليفون" فى معظمها على إضافة الكماليات مثل برطمانات قلوب الخرشوف البحرى والكافيار والخبز الفاخر والصناديق الكرتونية المحملة بفطائر اللحوم والمعجنات المحشية بالشكولاتة. كانت خيولها تصهل تحت ثقل وزنها، وتقف منفرجة القوائم، بعيون حزينة، متجهمة مثل الكلاب العجوزة. ونادرًا ما امتطتها، على الرغم من أنها فى بعض المناسبات كانت تخرج للتمشية بها.

لكنها كانت تقضى المساءات فى الندم، تنظر على المشاهد المظلمة، التبدل المزلزل فى الليل. وفى الطابق

السفلى، كان "ليفون" يشاهد التليفزيون، ويراجع مخزونه. كان الاقتصاد ناشطاً وسفن الشحن محملة، وعمله يسير بشكل جيد، وكان يضحك على المواقف الهزلية. فقط حجمها هو الذى خفف من قبضته عليها. فلم تعد بعد الملكية التى يفتخر بها، التحفة التى يعرضها على النظار، لكنه مع ذلك كان أحياناً يظل جالساً إلى جوارها، بدا أنه يعتبرها أقل رومانسية من الحد الذى تجاسر على أن يظنه يوماً ما. لكنه بعد أن يراجع خرائطه القمرية ومواقع النجوم ويذهب إلى فراشه، أو فى هذه الأمسيات حينما كان يقف إلى جوار الجدول، ينتظر أن يُقتل. حينما يطلع إلى المروج ويومئ برأسه التى مازالت تحيا إلى بابها قبل التقاعد. كانت تجلس فى حجرة مكتبها تتمنى ببساطة متناهية. قرأت قصائدها المفضلة كما لو كانت ترتل تعويذة، تختبر كيف ستؤثر فى مكان آخر وعمر مختلف. وضعت كتبها على الأرض، نظفت الأتربة من على الأرفف، ورتبتهم أبجدياً. بكت. رأت فى إحدى الليالى على ضوء النار برعماً فى المرعى القريب.

وفى الصباح التالى، حينما كانت تغادر المنزل، لاحظت بضعة مخيمات متناثرة فى الأرض المجاورة. كانوا يعسكرون فيما بين موقد نيران المعسكر على الأرض وشاحنة بنية اللون خلفها ذيل طويل من الحشائش المسحوقة، مكتوب عليها (المسيح) بحروف بيضاء كبيرة الحجم على كلا جانبيها. وبعد ظهيرة

هذا اليوم، حينما كانت تغادر متجر البقالة فى المدينة، رأت الشاحنة مرة أخرى متوقفة عند طرف نهاية الساحة بالقرب من فرع الفيديو "بلوكباستر" الشهير. وأحاط تجمع صغير برجل يرتدى ملابس سوداء مثل حجاج "بليموث"، ويضع قبعة عريضة الحافة سوداء، حيث كان يعظهم. ففتحت باب "الهوندا" ووضعت مشتريات البقالة بداخلها، ثم عبرت مكان الوقوف. وأومأ الرجل. وبرز شعره الأبيض عند حافة قبعته. وبسبب أنها وقفت ورأسها أطول من المجتمعين، كانت ترى المشهد بسهولة. ونظر إليها، ثم مرة أخرى كان لنظرته تأثير ملموس مثل شرارة سلك كهربائى. لقد أعتقدت أنها تخيلته، إلا أنها فى لحظة كانت متأكدة أنها قد تعرفت عليه. وكان يراقبها حتى وهو يتكلم.

كان يقول، وأن المسيح سوف يمشى فيما بينكم، بينما بدأ هو نفسه يمشى إلى الجمع... ويلمسكم واحداً واحداً على الكتف... وهو الأمر الذى فعله حينئذ برقة تختلف عن القوة فى صوته... وسوف تركعون وتأخذون اسمه فى قلوبكم.

وسرعان ما ركع الكثيرون على ركبهم، ونظر هؤلاء الذين مازالوا واقفين ورأوا أنهم ملفتون للنظر فتسللوا مبتعدين. وعلى الرغم من أن "إيزا" فاتتها الشعيرة، إلا أنها ركعت، ليس اهتماماً بالدين بل نوعاً من الفضول.

قال، نحن رجال الله. نحن نحمل رسالة الله إلى البلد الذى يفقد قيمه، إلى أطفال البلد الملوثين

بالجنس والمخدرات. لكننا نعتمد عليكم لتحتاجوا إلينا، لتخبرونا أن نستمر فى مهمتنا لإنقاذ الأرواح.

وأشار تجاه الشاحنة، إلى حيث جلس رجل على الأسفلت مع صبيين، واحد على كل جانب. وتحققت حينئذ من أن الولدين هما فى الحقيقة رجلان فى مقتبل العمر، وأن الرجل فيما بينهما عملاق هائل الجسم.

قال الواعظ حينما وقف العملاق، إن رسالة الإنجيل يمكن أن تتعمق.

فمع الإحساس بالانتزاع الذى يمسك بأحشائها، شعرت "إيزا" بحجمه. لقد كانت حركة جسدية تشبه الجاذبية الأرضية. وظهر حتى أكبر لأن كل فرد كان راكعاً. كان يرتدى "الجينز" وقميصًا قطنيًا ملطخًا بالعرق، وجهه عريض مثل كف جاروف، وله شاربان جانبيان أسودان غير متساويين يتدليان أسفل فكه. ويغطى صدره ورقبته وحتى ظهر يديه شعر كثيف. وانحنى برأسه وألقى نظرة على الجمع.

قال الرجل، "بارثليمى" هو يتيم من أقصى الشمال. لقد عُثِر عليه وهو صبى تائهاً فى وسط عاصفة ثلجية. تجمد والداه حتى الموت، وفقط بسبب حجمه الضخم وقوته الهائلة، وفى الحقيقة بسبب إرادة الله، لم يهلك. ولسنوات لم يجد بيتاً يأخذه ويرضعه. لقد كان يُرعب الناس. كما لم يكن قادراً على الكلام. واعتقد الأطباء أن البرودة قد أتلفت

أحباله الصوتية، أو أنه ربما الرعب غير العادى من رؤيته لوالديه يموتان قد صدمه صدمة ألزمته الصمت. حينما قابلته كان مازال يجهل القراءة والكتابة. فأخذته معى، وبفضل الكتاب المقدس والأناجيل الحقيقية للمسيح يسوع الرب المخلص، تعلم القراءة. إن هذا الطفل كان يبحث عن بيت، وكرجل وجده فى كلمة الله.

حتى ذلك الحين، بدا الجمع مهتماً بما يكفى، لكن العيون الآن تسمرت على العملاق الذى خطا إلى الأمام فى تردد، كل يد من يديه كبيرة مثل رأس رجل.

قال الواعظ، إن "بارثليمى" سوف يمر فيما بينكم. يبحث عن مساعدتكم حتى نستمر فى مهمتنا. وأخرج الواعظ حينئذ كيساً من اللباد من سترته وسلمه للعملاق الذى انسحب فى استخفاف يتلفت حوله، لقد اتضح خوفه الآن، وكانت عيناه كحيوان برى. واستطاعت "إيزا" أن ترى موجات الانفعال العاطفى والقلق تسرى فيما بين الحشد.

قال الواعظ، كن هادئاً يا بنى. فلتسع إلى الكرم المسيحى فيما بين هؤلاء المواطنين الطيبين.

كانت "إيزا" مذهولة من أن مثل هذه الأشياء مازالت تحدث. فالناس قد أفرغوا ما فى جيوبهم. إن الطريقة التى جذب بها العملاق فمه وشده بخوف عصبى وحول نظره وهو يحمل الكيس الذى لمسها به. وفقط حينما وقف عندها وأعطته بضعة دولارات، شعرت بعنصر التهديد إلى درجة أنها لم تكن ترغب

فى أن تعرف ما هى الحدود التى يمكن أن يصل إليها هذا الخوف.

وبدأ الواعظ بعد ذلك فى موعظة مطولة. ومضى الرجلان الصغيران فى الشاحنة فيما بين الحاضرين ليهمسوا بالصلوات. وتلقت "إيزا" وكررت ما أُملى عليها، ثم صلوات أخرى ألفتها فى حينها، وابتهلت فى صمت، وعيناها على العملاق.

وهطلت الأمطار فى ذلك المساء، فأخمدت النيران فى المرعى المجاور، وحينما هبت الرياح، بدأت الحشرات تطن وتنطلق من الرماد تدور حول نفسها، ترتفع إلى السماء التى غسلها ضوء القمر. وجلست "إيزا" فى المدخل. كان "ليفون" قد جاء من النهر مبكراً. أصبحت مراقبته التأملية عرضية متقطعة الآن، هى فى الأكثر وسيلة للمحافظة على المظاهر. وتكلم قليلاً عن بحث جديد عن الهندسة البيولوجية التى دحضت التطور، وأظهرت أن كل نبات وكل شىء يمشى قد خُلِّق ثُم وُضِع على الأرض كما لو إنه قد وُضِع فى غلاف للعرض. أنصتت، ابتسمت، وانصرف هو إلى غرفته. وانطفأ نوره بعد ساعة على وجه التحديد من الموعد الرسمى لغروب الشمس، "الأكثر" ملاءمة - ما أحب أن يقول - والأكثر تناغماً مع تتابع دورات اليوم. لقد انتظرت، ثم ذهبت وأخذت معها حقيبتين من متعلقاتها الخاصة من غرفة مكتبها.

كان الطريق يتلألأ، وحينما عبرت إلى المرعى، تثاقلت ساقاها المسرعتان من الرطوبة. كان أحد

الرجلين الصغيرين يلاعب النيران، وتحول الآخر الذى أخذ جيتاراً يعزف عليه ويغنى بنعومة، المسيح. ثم ظهر "بارثليمى" من اتجاه الغابة، ذراعاه محملان بالعصى.

نادت حينما ارتفعت النار فى الأخشاب الخامدة، مرحبًا. الرجل الذى يتشح بالسواد لم يكن هناك، فقط الرجلان اللذان ذهبا فيما بين الجمع يقدمون الخلاص، يجلس أحدهما على مقعد من البلاستيك والآخر على تخت صغير.

قال كلاهما، مرحبا، بارك الله، وكلمات الشكر كلما مررت الكعك عليهم، وغنى أحدهم. أخبرها، "من أجلك" - عن "الجليل". لكن "بارثليمى" جلس فى الباب المفتوح للشاحنة وبدأ يقرأ من نسخة من الكتاب المقدس بالية الصفحات، على الرغم من أن كل كعكة تمر فى طريقه يلتهمها، فإنه فقط حينما وقفت بالقرب منه تحمل الحقيبة، نظر إليها نظرة تحمل تعبيراً خفياً، إن لم يكن لا مبالياً.

أخبرتهم، أنا "إيزا".

قال عازف الجيتار، اسمى "آندرو"، شاب صغير له وجه شاحب جعلته أضواء النيران وجهاً هيستيرياً. وقدم "موريس" الآخر، ثم أشار وقال، هذا "بارثليمى". نحن فى المدينة منذ ما يقرب من أسبوع. سوف نقيم القداس فى يوم الأحد هذا فى الكنيسة البابوية ماقدونيا السفلى. يجب أن تأتى.

وأخبرتهم، سأفعل. فما تعملونه هو شىء رائع. حسناً، إلى اللقاء.

لوحوا لها وقالوا، الرب يبارك مرة أخرى الشباب ذوى الوجوه السعيدة جداً، وعلى الرغم من أن العملاق ألقى عليها نظرة طويلة إلى حد ما، إلا أنه ظل غير مهتم.

وفى هذا الأحد فإن الرجل المتشح بالسواد - قدمه الكاهن، "ريفيرند دايموندستون" - قدم أكثر الشعائر إقناعاً وغرابة يمكن أن تتخيلها "إيزا" عن أعلى مراتب الملائكة، والدمار الذى يسببه ارتكاب المعاصى الجنسية، وحكايات الشخصية عن الفشل والفقد وأخيراً الخلاص، وكيف تحول من رجل خطيئة إلى رجل دين. وحكى عن حلم، تسلق فيه ممرًا جبليًا ضيقًا بسيارة شيفر ٥٧. كان كل شخص فى السيارة يضحك بشدة، حتى أنهم استطاعوا بالكاد أن يرفعوا رءوسهم.

قال، ثم نظرت إلى أعلى، وكانت هناك شاحنة سوداء ذات ثمانية عشرة عجلة تنحدر إلى أسفل على هذا الطريق، وانطلق بوق التنبيه مرة تلو الأخرى متسارعاً، ولم يكن هناك مسافة يمكن ننحرف إليها. واستيقظت على صوت آلة التنبيه، ورأيت الملاك "ميكائيل". فعرفت حينئذ أنه ينبغى على أن أترك ثروتى لمملكة السماء.

وبدأت الأمطار تهطل ثانية، وتنقر على السطح المدبب. ودامت خلال حفل الشواء والإنشاد الجماعى وابتهاج المصلين الذى سوف ينتهى بدون شك بصلوات ضوء النجوم بدونها. وكانت الآلات الموسيقية والأناجيل محفوظة تحت المعاطف، وابتل الخبز

الأبيض بالماء، وسال حساء اللحم، والنيران تطقطق مثل المشاهدين الغاضبين.

وعلى الرغم من أن "إيزا" قد حاولت أن تناور لتقترب بنفسها من "بارثليمى"، إلا أنه ظل قريباً من "دايموندستون" - الأمر الذى لم تعد تصدق أنها تتخيله - الذى كانت عينه عليها من مسارها من البوفيه إلى طاولة المنتزه إلى مدخل الكنيسة حينما تساقطت الأمطار، لتثقب الأرض الرخوة. وربما كانت ستسرع إلى العودة للبيت، ما لم تر أن العملاق كان يراقبها أيضاً.

وفى الوقت نفسه الذى تجمع فيه حشد المصلين حول "دايموندستون"، وتعجبت هى على سلطته، استطاعت أن تشعر به كما لو أنه يحتل المكانة الأعظم، يجتذب أنظارها بالطريقة التى لفتت بها أرملة سوداء على أحد الجدران نظرها حينما كانت تقوم بالتنظيف. كانت صلواته فى أوقات طويلة وبيزنطية، وفى أوقات أخرى بسيطة وعاطفية بشدة مثل الأغانى الريفية، لكنها دائماً بدت ملائمة. كانت لديه القدرة على أن يُدخل سطوراً هائلة من النصوص فى المحادثات العرضية.

فى المستقبل سوف نتحول إلى المسيح على أنه ارتباطنا الوحيد الأكيد بالماضى. وإلا فإننا سوف نضيع فى عدمية الزمن.

ليس الخوف من أن الأرض سوف يغزوها غرباء من غير البشر، بل إن الخوف كل الخوف من أنه مع

التكنولوجيا نحن نتحول إلى ما يشبه الحشرات تماماً نغزو أنفسنا.

وعند سماع تأييد المناصرين لـ"دايموندستون"، شكت "إيزا" فى نواياها. فقد كانت مثقفة، تزوجت زواجاً ظاهرياً، وكان "بارثليمى" أبكم، ربما نصف مجنون فيما بين الصحبة الروحانية المعتوهة. لقد كانت لديها انسحاقاتها، مرة بروفيسور فى برج عاجى، وفى مرة أخرى أحد لاعبى الكرة الذى رأته أخيراً مع صديقته راكعاً على ركبتيه. فهى لا تمر برجال كبار بدون أن تلقى بنظرها، فى محلات الأقسام أو فى الشارع، تقيس وزنهم، تطابقهم على حالها، تضعهم فى مقابل "جودى". كان "بارثليمى" شخصاً لم تر مثله من قبل.

وفقط فى إحدى المرات استطاعت الاقتراب منه. هبت السحب مؤقتاً على الماضى، وضوء الشمس يلمع فى السماء فى وقت متأخر من بعد الظهر، كما لو إنه نسيج العنكبوت قد أطبق على قطرات المطر. ومشى المصلون يعبرون المرج العشبى، يتناقشون فى السياسة والنشوة، وحتى الأسلحة النارية، على الرغم من أن الموضوع المفضل القداسة الأبدية للزواج وما يهددها. كان "دايموندستون" يعمل مع الجمع مثل مصلح اجتماعى، وتعجبت ما الذى يرمى إليه. ثم ترددت على الأرض أصداء رعد هائل لعاصفة تقترب.

لقد نفد صبرها تقريباً. كانت تنصت فى دائرة من المناقشات تلو الأخرى، وقررت أنه حان الوقت

لتذهب. لكن الأمطار هطلت فجأة، وبينما جرى الآخرون إلى المدخل، وجدت نفسها تحتمى أسفل المبنى. وفى الثانية التى تليها، خطا "بارثليمى" إلى جوارها.

لقد حجزهما انهمار المطر. بدا كما لو إنهما يقفان فى حجرة مستديرة لا نوافذ لها. فتح يديه وأغلقهما، لم تكن رائحته المتعفنة تشبه الحقول الجافة فى الدقائق الأولى من الانتظار الطويل للمطر. لم يعد يبدو عليه الخوف، فنظرته تميز وتراقب.

قالت، أنا "إيزا".

التمعت عيناه فى ظلام المياه المتساقطة. كان رأسها يصل بالكاد إلى حدود كتفيه، وفكرت فى حجم القلب الذى يمكن أن يكفى مثل هذا الرجل ويقدر على أن يضخ الدماء خلال هذا الجسد الضخم جداً. ما الذى سيحتاجه هذا الجسد؟ وتساءلت فى حيرة ما الذى يمكن أن تقوله أو تفعله، لكنه كان بالفعل يستدير ويمشى خلال جدار المطر.

فى هذه الليلة، استيقظت "إيزا" فجأة. لقد كانت تحلم بـ"جودى"، على الرغم من أنه لم يأت بصورة واحدة، فقط الإحساس بالحجم الهائل، الطريقة التى يمكن أن يتذكر شخص ما الجبال حيث وُلِد. لقد استغرق منها الأمر لحظة راقدة فى سكون الظلام قبل أن تتأكد أن هناك شيئاً آخر قد أيقظها، وليس الحلم. كانت الليلة ساكنة ولم تكن ثَمَّة رياح، وأصغت حتى

سمعت صوت صرير منخفض فى المدخل أسفل نافذتها. نهضت وأطلت بحذر. وبعد ثوانٍ قليلة، تبدلت مجموعة صغيرة من الظلال بالقرب من الطريق العام. كان دب أسود يشمشم حول الصندوق الذى تضع فيه القمامة. فأغلب الظن أنهم فى الربيع ينزلون من الجبال، جائعين بعد الشتاء. لابد وأن هذا هو أول ما بدأت فى التفكير به. لكن عندما رقدت فى فراشها مرة ثانية، مرت ساعة أخرى وكانت الواحدة فى الصباح قبل أن تعترف لنفسها بأنها غير قادرة على النوم. فالخيول قد بدأت تصهل فى المرعى، وعلا صوت حوافرها بشكل غير معتاد وهى تضرب الأرض. فنهضت وارتدت ملابسها ونزلت إلى المدخل. كان الدب قد ذهب، وعبرت الفناء إلى الإسطبل. وبمجرد أن اقتربت من الباب اشتمت حرارة جسد آخر. كانت فى اتجاه الريح للدببة بعد السبات الشتوى، ومن ثَمَّ فقد فكرت فى ذلك. لكن حينئذ اتضح كل شىء.

استطاعت أن تقول، وهى تحاول أن تمسك بأنفاسها، ماذا تريد؟

أتى إلى ضوء القمر، كان طرفا عينيه شاحبين.

أنا "إيزا"، نطقت بحرص وهى تفكر فيما إذا كان ينبغى لها أن تهرب.

قال، أنا أستطيع الكلام، واقترب خطوة. كان وجهه هادئاً بما يكفى. أنا آسف لأننى أخفتك.

واضطرب قلبها فى صدرها. ما الذى تفعله هنا؟

لقد تتبعت النهر. كنت ذاهب إلى الغابة لجمع الأخشاب، ووجدت ممراً هنا. أنا بالفعل لم أقصد أن أُخيفُك.

قالت، وهو كذلك. فقد أفسح خوفها الطريق للمفاجأة، الشعور الذى يحبس الأنفاس بالمرح. وماذا عن الفرنسية؟ هل تتحدث الفرنسية؟

لا.

هل... هل تجمد والداك بالفعل حتى الموت؟

قال، لا، ونظر بعيداً. وحينئذ توقفا فقط لا ينظران إلى بعضهما البعض تماماً.

سألت، منذ متى وأنت... مع الكاهن؟

سنة، أو نحو ذلك. هكذا أخبرها وحرك شفتيه كما لو أنه يريد أن يقول المزيد.

أليس هذا نوع من عدم الأمانة أن تدعى أنك يتيم فرنسى أبكم أو أى شىء من أجل كسب المال؟

أنا عملاق. إلى جانب أن هذا من أجل قضية نبيلة.

حاولت أن تفكر فى شىء ما آخر تقوله، لكن الطريقة التى واجهها بها لم تكن تحمل اهتماماً. كانت خائفة من أنه على وشك الذهاب. سألت، هل أنت جائع؟ بصرف النظر عن أنها هى نفسها كانت جائعة، فالأرق والأدرينالين فاتحان قويان للشهية.

قالت، "بارثميلى".

وصحح لها، "بارت". تستطيعين أن تناديني "بارت". أنا جائع. أقصد ربما آكل شيئاً ما إذا أنت فعلت.

حسناً، هل تنتظر هنا؟ أنا ذاهبة إلى المنزل. سأعود بعد دقائق قليلة. نستطيع أن نأكل فى الإسطبل.

وشعرت من الداخل بالدوار، كما لو إنها سوف تنفجر فى أية لحظة فى الضحك، رغم أنها كانت مرعوبة. وأخذت من المطبخ كيسين من الحجم العائلى من الحبوب والبطاطس المقلية، وثلاثة برطمانات من الصلصة وثلاثة علب من لحم "رافيولى" الإيطالية. وأخذت من الثلاجة نصف كرة من الجبن الإيطالى المدخن، والخبز الفرنسى المحمص مدهون بزبدة الثوم المتجمدة. وبهدوء على قدر ما استطاعت، وضعتها كلها فى حقيبة البقالة. وأضافت وعاء من حلوى أصابع الست الإيطالية من الشيكولاتة، والجبن الجاف، وزجاجة لترين من الجعة الخام. وفى طريقها إلى الخارج انتزعت كيساً من الشيكولاتة المغطاة بحبوب البن.

وبدأت تشعر عندما عبرت الفناء بكثير من السخف، ولكن بعد نصف ساعة تساءلت فيما إذا كان ينبغى أن تعود إلى المطبخ، فلم يتبقى إلا القليل فقط من الجعة الخام. كان لديها فى المطبخ لوح للتسخين، وهى قد سخنت فطائر اللحم الإيطالية. كانت متعجبة

من السهولة التى انخرطا فيها فى الحديث حينما شرعا يأكلان.

سألت، من أين أنت؟

"مان". الأصل من "مان".

وانتظرت سؤالاً منه، ولكن حينما لم يأت، أخبرته أنها قد درست تاريخ "مان" فى جزء من بحث التخرج.

سأل، هل تقرأين كثيراً؟

ابتسمت. أى عذر هو جيد.

ما كتبك المفضلة؟

وذكرت القليل من الكتب بعصبية، وهى تحاول أن تفكر فى شىء ما لا يكون كلاسيكياً.

قال، أوه، اعتدت أن أحب "توماس وولف" و"كيرواك". أنا الآن لدى فقط الكتاب المقدس لفترة الآن.

وبينما تراقبه وهو يأكل بسرعة وبدون وعى وبنظرة شاردة، فكرت فى "جودى"، لكنه على العكس من "جودى" كان يتحدث تقريباً كأنه فى حلم. وعلى ضوء مصباح واحد، درست ملامحه العميقة. بدا أنه سهل الانقياد جداً بالنسبة لحجمه. كان شعره مقصوصاً بشكل غير دقيق، وأرادت أن تلمس أطرافه الحادة الخرقاء التى صنعها المقص، وتشعر بملمسها على يدها.

إنه لم يخبرها على وجه التحديد بما فعله فى حياته كثيراً، فلم يعدد لها رحلاته، والكتب التى

قرأها. لقد بدا أنه كان فى كل مكان، وأنه قد ضاع فيما بين الأسماء والأماكن، وكرر نفسه كما لو إنه سافر على الطرق نفسها الكثير من المرات. لقد تحدث كثيراً، وهى قد اعتبرت أن ذلك يرجع إلى أنه مضطر إلى الإدعاء بأنه أبكم، ومن ثَمَّ فقد خزن سنوات من الأحاديث.

وبدورها أخبرته عن دراساتها، التاريخ الذى أعادت بناءه بدقة. لقد أذهلها دائماً السهولة التى وصفت بها الأحداث التى لم تعشها فى حياتها، على الرغم من أنها أثرت بدون شك على وصول عائلة "بارت" إلى الولايات المتحدة كما أخبرته. قالت إن السكان فى "كيبيك" كانوا سيتضاعفوا ما لم تكن هناك الهجرة. لم تقل إنها لم تكن هناك أبداً.

وفى هدوء الإسطبل، بدلت الخيول من وقفتها أو صهلت بما يشبه الضحك بنعومة. وتوقفت فترة طويلة، غير قادرة على أن تذكر "جودى" بالاسم، خوفاً من أن كل هذا بشكل ما قد يقود إلى الرجوع إلى الحديث عن "ليفون".

وسلك "بارت" حنجرته. وبصوت خافت قال، إن أمه قد أعطته كتباً عن الامبراطورية الرومانية حينما كان صبياً، وكيف أنه أعتقد أن هذه الأماكن مازالت موجودة فى مكان بعيد جداً.

سألت "إيزا"، هل أنت قريب من أمك؟

لم يتكلم فى البداية. قال، أحياناً، أعتقد أننى

أقرأ فقط لأعرف ما الذى يمكن للمرء أن يصير إليه. وربما لا أفهم بالفعل ما الذى أقرأه. أنا أفكر فقط فيما يمكن أن تعنيه لى. يشبه الأمر كما لو إننى سأقرأها كلها مرة أخرى، حينما أعرف أكثر.

لم تكن متأكدة ما الذى ينبغى أن تقوله. لقد جلسا مستندين إلى الجدار. لقد أدهشها هذا الاستطراد. ونظرت متفحصة. إنه يضم قبضتيه إلى حجره.

أخبرته، نعم أنا فكرت فى هذا من قبل، وفكرت كيف أن الإدراكات الحسية البسيطة من أفواه الرجال الأقوياء لها تأثير الشعر.

وفى وقت ما من الليل قال "بارت" إنه يحتاج أن يذهب قبل أن يُلاحظ غيابه، ودعته أن يأتى مرة أخرى الليلة القادمة.

نظر إليها وتردد. قال، وهو كذلك، ولكن ليس متأخراً جداً.

هذا جميل. يا... أبى لا يزعجنى حينما أكون فى الإسطبل. سوف أقابلك هنا. سوف أحضر طعاماً أشهى غداً. لكن لا تدع أبى يراك. فهو نوع خاص. وشرحت فى غموض شيئاً ما عن التعصب.

كان الإسطبل يتوارى خلف الأشجار، ونافذة الحجرة الملحقة تواجه الجبال، وشعرت "إيزا" بالثقة من أن "ليفون" لن يلاحظ أى شىء. لقد عاشا طويلاً جداً يتناسيان بعضهما البعض، ومنذ أن بُنى

الإسطبل، كان هناك اتفاق صامت على أنها هى وحدها تذهب إلى هناك. وكانت الغرفة الملحقة لها مطبخ صغير وأريكة لها سرير يُطوى. لقد كانت ملجأها، وعطرها والصمت المألوف الذى يستدعى الحياة التى هجرتها مع "جودى".

إن كذب "إيزا" فيما يتعلق بأبيها، كان يثقل عليها خلال الفجر وإلى النهار التالى. وحرصت على أن تنام قليلاً فيما بعد الظهيرة، وفيما بعد قادت سيارتها لمدة ساعة إلى الضواحى المبنية بالقرب من "دى سى". وتوقفت عند عدة مطاعم تبيع الصوانى المرصوصة من الأطباق الصينية والأسماك اليابانية والحساء التايلاندى بالتوابل الموضوعة فى أوانٍ عازلة وأكياس من أقراص الخبز، وكذلك بالمثل الكعك المحشو باللحم والجبن والحبوب المطحونة والكعك المحشو بلحم الدجاج والجبن والفلفل الأحمر الحار. ومن المخبز اختارت فطيرة البيض بالليمون، وكعكة أسفنجية، وستة أصابع شيكولاتة، وبعدها توقفت فى محل البقالة من أجل الصودا والحليب. وأخذت الأشياء كلها إلى الحجرة الملحقة فى حقيبة التغذية.

وجلست فى مكتبها فى الوقت المتبقى فيما بعد الظهيرة، وحاولت أن تقرأ، لكنها لم تستطع التركيز. ما الذى تريده من "بارت"؟ ولماذا كان هو مع "دايموندستون"؟ والغريب - المدهش - أنه لم يذكر الدين على الإطلاق.

وقبل الثامنة بقليل، ذهبت إلى خلف الإسطبل وجلست تحت غطاء الأشجار. وحينما وصل إلى

هناك، جاء من اتجاه النهر على ممر الغابة نفسه الذى يسلكه "ليفون". لقد بدا عصبياً، ومسح كفيه المبللتين بالعرق فى ساقيه وهو يلهث. وفقط بعد أن أكلا، انهمك فى آليات الحديث.

أخبرها، لا أستطيع أن أصدق كل هذا الطعام.

قالت، إن الحياة الروحية لا يجب أن تكون... انغماساً مفرطاً فى الملذات.

لم يعلق على هذا، لكن الطعام تلاشى سريعاً، أكوام من العلب الصفيح الملطخة بالشحوم والأوعية من المواد العازلة على الأرض. آثار الأصابع على علب الكعك الكرتونية. وبعد نصف ساعة من الطحن والمضغ والشرب والتجرع يعقبها صمت عام ومغالبة التجشؤ، جلس كلاهما فى الخلف وطافا بناظريهما، ولفا فى المكان ليستخرجا ما فى أحشائهما. واحتفظ "بارت" بلترين من الشراب. ولوى قبعته وترك الهواء يتسرب من تحتها. وطواها وثنى حافتها قليلاً وجعلها تصدر أزيزاً. وأخذ الشراب.

سألت، كيف قابلت "دايموندستون"؟

قال، لقد كنت أعيش فى لويزيانا، وابتلع لعابه. كان لدى جيتار ومكبر صوت، وبعتهما حتى يستطيع "دايموندستون" أن يصلح شاحنته.

ورأت أنه كان يبدو فخوراً مثل طفل، لكنه قَوَّس حاجبيه. لقد كنت أفكر فى كل شىء قلتيه عن عائلتك وعائلتى. هذا صحيح، أنت تعرفين. كانت أمى تسمى

"آمى بيولا". إنها مثلما قلت. الكثير من الناس فى "مان"، أسماؤهم الأخيرة فرنسية.

هل مازالت عائلتك تتكلم الفرنسية؟

البعض منهم. جداى يتكلمانها.

أرادت "إيزا" أن تقول شيئاً ما عن "جودى". تمنت لو إنها لم تكذب.

أضاف "بارت" أن "كيرواك" من "مان"، لقد قرأت فى مكان ما أنه تكلم الفرنسية قبل أن يتكلم الإنجليزية.

بدأت الأمطار تسقط ثانية، صوت طقطقتها يملأ الفراغ. "كان لدى "إيزا" الشعور بأنها هى التى اخترعت "بارت". كانت تنظر عليه حينئذ، تعبيراته حينما يتكلم، الخطوط والزوايا من لحمه الأحمر. كانت ملابسه ممزقة ومهترئة، واستطاعت أن تتخيلها تحمل شكله بعد أن يتم غسلها، بالطريقة التى كان عليها "جودى".

سألته، هل كل فرد فى أسرتك ضخم مثلك؟ قال، بعضهم، كان أبى كذلك. وكانت أمى ضخمة إلى حد كبير أيضاً. إننى أتذكر حينما بدأ نموى يتدفق. لقد كان ذلك مؤلماً أكثر مما يمكن أن تتخيلى. أخبرتنى أمى أننى إذا استحممت سوف يذهب الألم، وربما بسبب أننى أصدقها، فقد فعلت. وهكذا فقد كنت أعتقد كذلك أنه حتى الوقوف فى المطر سوف يساعدنى. كانت تخرج معى، وكنا فقط نقف هناك.

هل تفتقد عائلتك؟ هل تسافر هكذا؟

ونظر إلى أعلى. أمى ماتت. أنا لم أعرف فى الحقيقة أبى أبداً. أنا أقصد، لا، لم أعرفه أبداً.

كان لدى "إيزا" الانطباع بأنه كان فقط يفكر فى المشاركة فى هذا وربما لم يفعل. فكرت فى كل شىء لم تخبر به أى أحد.

قال، لقد ربانى الأقارب. أنا مازلت على اتصال معهم.

بدا أنه يتردد فى اختيار كلماته. وتنحنح. أتذكر جيداً أوشام أمى. كانت تدعنى أنسخها على الورق. أتذكر حينما علمت أننى لدى روح. تصورتها مثل الوشم بالضوء الأزرق تحت جلدى.

أرادت "إيزا" أن تخبره عن "جودى"، لكن بدلاً من ذلك تحدثت عن أمها. قالت، إننى لا أعرف شيئاً عنها. أبى ربما لم - ربما لم يتحدث عنها. الشىء الوحيد الذى أخبرنى به هو أنها كانت... شىء ما آخر.

جنس آخر؟

لا... لا، لا أعتقد ذلك. أقصد، أنا أعتقد أنها كانت فرنسية سوداء، ربما.

كان "بارت" يراقبها. لاحظت التبدل فى اهتمامه، هذا، أيضاً، يشبه ذاكرة "جودى"، نوعاً من الضغط الجوى.

قالت، حينما كنت فتاة، اعتقدت أن أحاول أن أفهم ماهية الأم. كنت أقف أمام المرآه، وأفكر لو تطول قامتى بما يكفى، فإن جزءاً من انعكاسها قد يبرز، وربما أراها.

وحملت الريح الأمطار عبر السقف بنبضات بطيئة.

سألت فى النهاية، لماذا لا تعرف أباك؟

ظل "بارت" صامتاً فترة أطول. تركته أمى حينما وُلِدت. لقد رأيته مرة واحدة فقط فى الشارع حينما كنت مع زوج أمى. كنا نتسوق فى "الكريسماس"، حينما بدأ رجل متشرد عملاق يتتبعنا. وبعد أيام قليلة انتقلنا إلى "داكوتا" الشمالية. لقد استغرق الأمر منى سنين لأكتشف أن هذا الرجل كان أبى.

وتنحنح "بارت" ليسلك حنجرته بتعمد السعال. قال، إن "دايموندستون" قد أخبره ذات مرة أن الألم يبدو حقيقياً لأن الحب الإنسانى لا يدوم. فالقوة الأعظم من معاناة الألم هى حب الله.

قالت، أوه... كيف ماتت أمك؟

ماتت حينما كنت فى التاسعة.

وتوقف فترة طويلة جداً، حتى أنها تأكدت أنه لن يضيف شيئاً إلى ما ذكره بالفعل. وتلفت حوله. يجب أن أذهب.

الآن؟

الأمطار قد خفتت. بدا الأمر كما لو أنهما يعودان إلى أنفسهما، يعود صوتيهما إلى الجسدين الضخمين اللذين يستندان بشكل غير متساوٍ على الجدار.

قال، إنني آخذ جولات، لكن أبداً ليست بهذا الطول. سوف يلاحظ الآخرون.

ووقف، ومضى إلى الباب. هل يمكنني أن أراك غداً؟

مرة أخرى؟ قالتها بسعادة على الرغم من أنها لم تقصد، فقالت الآن، بالطبع. نعم. بالطبع أنا أحب ذلك. وسوف أحضر المزيد من الطعام.

ولفترة بعدما ذهب، بدا الإسطبل خاوياً، ثم بالتدريج مدت الجاذبيات المعتادة نفسها، واستعادت وجودها الضاغط، الجياد والمقاعد التى احتلاها خلف القواطع الخشبية.

جذبت نفسها إلى أعلى. وشعرت بجسدها عجوزاً. وبالخارج كانت مندهشة من أن أنواراً كثيرة كانت فوق البيت. "ليفون" لا يبقى حتى هذه الساعة المتأخرة. وحينما كانت تتسلق الدرجات، رأته فى غرفة المعيشة. توقفت. كان يجلس مع شخص آخر، وعلى الرغم من أنه كان واضحاً، السواد والوجه الشاحب والشعر الأبيض، إلا أن الأمر استغرق منها لحظة حتى تتأكد. ضم "دايموندستون" قبعته إلى حضنه. كان ينظر للخارج نحوها، يبتسم كما لو كان يتوقعها.

ونادى "ليفون" قائلاً، "إيزا"، حينما فتحت الباب الأمامى. تعالى هنا من فضلك. أريد أن أقدمك إلى الرجل الفاضل الذى كان يخبرنى بمعظم الأشياء الساحرة.

فيرجينيا
مايو ١٩٩٣

حينما وصل "بارت" فى هذا المساء، توقعت "إيزا" أنه يعرف كل شىء. ففى الليلة الماضية مكث "ليفون" و"دايموندستون" يتحدثان طويلاً بعد أن ذهبت للنوم، وطوال اليوم التالى سعى "ليفون" إليها ليخبرها عن محادثتهما العظيمة. كرر، العظيمة، فى الحقيقة تواصل رائع. مقابلة عميقة بين عقلين.

قال، إن "دايموندستون" قد تعرف عليه كناسك وباحث عن الحقيقة. وشرح التفسيرات الغريبة المختلفة لـ"دايموندستون" عن مأزق الإنسان، وأرادت "إيزا" أن تصرخ، ليس بسبب عبثية كل هذا، لكن بسبب الحالة البائسة التى كانت عليها حياتهما. وحدة "ليفون"، رغبته فى أن يتحدث إلى أى شخص آخر.

سألت، ونحن؟ متظاهرة بالجهل فيما يتعلق بـ"دايموندستون". هل سأل علينا؟

لا. لماذا؟ هو أراد ببساطة أن يناقش رسالة الله إلى الأرض، والطرق الكثيرة التى يبعث بها برسالته.

كررت "إيزا" مؤخراً لنفسها وهى على عجلة القيادة فى سيارتها، رائع، حتى أثناء إعداد العشاء الذى لم تكن متأكدة أنه سوف يؤكل - همست لنفسها، رائع، حيث كانت هى الكلمة التى وضعتها مكان كلمة عظيمة. عند نقطة معينة فى الرحلات التى عددها "بارت"، ذكر لها أنه أحب كل شىء يتعلق بـ"لويزيانا"، وخصوصاً فنون الطهى فيها، ومن ثَمَّ فقد قادت لمسافة أربعين دقيقة لتجد مطعماً للفرنسيين المنحدرين من كندا، وطلبت معاينة قائمة المأكولات: طاجن جمبرى بالأرز، وأرز أسمر، والفطائر الفرنسية، ولحوم الزواحف المتبلة الحارة، وطبخة مأكولات بحرية، وسرطان البحر "لافيتى"، مع جالونين من حساء أسماك المياه العذبة مغلية مع حبوب الذرة بالقوالح وشرائح بطاطس رقيقة صغيرة حمراء بالتوابل. رائع، هكذا قالت للصبى على طاولة البيع حينما عرض أن يحمل الصناديق إلى سيارتها، على الرغم من أنها لم تكن موقنة من أن "بارت" سوف يأتى ليساعدها فى أكله.

لكن حينما جاء لم يذكر على الإطلاق "دايموندستون". شكت فى بادئ الأمر. إنها لم تكن تثق فى "دايموندستون"، وتعجبت كيف أن "بارت" لم يستطع أن يعرف عن زيارة الليلة السابقة مع "ليفون". وحينما أكلا، تقدمت محادثتهما من حيث توقفت: تحدث عن عائلته، ووجدت نفسها مترددة فى أن تثق

فيه، وسرعان ما تخبره بأنها لا تستطيع أن تخبره إلا القليل بما يتعلق بنفسها، وعلى هذا فعليه أن يستمر. وعلى الرغم منها نفسها، أحبت قصصه، والكيفية التى تصبح بها الإنجليزية على شفتيه لغة قديمة، مليئة بالتنهدات والوقفات الطويلة. وصف العشيرة المتشابكة، وتجمعات الإجازة، والطفولة الهادئة. أخبرها أن عمره السادسة والعشرون، لكنه بدا أكبر.

قال، مازالوا يريدوننى أن أعود. هذه هى الكيفية التى هم عليها. وربما سوف أفعل فيما بعد.

وشرح، كيف أنه اعتقد حينما كان صبياً أنه هو ووالداه قد رحلوا بسبب أوشام أمه. كان زوج أمه محاسباً، رجلاً تقليدياً إلى أقصى درجة، وتزوج أم "بارت" بصورة غامضة، حينما عادت إلى البيت بعد سنة من الإقامة فى بوسطن ومعها عشرات الأوشام ومولود حديث. ومن بين ذكريات "بارت" المبكرة، كانت هناك المطالبات المتكررة بأن تلبس بصورة مختلفة. فالقمصان الضيقة تبرز وشم شخصية خيالية لأحد الجان "تنكربيل" بالأسود على صدرها. وحبل ممزق على ذراعيها، وقلب من الثلج الذائب فى زهرات حمراء دموية على أحدى الكتفين.

ولم يكن زوج أمى يشتكى كثيراً جداً فى وقت الشتاء، لأنها كانت ترتدى كمية من الملابس، لكن... وتوقف "بارت"، يحملق فى عوارض الاسطبل الخشبية السوداء.

وكان هناك... كان لديها وشم على رسغها. ربما كان هو الوشم الذى كرهه زوج أمى بالفعل. كان مجرد كتابة لكنها تقول، "بارثليمى". هذا كان اسم أبى. كنت أظنه اسمى.

عرفت "إيزا" أنها إذا أخبرته عن "ليفون" أو "جودى" سوف يفهم. لكن التاريخ الذى شرحته الليلة الماضية، لم يكن يعنى شيئاً - الاستعمار والمستوطنات والحروب والاستسلام. لم يلمس حياتها أى منها: الكنيسة بظلالها التى ربما تعلن رسالة السماء، أنه يتعين على "كيبيك" أن تحافظ على الكاثوليكية، وإلا سوف تضيع فى فرنسا - مجتمع زراعى وتضع أوعية المحافظة. ومازالت تجد نفسها مرة أخرى تتحدث عن الكيفية التى انتهى بها الكنديون الفرنسيون فى "إنجلترا الجديدة". ويصف هو بدوره الاحتفالات الصيفية والمغنين الذين أتوا من أعلى الشمال، واللغة المبتورة التى سمعها من الأجداد.

قال فجأة، لم أذهب إلى قبر أمى منذ أن ماتت. لقد تزايد اعتياد "إيزا" على هذا، الطريقة التى يحول بها الموضوعات. حاولت أن تفك رموز المسارات التى اتخذتها هذه العواطف.

فكرت دائماً فى عودتى، لكننى لم أفعل أبداً حتى حينما كنت فى "لويستون". كان الأمر كما لو إننى لم استطع. لا أستطيع أن أفسر.

هل هذا هو المكان الذى أتيت منه؟ "لويستون"؟ لقد عرفت الاسم من كتب التاريخ. لقد كانت مهمة على الرغم من أن التفاصيل غير واضحة هنا.

وبعد صمت قصير، بدأ يتكلم عن الشتاء حينما رأى هو وزوج أمه الرجل الشريد، وكيف حزموا ورحلوا. وبعد أسبوع فى شمال "داكوتا"، وبينما كان زوج أمه فى العمل بسيارته، مشت أمه إلى المتجر من أجل الخبز ولم تعد ثانية أبداً.

وتوقف، مأخوذاً، كما لو كان يبحث خلال ما قد قاله. أخبر "إيزا" أنه قد أمضى ليالى يحاول أن يتذكر، ويُغمض عينيه، ويرى الرجل المتشرد، المعطف العسكرى الأخضر الرث بمشابك تشبه خطافات الستائر، وتتكور حواشيه مثل أوراق الشجر المتساقطة. زعم أقاربه أنهم لا يعرفون شيئاً عنه. لم يستطع "بارت" أن يستعيد تماماً ملامح وجهه، رطوبته، الفم المغلق مع شارب ينمو عليه، وعينان سوداوين وقاسيتان. وخلال رحلاته، تفحص المشردين الذين قابلهم.

وحينما حكى عن كل ذلك، كرر التفاصيل فى الغالب. تكلم بمثل هذا الوضوح والعاطفة الفورية التى بدا كل شىء حديثاً: شركات التأجير المزدحمة، الرحيل تجاه الغرب، ليالٍ فى الفنادق الرخيصة. وبعد ساعات من ذهاب أم "بارت" إلى متجر الخبز، عاد زوج أمه إلى البيت شاحباً ومصدوماً. تجاهل أسئلة "بارت" وأغلق على نفسه حجرة النوم مع التليفون. فقط فى "مان"، أخبره جد "بارت" ما قد حدث. صدمتها كاسحة ثلوج. قبل ذلك، كانت هناك قيادة صامتة على الطريق: حقول مفقودة تحت الثلوج، مدن

بعيدة، تيار صاعد من الضباب. والغريب هو أن هذه هى التفاصيل التى لم يستطع "بارت" أن يكف عنها. أرض بقمم مشوهة حيث الطرق تجرى خلال العلامات الشاهقة لشركتى البترول "إيكسكسون" و"سيتجو"، مطاعم الوجبات السريعة، والمستودعات على الطرق المحولة. لقد احترقت فى ذاكرته، على الرغم من أنه لم يستطع أن يتذكر أسماء، فقط فراغ، تكرار، ذلك أنه لا يمكن أن يظل شيء ثابتاً فى بلد مندفع، سلاسل منسوجة من الأضواء المتلاشية، سهول زرقاء تتوارى عبر منحنى الظلام البعيد.

ووضعت "إيزا" يدها تلقائياً على عضلة رقبته. تنبعث منه رائحة العرق. قَبّلَته. تتدافع أفكارها. كيف ينبغى فعل ذلك؟ كان فعلاً أخرق وحذراً أيضاً، لكن أدهشها أنها لم تقبل أحداً من قبل على الإطلاق، فعلى الرغم من أنها تزوجت فهى لم تعرف الجنس، ضخم جداً أو وحيد أو غير قادر على التحدث إلى آخر. هل كان الحب شيئاً قرأت عنه دائماً وأصبحت مؤمنة به؟ وضعت رأسها على كتفه. فكت أزرار قميصه، وجالت بيدها على الشعر الناعم على صدره. فكت أصابع قبضته ووضعتها على جسدها. كانت أنفاسهما تلفح رقبتيهما. هى لم تفكر أبداً أن هذا سيحدث، اللمس أو السرعة التى سيحدث بها تلقائياً وبصورة غريبة، ثقل جسديهما، طبقة فوق طبقة من العضلات والدهون. أرادت أن تترك نفسها تتوقف عن التفكير. كان وجهه فى كتفها، وعيناه مغمضتان.

غرست أصابعها فى شعره. وفيما بعد رقدت إلى جواره. وكان الاسطبل غارقاً فى سكون غريب.

نهضا، وسارا فى الظلام البارد تجاه الممشى الأساسى. تدلى مصباح فوق البلاطات الأسمنتية حيث تُغسل الخيول. أمسكت بخرطوم المياه وتركت المياه الباردة تتدفق إلى مرفقيها. بدا كأنه رجل من عصر آخر، ملامحه الفظة، شارباه، الأنف بحلقتيه المنفصلتين، على شكل قلب. لمعت المياه فى شعره، عبر رقبته وكتفيه. أمسكت بضوء المصباح حتى بدا كأنها كانت تنظر من خلال جلده فى الشكل المضىء بداخله.

وعادا إلى الحجرة الملحقة، ورقدا على "مرتبة" فراش أخذته من على السرير المطوى ووضعته على الأرض. وفكرت إلى أين يمكن أن يقودها ذلك. بدت الغرفة مثل الكهف مع إيقاع تنفسهما. أغمضت عينيها. تحركت نسمة عكس الهواء الرطب. حلمت بالبداية: هى و"بارت" خلف نظارات سوداء، حقيبة قماش كبيرة مكدسة بالأوراق النقدية.

مكثا هناك حتى أتاح اللون الرمادى لما قبل الفجر لزجاج النافذة الملطخ بنظرة غائمة. وظنت أنه ربما استغرق فى النوم، لكن عينيه كانتا مفتوحتين. كان يحملق فى السقف.

وفيما بعد ارتديا ملابسهما، وسارت معه إلى المرعى. كان تيار الجدول مندفعاً، ووقفا من خلال الظلال عند الجدار الحجرى المنهار حيث كان "ليفون"

ينتظر دائماً. فكرت فيما عرفه "دايموندستون"، وفى أنها لم تسأل بصدق عن ازدواجية "بارت"، العرض الإنجيلى، والعملاق الأبكم.

إن قلبى ليس جوهره الدين بعد الآن، هكذا قال فجأة، كما لو أنها تحدثت وهو يرد عليها ببساطة. ومن الطريقة التى صدر بها صوته عميقاً، بدا كما لو أنه يبكى.

قالت له، ربما أكثر من ذلك.

وبطريقة ما، عرفت أنه لن يؤكد هذا، وأنه غير قادر على ذلك.

وفى محاولتها التفكير فيما تقول، تأكدت من أنها أسقطت شكوكها سريعاً جداً. إذ يبدو أن سحر العملاق قد أشبع اشتياقها. كانت ترى هذا بالفعل فى الماضى. قالت فى نفسها إنها نجت لأنها ابنة "جودى"، وأنقذت حتى "ليفون"، وشعورها بالمعصية، على الرغم من أنها هَرِمَت سريعاً جداً. ومن خلف الأشجار بدأ الضوء يتولد فى السماء. فكرت فى الكيفية التى يمكن بها أن تفتقد جاذبية الحضور.

وفى الصباح التالى، ليس بعد وقت طويل منذ أن أبلغ "ليفون" "إيزا" أن "دايموندستون" كان هناك مرة أخرى المساء الماضى، فقد عاد "دايموندستون". سمعت صوتهما الضاغط من خلال الأرضية، ونزلت إلى المطبخ لتسترق السمع، جائعة بصورة عصبية. وأعدت ساندوتشين من الدجاج المقلى فى شحم الخنزير،

والطماطم المرشوشة بالتوابل، والمايونيز الأصفر المنزلى المخلوط بالفلفل الأحمر. وعندما أعدتهما، أكلت واحدة من فطائر الجبن بالكرز من تحت الغطاء. وفى الحجرة الأخرى، كان "دايموندستون" يحاول أن يقنع "ليفون" أن ينضم إلى بعثته.

كان "دايموندستون" يقول إن هذا من الممكن أن يكون أساس الوطن، معسكر لإعادة التعليم وتدريب عقول الصغار. لقد أديت الرسالة طوال سنينى، فالله قد جاء بى إلى هنا. الله - هو الذى أحضرنى إليك، الرجل الذى عاش وحيداً لزمن طويل يتأمل. كيف يمكننى أن أرحل؟ هل كان كل هذا الذى فعلته من أجل أن تستطيع أن تقضى أيامك وحيداً فى منزل، هذا المنزل؟ وحيداً فى هذه الأرض التى أعطاها لك الله، تبذر حكمتك بدون منطق؟

وقال "دايموندستون"، وسامحنى على قولى هذا، لكنى لا أستطيع إلا أن أرى. مع زوجة لا تحبك، بل ببساطة تعيش على ثروتك.

رائع، دمدمت "إيزا"، فجأة بنهم وكله فى وقت واحد وهى تعرف أن "دايموندستون" قد بالغ فى بلاغته. لقد كان "ليفون" جشعاً، وبرغم كلماته الخيالية، فإن محور حياته لم يكن الحكمة بقدر ما كان المظهر - لتأخذ ما يستطيع أن يعرضه، الحكمة أو الثروة. وهكذا، وهى تلعق المايونيز بالتوابل من أصابعها وتلتقط قطع الدجاج من الخبز المحمص، انتظرت لما يمكن فقط أن ينتهى بصورة سيئة. لم يكن

الأمر أنها لم تقدر "دايموندستون" حق قدره. فهى حتى خافت منه. لقد كان الأمر ببساطة أن جشع "ليفون" كان هو الشىء الملموس أكثر. فقد كان لجشعه شدة الانتقام، وبالنسبة للناس الذين كانوا يسمونه لعقود بالمكسيكى، فإن معسكر المعيشة المسيحى مع كل مجده سيكون أمراً سخيفاً. فالأرجح هو أن "ليفون" قد وظف بالفعل الجزء الأخير من أجل ثروته أو الاختفاء أو الغموض. ربما هو قد دفن مبالغ ضخمة، كنوز القراصنة مدفونة حول المنزل كما هى على شواطئ جزيرة مهجورة.

وحينما غادر "دايموندستون" أخيراً، لم يكن "ليفون" فى حالة مزاجية عالية. لا شك فى أنه رأى شيئاً قد أحبه فى الصورة التى رسمها "دايموندستون" رفض أن ينظر على "إيزا" حينما ذهب إلى غرفته. ربما كان متفقاً مع تقييم "دايموندستون" عن جدارتها، على الرغم من أن "ليفون" لم يكن فى وضع يسمح له بأن يطرد رفيقته الوحيدة البائسة. مازالت هى غير مقتنعة بأن القصة انتهت. فسرعان ما سوف يعرف "بارت" من كان "ليفون". ربما قد عرف بالفعل. ربما لم يكن أى من هذا عبثاً، الأكلات التى ابتُلِعت فى الاسطبل، بينما الأسئلة العظمى عن الحياة ومصائر الرجال كانت تتقرر فى غرفة معيشة "ليفون". فالعملاق الأبكم قد لا يكون عمل "بارت" الوحيد.

فكرت فى الوجبة التى يجب أن تصنعها فى هذا المساء، لكن شيئاً لم يطرأ على ذهنها. وجدت مفاتيح

سيارتها وغادرت المنزل، لكن فى منتصف الممر المؤدى إلى الطريق، سمعت صوت سعال. كان "دايموندستون" يقف فى ظل شجرة سنديان، ذراعاه متقاطعان.

قال، مساء الخير، ونظر فيما وراء الفروع المتجهة إلى السماء. إذا لم يكن لديك مانع، فإننى أرغب فى كلمة معك.

فكرت، إنه من الغريب أن تراه على بعد خطوة منها، رأت كيف كانت هى ضخمة، كيف أنها إذا أرادت تستطيع أن تسحق عظامه ببساطة بالسقوط فوقه. ربما يحل هذا الكثير من الأشياء، وأى قاض سوف يجد أن ذنب الخطأ لامرأة كالبرج سمينة ـ فعل من عمل الله إذا فعلت.

مشى "دايموندستون" معها إلى السيارة، ثم تراجع خلفها، كما لو أن كليهما مدرك أنهما يحتاجان أن يضعا مسافة أكبر فيما بينهما و"ليفون" بقدر الإمكان. وتوقفا حيث مدرج ممر يفضى إلى المرعى المنحدر الذى يقع خلفه النهر، وعلى مسافة منه الشاحنة تقف عند نهاية الحشائش على المشى.

قال "دايموندستون"، أخبرنى الولد بكل شىء.

الولد؟

"بارت". إنه برىء جداً. لا يوجد شىء لا أعرفه. إنه واضح فى الحب. لم يظهر أحد أبداً الاهتمام به من قبل.

ما الذى تريده؟

رفع "دايموندستون" شفته العليا عندما كان ينظر إليها، أسنانه صغيرة ولامعة.

أنا أريد أن تساعدى فى إقناع "ليفون". إنه متحدث لبق. سوف يتحدث طوال اليوم. لكنه لن يعطى كثيراً جداً، ولا "بنس" للبعثة.

قالت، ربما ليس لديه الكثير كما تظن، وبمجرد أن تكلمت تأكدت كيف يمكن أن يكون هذا صادقاً. لم تكن تنقصها الرفاهية فى هذه السنوات الأخيرة.فهى قد أغارت على كل محلات الطعام لتتذوقها فى غضون ساعتين بالسيارة، وهى تسحب من بطاقة ائتمانه. فهى تعرف أن "ليفون" قد استثمر الكثير، لكن لابد وأنه خسر الكثير أيضاً.

قال "دايموندستون"، أنصتى. أنا ليس لدى طموح أن أقربك من حب الله. لقد تكلمت مع "بارت"، وأن المثقفين هم آخر من يمكن إنقاذهم وأول من يحترقون. لكن ربما يكون حكمك أكثر تساهلاً، إذا كان على الأقل عمل واحد فى حياتك الأنانية يتقدم عن مهمة "المخلص" على الأرض.

وإذا لم يكن؟

سوف يكتشف "بارت" أنك متزوجة.

قالت، وهو كذلك، ولأنها تعرف بالفعل أنه لا خيار أمامها. أنا سوف أخبره.

أنت ستفعلين؟ كانت لهجة الاستفهام بادية التمييز، وكلماته لها تأثير الأمر، لكن بصوت خافت

حاد. وحرك أصبعه على طول رباط قبعته. كان اليوم رطباً إلى حد ما، فالنسيم الهادئ رسالة قادمة من الصيف، لكن "دايموندستون" يبدو أنه لم يكن يعرق. بدا جلده بارداً، وعيناه الغائرتان لا تستطيع أن تحدد لونهما بسهولة. لقد أعطياها الانطباع بأنهما لا تريان بوضوح، وبأنه يجب أن تنظر مرة أخرى. ولم تلحظ أبداً أنه يرمش.

وركبت سيارتها. قال "دايموندستون"، انتظرى دقيقة. نحن لم نتناقش.

أخبرته، خير أن فعلنا، وأغلقت الباب.

توقفت بعد ظهيرة هذا اليوم فى مطعم صينى ومطعم مشويات: لحم خنزير بصلصة خفيفة وحارة، جمبرى وأرز، وبط فى ورق ألومونيوم، أطباق كبيرة من الأسماك والجمبرى، سرطان البحر مع شرائح البطاطا المقلية والمدهونة بالزبدة. ومع الوقت عادت إلى البيت. كان "ليفون" قد ذهب. لديه جدول زمنى للأحداث معلق على جدار مكتبه، فقامت بفحصه. كان هناك افتتاح صالة عرض فى "دى سى". كان يحضر مثل هذه الأشياء أكثر وأكثر، يستمتع دون شك بجو التعقيد، ودائماً ما يعود بلوحات للزينة ـ لكون الفن، كما أخبرها، هو الاستثمار المؤثر الحقيقى الوحيد.

حينما قابلت "بارت" فى الإسطبل، دعته إلى أن يأكل فى المنزل، وقالت إن أباها سوف يكون بالخارج لعدة ساعات. جعلته يشاهد الغرف، وفيما بعد،

عندما سخنت الطعام وجهزته، وقف فى النافذة، فارتسمت معالم شكله بالظل الداكن على الحقول المعتمة.

قال، لا أستطيع أن أتخيل... ولم تستطع على الرغم من ذلك أن تخرج باقى كلماته.

جاءت إلى باب المطبخ. سألت، ماذا؟ لم أسمع.

قلت لا أستطيع أن أتخيل أن يكون لدى كل هذا. مكان مثل هذا.

مالت على حلق الباب. كانت بسبيلها أن تسأل لماذا، لكن هذا كان حمقاً. مشاهد من الفن التجريدى، الأرائك الغالية فى تناغم على الأرض، الزهريات والبسط التركية. فى ليلتها الأولى هناك، فكرت فى أن الغرف بدت مثل الصور فى كاتالوج، ولا شك فى أنه كان هناك الإلهام. فقط فى الصباح حينما رأت الأرض الزراعية من النوافذ، شعرت أنها تستطيع أن تعيش هنا.

تحول إليها "بارت". ما الذى سنفعله؟

حاولت أن تفكر، كيف تبدأ فى أن تخبره بكل شىء.

قالت، لا أعرف؟ يمكننا أن نذهب إلى مكان ما معاً.

وببطء توجه مرة أخرى للنافذة.

قالت، ربما نستطيع أن نعيش بالقرب من عائلتك.

أخبرها، أنا ليس لدى نقود مثلك، ليس الأمر سهلاً. إنك لم تفعلى أى شىء إلا قراءة الكتب. إنك لا تعرفين مدى صعوبة هذا.

ما هو؟

الحياة.

هذا ليس حقيقيًا.

ليس حقيقيًا؟

قالت له سريعاً جداً، لا، انصت، انصت.

شعرت فجأة بالإنهاك. جذبت مقعداً بعيداً عن المائدة وجلست. قالت، لقد كذبت. وقالت حينئذ كل شىء: محادثات "دايموندستون" مع "ليفون"، وفيما بعد معها على الممشى المفضى إلى الطريق. لم تتوقف لترى رد فعل "بارت". استمرت: ليس بعد تأمل الماضى، الأسباب الاقتصادية الغامضة، الهجرات والمدن الطاحنة، لكن الزواج بدون جنس مع رجل عجوز، الفتاة الساذجة تنطوى تحت إرادة رجل فى عمر أبيها كانت ذاكرته هى الصمت.

لم تكن هناك أنوار مضاءة، والآن فى الغرفة المظلمة، تكلم "بارت". كان صوته من نوعية غريبة، يحاول على ما يبدو أن يجعله على الناحيتين، سريعاً كما لو إنه لم يعد إلا وقت قصير، وبطيئاً من أجل أن يعطى انطباعاً بالجدية. إنه يعيد أشياءً أخبرها بها بالفعل، موت أمه، كيف تنقل فيما بين الأقارب، وأن أمه لم تكن مقربة من العائلة.

قال، لفترة عشت مع أخيها الأصغر فى لويزيانا.

كانت هذه السنة تعويذة هادئة فذة، علمه عمه أن يعزف الجيتار الكهربائى، حَلُم "بارت" بأن يكون موسيقياً. لقد استمعا إلى فرقة "موتورهيد" للموسيقى النحاسية وفرقة "أيرون مادين" للروك آند رول، يقضون أياماً بطولها يتقلبون على الأرائك، يحملقون فى ألبومات الآلات النحاسية كما لو إنهم كانوا هم حلزونات الغموض الهندى ورموزه. ولكن العم كان على علاقة حب مع رجل آخر، وترك مخطوطة بهذا الشأن. لم يخمن "بارت" أبداً. شنق العم نفسه. ثم كانت هناك بيوت رعاية ومعسكرات اعتقال، وأحياناً خلال تلك الفترة كان "بارت" يؤخذ إلى أمريكا عند "كيرواك". لقد تخيل حملة شحنات القطارات التى تجرى بطول الخط الساحلى الضبابى، سيارة ترحل إلى المكسيك. لقد بدت الطريقة الوحيدة ليفتدى حياته.

توقف عند هذا، واعتبرت هى أنها ربما تكون القصص التى اعتاد أن يقصها. كان فى السادسة والعشرين، وكان مع "دايموندستون" منذ أكثر قليلاً من سنة، ومن قبل ذلك كان الشىء الوحيد الذى يفصح عنه بوضوح عن حياته هو السفر. حاول أن يجعل هذه الفترة تشبه فى تأثيرها مغامرة تليها أخرى، وإن كانت فى أوقات فقيرة مجدبة، لكنها دائماً بمحض الاختيار: العيش فى بيوت عتيقة متصدعة معروضة للبيع منذ

سنوات أو فى كبائن موسمية على بحيرة متجمدة حيث كان يأكل الأطعمة المثلجة فى المعلبات. لقد استمتعت بالقصص، لكن ما أتى بـ"بارت" إلى شخص مثل "دايموندستون" لم يكن بالأمر الهين.

قال، لقد خضت مغامرات كثيرة. وأظن الآن أننى ربما سافرت أكثر مما فعل "كيرواك"(*)

لكننى عانيت بعض... الشهور القاسية. أتذكر ذات مرة تقطعت بى السبل فى "نيفادا". نمت لبضعة أسابيع فى حديقة ديناصورات مهجورة فى بطن أحد الديناصورات الهائلة. وشعرت بجوع شديد، تخيلت أننى إنسان مقدس فى أحد الكهوف.

ومن الطريقة التى اختار بها كلماته، يمكنها أن تقول إنه أرادها أن تصدقه.

قال، كنت مشرداً، الأشياء لم تكن دائماً جيدة. أعنى أننى أردت كل ذلك فى البداية. اعتقدت أنها ستكون هى الحرية. لا أعرف. أظن أننى فكرت فى أبى كثيراً. وفقط حينما قابلت "دايموندستون"، أيقنت أن الأشياء لا يمكن أن تكون أفضل.

قال، لكننى عرفت. أنا أعرف ما أخبرتنى به. أعرف أن "ليفون" زوجك.

(*) روائى أمريكى (١٩٢٢ ـ ٦٩) مؤلف «على الطريق» (المراجع) كيرواك Kerouac (١) .

ارتبكت فقط لفترة قصيرة. الآن، كل شىء يقوله "بارت" هو تبريراته. هو أرادها أن تفهم ما قد جرى من قبل.

قال، نحن دائماً نفعل بهذه الطريقة. حينما ندخل إلى منطقة، نبحث عن الانعزال الثرى. "دايموندستون" و"موريس" و"آندرو" كلهم يعرفون كيف يجدون الأشياء. والرجل الذى يسميه كل فرد "المكسيكى"، أعنى نحن سمعنا عنه حالاً. لقد كانت مجرد مسألة الحصول على تصريح لنعسكر فى الحقل هناك.

وأسدل جفونه ببطء كما لو إنه مجهد. لم تكن متأكدة من السبب الذى من أجله يخبرها بهذا.

قال، الكثيرون من الناس الذين يعيشون وحيدين يمنحوننا النقود.

هل رأيتها من قبل؟

ماذا؟

النقود.

فكر، لا. أنا لم أرها. لكن "دايموندستون" ليس سيئاً. نحن لا ندعى أننا متدينان. فهو دائماً يخبرنا، أنتم مؤمنون، لكن من الضرورى أن تضعوا طعاماً على المائدة. الناس... طماعون للغاية ولن يعطوا برغبتهم. لكنهم سوف يذهبون إلى الله بأثقال مخففة وخطايا أقل إذا نحن سرقناهم. لكننا لا نفعل. إنه شىء يشبه الوظيفة.

إن الأمربالفعل أقوى فى تأثيره مما يفعله "روبن هود".

أنت لا تفهمين. قال "دايموندستون" لى الكثير. من الصعب أن أشرح. فحينما أحاول أن أجعل حياتى أفضل، أشعر بالذنب. كان الأمر كما لو إننى أترك أسرتى وراء ظهرى. وحاولت أن أجد وظائف. لكن انظرى إلى. فحينما يغضب رجل ضئيل الحجم، فهذا أمر عادى. لكن حينما أغضب أنا، فإن الناس يرون مسخاً. لقد كنت غاضباً أكثر مما يمكننى وصفه. لسنوات. توقف هذا بعد أن قابلت "دايموندستون".

لكن من يكون؟ ومن أين أتى؟

لم تلحظ اللون الذى اكتسى به وجه "بارت"، وأفزعها أن تفكر فى أنه ربما سيبكى. وببطء دفع مقعده إلى الخلف ونهض.

أنا آسف. لم أكن أدعى. وتردد، ثم أضاف برقة، فأنا متورط فى هذا مثلما أنت متورطة مع زوجك.

ومشى إلى الممر. وتوقفت خطواته. لم تكن لديها القوة أن توقفه أو تناديه أن يعود، ثم هبط إلى الطابق السفلى، وبقيت بمفردها فى منزل خيم عليه السكون.

قالت لنفسها فيما بعد، كان هناك قدر كبير من حسن الحظ فى كل ذلك، من أن "بارت" قد غادر، وفى أنها لم تحاول أن توقفه. فقد عاد "ليفون" بعد فترة قصيرة. سألت أين كان، وأخبرها أنه خطط أن يلحق بافتتاح المعرض، لكن قلبه قد اضطرب. فعاد

من على الطريق السريع. وقف في القاعة، نحيفاً محني الأكتاف. كان يرتدى أفخر بذلة مع الزهرة الدائمة فى عروتها، والمرصعة بالتجهيزات الذهبية.

قال، لا أقدر على أن أتوقف عن التفكير فى حديثى مع "دايموندستون"، أنا لست أحمق. أعرف أنه يريد نقودى. جعلنى هذا الأمر أفكر. هذا كل شىء.

وقف لحظة أطول، ثم صعد السلم إلى حجرته.

مضت "إيزا" إلى المدخل. هل يمكن للحب والخوف أن يتواجدا معاً، مجرد إحدى الخلطات الكثيرة، مثل الجشع والتقوى؟ ألم يكن بالنسبة لها الحب والخوف دائماً متصلين؟

كانت مندهشة حينما رأت "ليفون" يأتى للخارج. وبدون حتى أن ينظر إليها هبط درجات السلم. مشى يغلب عليه الحذر الشديد حينما اتخذ طريقه إلى المرعى. راقبته حتى اختفى. كانت تجمعات ضوء القمر لأعمدة التليفونات تحوم عبر الظلام.

كم هو غريب أن ما كان حيوانياً، ما كان جسدياً - الجاذبية البسيطة، الشبق - يمكن أن يشد اثنين قريباً جداً من بعضهما البعض. حينما رقدت مع "بارت"، قد تخيلت أنها تخبره كيف أن حياتيهما متشابهتان: أن تقع فى مصيدة الأسرة التى لا يمكن استيعابها أو الفكاك منها. إن قلقه المتواصل وطاقته الكامنة، كان لـ"جودى" مثلهما. لكن ربما كان خوفها حقيقياً، وأن قصص "بارت" كانت تعنى أكثر مما تحققت منه. لكن

السؤال مازال قائماً، هل ابتعدت كثيراً عن "جودى" الذى يمكن ألا تكون حياته أفضل؟ إلى أى حد ربما يكون "جودى" قادراً على أن يقول إذا كان هناك شخص ما يحبه؟

وصعدت إلى غرفتها، وانتظرت "ليفون" أن يعود حتى يمكنها أن تذهب للبحث عن "بارت". لقد كان يرعبها أن تظن أنها تستطيع أن تكون هذه الشخصية الشجاعة.

لم تعرف كم لبثت جالسة، حينما نظرت إلى الساعة. لقد أحصت الدقائق كما لو كان بغرض اختبار استمرارية الزمن. ذهبت إلى حجرة "ليفون". مشت فى أرجاء المنزل، تنظر ـ بحماقة، كما كانت تظن ـ كان الأمر واضحاً ـ كم كانت خائفة أن تتخلى عن كل ذلك من أجل حياة مثل تلك التى حطمتها هى و"جودى". حملقت من المدخل. لقد تخطت الساعة الحادية عشرة، شجرة الجميز إلى جوار البيت تماماً غير مرئية، والجدار الحجرى يبدو كحد باهت. لم يسبق أن تأخر "ليفون" عند النهر إلى هذا الوقت المتأخرة. وجلست إلى ما بعد منتصف الليل بفترة طويلة،حيث هواء النبع دافئ مع قليل من الرطوبة. وحوالى الواحدة صباحاً، مضت إلى الداخل واستدعت الشرطة.

فيرجينيا
مايو ـ ديسمبر ١٩٩٣

وصلت سيارتان للشرطة وسيارة إسعاف بعد وقت ليس بطويل. تحدثت "إيزا" مع أحد الضابطين عند المدخل، بينما الكشافات المتقطعة تمسح ما بين الأشجار، وتتوقف عند كل جذع شاحب حيث يبطئ وميضها. وحينما تأكدت أولاً أن "ليفون" لم يحضر، شعرت بوخزة من الارتياح، خائفة فقط من أن تراه وقد أحضروه ميتاً بسبب طبيعى. لكن الضابطين عادا وأخبراها أنهما لم يعثرا على شيء. ومشت معهما عبر الممر. سأل الضابط الأكبر، رجل ذو شعر رمادى وشارب أنيق، ما إذا كانت قد رأت أحداً فى المكان، وفقط حينئذ شعرت بارتعاشة باردة فى الأعصاب، قدرت الدرجة التى صار بها "بارت" مشتبهاً به. شرحت القصة، بأن "ليفون" ينتظر كل ليلة إلى جوار النهر. حاولت أن تجعلها تبدو مصدقة.

قال الضابط، أعذرينى، لكن هذا غير معقول.

أنا أعرف، لكنه كان يعتقد فى أشياء كهذه.

سألها الضابط عشرات الأسئلة. لماذا تزوجت؟ من كانوا أصدقاؤها؟ قال إنه سوف يلقى نظرة على المزرعة حيث نشأت. أخبرته عن الجماعة الدينية التى تعيش فى الحقل. وفيما بعد بث هذه المعلومات لاسلكياً. وصاغت كلمات "مفقود"، "نعم يا فتى"، "المكسيكى"، "من سيصدق؟" وصلت سيارة شرطة أخرى، وكذلك بالمثل شاحنة صغيرة حمراء مع بضعة رجال من قسم الحريق التطوعى ليساعدوا فى البحث. وبدأت الأمطار تهطل ثانية.

كان أحد الضابطين فى المزارع المجاورة، وعاد بتوصيفات للجماعة الدينية التى قال إنها قد اختفت. سألها الضابط الأكبر منهما المزيد من الأسئلة بناءً على ذلك، وأخبرته أنهم كانوا فى المحيط القريب وأنها قد عرفتهم قليلاً. إن موقفه المهتم المتعاطف قد تلاشى. وأصبحت الأمطار شديدة الانهمار، تضرب الحقول والمنزل، وقادوا باتجاه الجبال حتى ينتهى الباحثون. وأخبرها أن تغلق عليها الأبواب.

ضعى التليفون بالقرب من فراشك. الله أعلم بما يحدث.

وفى الفجر التالى نظرت من شرفتها. كانت الحقول تتلألأ. لم يكن هناك أى أثر للشاحنة، أو حتى بالكاد ملمح لآثار سيرها. سمعت طرقاً على الباب الخلفى.

ومضت ببطء، ليست خائفة الآن، بل مجهدة. ملأ "بارت" النافذة وقد ضم كتفيه. كان شاحباً مبللاً. فتحت الباب.

قال، تركنى "دايموندستون".

ما الذى تريده؟

رأيت الشرطة وأنا... أنا لا أعرف أين أذهب.

"ليفون" مفقود.

تفحصت وجهه. عملاق، افترضت أنه سوف يبدو دائماً مذنباً. فكرت فى "جودى" ودرجات الغدر.

قالت له، انظر، إذا لم تكن قد فعلت أى شىء.

أنا لم أفعل.

إذًا، وهو كذلك. سوف تعود الشرطة عند الصباح. أظن... أظن نحن نحتاج إلى أن نخفيك.

أخذته إلى السرداب، غرفة منخفضة لها أنابيب مكشوفة وشرائط عزل وأنابيب تسخين، وفرن فى المنتصف. وحينما فتحت باب القبو المنخفض، انسالت نخالة الصدأ من المفصلات.

كان "بارت" يعرق فى الهواء البارد، يمسح كفيه فى بنطلونه الجينز. يلطخ التراب جبهته وظهر يديه.

ألن يكون الطابق العلوى أفضل؟

أنت ضخم جداً. سوف يسمعون صوت حركتك. وأعطته كشافاً. سوف أعود إليك حالما ينصرفون. حاولت ألا تنظر إليه حينما أغلقت الباب.

كان هناك فريق بحث أكبر فى هذا الوقت، قسم الحريق التطوعى بالكامل ومختلف المحليين، على الرغم من أنها تصورت أن معظمهم أتى بدافع الفضول. وحينما وصل الفريق الشرعى بعد الظهر، بعد أن كان الأمل قد تبدد فى العثور على الآثار التى يمكن أن تكون قد انطبعت على الوحل، فقد غُسِلت أو سُحِقت. سمعت رجلاً يُقسِم على عدم كفاءة الريفيين. وجال آخرون فى الغابات والحقول، وقام الضابطان بالفحص السريع، كما أسمياه، للإسطبل والبيت. ومع المساء لم يعثرا على شىء. وطوال اليوم، على الطريق، أبطأت السيارات على مقربة. ومكثت هى فى مقعد، وفكرت بدرجة أقل فى "ليفون" أو حتى "بارت"، من تفكيرها فى الكيفية التى سيكون عليها رد فعل "جودى" حينما تتصل به الشرطة. لقد كانت أقوى، وبعد سنوات كثيرة سوف تفهمه بصورة أفضل، ربما تكون قادرة على أن تجعله يتكلم. إنها لم تترك نفسها أبداً تفكر فى هذا، والآن وقد فعلت، كانت مندهشة من هذا القدر من الاشتياق له. انتظرت بالقرب من النافذة الأمامية، حينما تحرك ضوء الشمس إلى الداخل وعلى طول الجدار، وتلاشى.

وسألها الضابط مرة أخرى. وأخبرته بما عرفته. وفيما يتعلق بـ"ليفون" تحدثت عن الصداقة ولكن ليس الحب.

سأل، ألم يكن لـ"دايموندستون" اسم آخر؟

لا هذا ما أعرفه. ألاتستطيع أن تتبع الشاحنة؟

قال، الشاحنة، وتنهد. هذا بلد كبير. أنت لا تعرفين كيف أنه من السهل على الناس فيه أن يختفوا.

وحينما غادر، أعطى التحذير نفسه مثل الليلة الماضية. وبدا محبطاً لأنه لم يجد أى مبرر لأن يفكر فى أنها مذنبة.

أخبرها، سوف نراقب من الخارج. ليس أمامنا الكثير مما يمكن أن نفعله إلا الانتظار.

كان الوقت تقريباً منتصف الليل حينما ذهبت "إيزا" إلى القبو. كان وجه "بارت" معتداً بنفسه ورجعت إلى الخلف وهو يتسلق للخارج.

قالت، أنا آسفة. أطفأت الأنوار فى أرجاء المنزل وأضاءت القليل منها. تعال إلى أعلى. بهدوء مع ذلك، فقط للأمان.

أخبرنى، ما الذى حدث.

أنصت فى حزن. كانت أنفاسه متقطعة. وفى كل مرة كان يمسح فيها عرقه، ينشر المزيد من القذارة على وجهه. أخبرها، أنا أحتاج إلى الخروج من هنا.

علينا الانتظار. ربما سوف يجدونه غداً.

سوف يوجهون لى الاتهام.

إننا لا نستطيع فعل شىء حتى غداً مساءً. سوف تعود الشرطة سريعاً. الوقت هو الفجر تقريباً.

قال، أنا لم أفعل شيئاً.

أنا أعرف.

وفى الساعة التى سبقت شروق الشمس، أكلا فى صمت على الرغم من أن أى منهما لم يكن جائعاً. سألته إذا كان يحب أن يأخذ حماماً، وأومأ برأسه.

وفى النهاية لم يناقشا ما الذى سوف يفعله. مضت إلى الثلاجة وأعطته بعض الفاكهة وزجاجة من الماء. ووقف عند باب القبو، وشعره المبتل مدفوع إلى الخلف من جبينه. ودت لو تجففه، لكنها كانت قلقة من أن الشرطة يمكن أن تعود، أو من أنه ربما يكون هناك شخص ما يراقب.

أخبرته أنه ربما يستغرق الأمر وقتاً. وهز رأسه وتوقفت عند القبو ليختبئ.

جاءت الشرطة فى الصباح، وكان هناك المزيد من الأسئلة وعمليات البحث، ومرة أخرى فى هذه الليلة، أضاءت الأنوار ظلمات الفجر، وذهبت إلى "بارت". وقال إنه فقد تتابع الزمن فى المكان المقبور. إنه لم ينم.

أريد أن أرحل.

أنا أعرف. سوف آخذك إلى مكان ما.

ذهبت إلى غرفة نوم "ليفون". كانت هناك خزانة فولاذية أخبرها بأرقامها السرية فيما مضى حينما كانت هناك ثقة فيما بينهما. احتفظ بعشرة آلاف

دولار، فيما أسماه نقود الأزمات. قال إنه ليس مبلغاً كبيراً، لكن البنوك قد أفلست من قبل. هذا ما تقوله كتب التاريخ.

أعطته "إيزا" كله إلى "بارت".

يمكنك أن تنتظرنى فى مكان ما. سوف ألحق بك بمجرد أن تهدأ الأمور.

قال وهو ينظر بعيداً عن رزمة النقود التى كان يمسك بها، أين؟

اذهب إلى "ماين". سوف آتى وأقابلك.

فى "ليفيستون"؟

قالت، يمكنك الاتصال بى بين الحين والآخر، ولمست يده. هذا إلى جانب أنك لديك عائلة هناك. وهذا المبلغ سيساعدك. ويساعدنا إلى فترة. سوف أحضر المزيد. اتفقنا؟

لم يكن ينظر إليها. قالت، "بارت". حاولت أن تقف فى مواجهته. "بارت". هل أنت بخير؟

ينبغى أن أذهب. وأخذ العرق يسيل منه، وتشتد رائحته.

قالت، انتظر. أخبرته بما ينبغى أن يفعلاه، على الرغم من أنها عرفت أن الأمر كان مخزياً.

مضى إلى الخارج، وقفز إلى صندوق "الهوندا". كان الوقت بعد منتصف الليل. وقفت فى الشرفة الخلفية. وعبر المرعى، ظلت أشباح الخيول تتحرك

فى ضوء القمر. ومن خلال التأكد من اعتقادها فى براءة "بارت"، فكرت كيف سيكون الأمر مرعباً أن يعود.

قادت السيارة لأكثر من ساعة إلى "دى سى". وتركته يذهب عند المحطة. لم يتعانقا. كانت هناك طوابير غير منتظمة معظمها من السود فى القاعة السفلى. قالت، "بارت"، ونظر هو إلى ما ورائها، ثم حوله. نظر إلى أسفل واستدار وأسرع يهبط درجات السلم.

لم تذكر الصحيفة أبداً القتل، فقط الاختفاء. ونشرت صورة لـ"ليفون" ترجع إلى سنوات سابقة بحيث بدت على ورق الصحيفة محببة وقاتمة جداً.

اتصلت "باربارا" اليوم التالى.

قالت، مات "جودى" منذ سنة مضت، رحمه الله. لم يكن وصل إلى الخمسين من عمره. لقد هَرِم سريعاً. أردنا أن نعثر عليك. وأنت على بعد مقاطعتين. من كان سيعرف؟ مازال لدينا رماده، بارك الله قلبه. يجب عليك أن تحضرى وتأخذيه. سوف يجعله هذا سعيداً.

حاولت "إيزا" أن تقول، نعم وتوقفت. أغمضت عينيها.

توقفت، وذهبت إلى حجرتها ورقدت، ظلت هناك حتى الصباح.

وفى الأيام التى تلت، بدا أن لا "ليفون" ولا "بارت" قد وُجِدا. كانت تستيقظ دائماً على صوت بكائها. تذكرت الاستيقاظ فى مبنى الحظيرة على صوت "جودى" الأجش ينادى فى نومه. حاولت أن تفكر فى شىء ما ملموس، همجيته، اليد المجروحة، ضوء الشمس فى شعره الأحمر. نامت لأيام بطولها. كانت الأحلام ومضات من الطرق الواقعة على بعد، تلك السماوات فى المدن الأولى التى جالت فيها على كتفيه وهى تمسك بشعره على طول الشارع مرفوعة لأعلى كأنها تنظر إلى الشمس. واستيقظت على القمر الصامت الكامل، ومشت إلى الخارج. ومهما كان ما يمر، فإن صورته كانت فداحة صامتة للعدم، وهى قد منحت نفسها لهذا الظل، كما لو كان طائر "الرخ" للطفولة دنا مقترباً للمرة الأخيرة ثم تلاشى.

وجاءت الشرطة مرة أخرى. وكذبت فيما يتعلق بكل شىء، غير عابئة أو مصدقة أن أى من هذا له أهمية. أحياناً كانت تشعر بالذنب تجاه "ليفون"، لأنها قد أحضرت "بارت" إلى حياتهما، لكن بعد ذلك تذكرت أن "بارت" و"دايموندستون" لم يأتيا من أجلها، لكن من أجل نقود "ليفون". وغير ذلك كانت هناك أيام فى هذه الفترة لم تفكر وقتها فى أى شىء من هذا على الإطلاق.

وفى بعد ظهيرة أحد الأيام، ذهبت إلى المزرعة التى نشأت فيها. كانت فى حالة يائسة، ارتفعت الأعشاب الضارة، وذهبت معظم الجياد، ربما نقلها

أصحابها. حينما طرقت، دعتها "باربرا" إلى الدخول. كانت جالسة تستند بإحدى قدميها على الأخرى وتتغطى ببطانية، وهنت قوتها وصارت نحيلة وهزيلة تماماً. كان وجهها أحمر متورماً، وشعرها مقصوصاً ومجعداً حول رأسها بهذه الطريقة للنساء العجائز.

صاحت، تعالى. تعالى. ليتنى أنهض لأعطيك قبلة، لكن كان يجب أن ينتهيا فى واحد من تلك الأيام، ساقاى، هذا هو الأمر.

مضت إليها "إيزا" وقدمت لها وجنتها.

قالت "باربرا"، أنا أقصد أننى استطيع السير. لكننى لا أحب. وقبلتها قبلة مبللة. إنه عمل كثير جداً. لقد خارت ساقاى. شىء ما لفعله مع الشرب، دائم، أنت تعرفين. نظرت على "إيزا"، وعلقت بأنها لم تعد الآن فتاة صغيرة. وتحدثت قليلاً عن المزرعة ـ قالت، من الصعب إدارتها، وأنت قريبة جداً، تزوجت إلى هذا الرجل الأسود؟ وركزت عينيها بسرعة من خلال نظارتها البلاستيكية. سوف تبقين، أليس كذلك؟

ترددت "إيزا". كيف مات؟

لا أعرف بحق الجحيم. لم أره لحوالى أسبوع. لقد أرسلت شخصًا ما. شككت فى أنه تضور جوعاً أو تمادى فى الشراب. أقصد أنه لم يكن هناك شىء عنيف. لكن من يدرى؟ من يدرى؟ إنه لم يبلغ الخمسين ويشرب مثل... مثل... على أية حال بعد أسبوع لا تستطيعين أن تحكمى.

أفهم.

لكن ينبغى عليك أن تلقى نظرة. كان من العسير طلب المساعدة. مازلت أفكر فى بيعها. وبللت شفتيها. لكن ياعزيزتى، أنا آسفة على والدك. كان رجلاً صالحاً. حينما مات، تعاملت الشرطة مع المسألة. ثم استدعيت "ميندى". أتتذكرين "ميندى"، المدرب؟ تماماً، حسناً، لقد ذهبنا لنحضر رماده. لقد أحبت "جودى"، واعتادت أن تفكر أن هناك شيئاً ما حزيناً يتعلق به، وأنه ربما كان فى حالة حب. ومضينا وأخذنا الصندوق. لقد كان مرعباً. لقد انتابتنى القهقهة. لا أعرف لماذا. اشترى "ميندى" هذه الورود. قالت، أعتقد أن الورود القرنفلية توفر رحلة آمنة للروح. لا أعرف. وعدنا إلى الحظيرة، حيث بدأ "ميندى" فى الضحك أيضاً. لقد كنا كلانا نضحك بصورة مرعبة. قالت، كم كان الرماد ثقيلاً، يا له من ولد ضخم الجثة هذا الذى كان عليه "جودى"، وقررنا أن نزنه. وذهبنا إلى حجرة "الخزين"، واستخدمنا الميزان.

وأنصتت "ليزا" على قدر ما استطاعت. أين... هو؟ وأصبح وجه "باربرا" أحمر تماماً، وارتفعت شفتها الأمامية مثل أرنب يتنفس من خلال أنفه. كان من الواضح أنها تقاوم نفسها حتى لا تنفجر ضاحكة. إنه على الرف فى حجرتى. تصورت أنه يمكنه المحافظة على صحبتى.

قالت "إيزا"، شكراً لك، ومضت لتأخذه. وكان هناك أيضاً صندوق للأحذية وملابس ملفوفة،

والبندقية القديمة للمزرعة، وبعض الأوراق. ووجدت فى هذه الأوراق العديد من بطاقات الهوية: "جودى" فى الثامنة عشرة، يشبه أسيراً فى نزال حتى الموت. رخصة قيادة: "جودة وايت".

كان مايو عاصفاً، ويونية معتدلاً. وأينعت الزهور الجميلة على الأسوار. الآن لم يكن هناك حتى حديث قصير فى محطة البنزين أو المتجر الريفى. كانت أرملة "المكسيكى". المشتبه فيها أيضاً. لقد فحصوا وحدتها، بالتأكيد متلهفين على أن يعرفوا ما الذى سوف تفعله، أو يتساءلون من ناحية أخرى لماذا لم تختف هى أيضاً.

تجمعت الأسابيع غير الحقيقية فى أشهر. أصبح المنزل امتداداً واسعاً للسماء. كان هناك شىء آخر تفكر فيه. فهى لم تفكر أبداً فى جسدها، ولم توله إلا قدراً من الاهتمام أقل مما أعطته للخيول.

أجبرت نفسها على أن تغير ملابسها، وتقود إلى الصيدلية. اشترت اختباراً للحمل. عادت إلى البيت وأغلقت الأبواب واستخدمته. جلست. وانبعث الغثيان من داخلها مثل أشعة الشمس، على الرغم من أنه كان مجرد خوف. حاولت أن تصور نفسها وقد تحولت. لكنها شعرت بأنها قد انشطرت، إنها شخصية وهمية، إن حياتها كلها هى شىء سمعته من شخص آخر، عن حياة شخص غيرها.

أخذت "إيزا" تفكر فى "بارت" أكثر وأكثر. إن ما قد شعرت به تجاهه، كان شيئاً يرجع بالتدريج إلى

الحياة بداخلها. ربما هى قد صنعت سلاماً مع احتمالية أنه مذنب حتى تستطيع أن تتصالح مع حالها. أو أنها ببساطة لم تكن تريد طفلاً بدون والد. تذكرت كيف تخيلت وهى فتاة العائلة التى لم تكن لها أبداً. لقد أعادت قراءة جزء من "جين أير"، حينما تترك "جين" "روشستر" وتهيم خلال الغابات من أجل أن تجد عائلتها الحقيقية. كان لظهور "بارت" شيء ما يرتبط بإضفاء السحر عليها. ربما كانت الرغبة نوعاً من الصلاة، ومن خلال "بارت"، فالسماء قد وفرت من الحيل "اثنين فى واحد"، القتل والحب.

وعلى الرغم من أن رجال الشرطة كانوا يقفون من حين إلى آخر، إلا أنهم لم يبدوا اهتماماً شديداً، وبالمثل لم يعد موت "ليفون" يشغلها. لكنه حتى فى الموت كان يحتفظ بها. فقد أكمل عزلتها. لقد شعرت بشبحه الشاحب يتصفح رفوف الكتب بيدين شبحيتين كخيطين من خلال "روب" الحمام. كانت تقرأ لوقت متأخر لينقضى الليل، لكنه كان يحوم عند بابها، بدون الذهب الذى لم يكن قادراً أن يأخذه معه إلى العالم الآخر. حاولت أن تبعده بخيالات الحياة الحديثة، لكن فقط هذا الظل الهائل، هو الذى استطاع أن يدحره. جودى وكل ذلك الذى مضى من قبل، وهو الذى غطى حتى على مشاعرها.

قالت لنفسها إنها تحتاج إلى التخطيط. فتحت حساباً بنكيًا. بدأت تودع فيه المبالغ المتواضعة التى سحبتها من حساب "ليفون" ببطاقة قد أعطاها لها.

سوف تقابل "بارت". ذكرت نفسها بالتفاصيل، متسائلة متى سوف يتصل. قالت، إنه متدين جداً، غير متأكدة ما إذا كانت تحاول أن تكون مقتنعة بوجوده أو براءته.

وبعد أن ظلت فى حجرتها لساعات، أغمضت عينيها. هناك منطقة معينة فى مخها تُحَوِّل باستمرار الأفكار إلى صور، كلما كانت على وشك النوم. حاولت أن ترى نفسها كمكتفية ذاتياً. ما الذى كانت تفتقر إليه؟ لقد كتب الفلاسفة أنه لم يكن هناك جوهر غير متحقق ينتظر لكى ينبثق، أى إن الهوية كانت فعلية وأنه ينبغى حراثتها. وسوف يكون هناك دائماً إغراء فى التواجد حينما يحول آخر عينيه عليك، ليعيش من أجل الحب أو ضد الاستبداد، لإيجاد المعنى كضحية. حدث كل هذا ببساطة حينما كان قتالها هو أن تقف ضد حكم "ليفون"، تقرأ تأكل تكتب طوال الليل، تخلق شيئاً ما يشبه الشعر فى الجبال. لكن مع ذهاب "ليفون" و"جودى" كانت الحرية غائبة، ولا شىء حتى الحرية له معنى فى حد ذاته. إلى الآن لم يتصل "بارت".

مر يوليو وأغسطس رحيمين معتدلين، صيف صعب، مازالت الأمطار عرضية. ومع سبتمبر كانت الأمسيات باردة. تلقت "الآنسر ماشين" مكالمات قليلة من أساتذة يتساءلون ما الذى حدث لها، أو يُذكِرون بندوات، أو يسألون هل مازالت تفكر فى إكمال الدراسة. لم تنصت إليهم أبداً تماماً. وكبرت بطنها، على الرغم من أنها حملت الوزن بسهولة. لم تذهب

إلى طبيب. لقد أعطت كل هذا أهمية قليلة أو لم تعطه اعتباراً على الإطلاق. وفى مرات قليلة شعرت بتحركات بداخلها، لكنها بكيفية ما لم تستطع أن تفكر أن هذا ما سيكون طفلاً. واحتل الصمت المعتاد المنزل، وامتدت الحقول عبر النوافذ، وكانت الشرفات معلقة على رءوس الجبال.

اتصل محامى "ليفون" عدة مرات. شرح بأنه كانت هناك قوانين تتعلق بالاختفاءات، ولكن الآن يمكن افتراض الموت. تقابلت "إيزا" معه فى المطبخ. كان ذلك بعد ظهر أحد أيام أكتوبر المشمسة المتأخرة. أعطاها ملخصاً بالحسابات والأصول.

قالت، "واو"، بدون أن تغير نغمة صوتها.

لكن هناك شرط قانونى. كان رجلاً فى منتصف العمر يتخذ مظهراً جاداً، خطان على جانبى فمه، ونظارة إطارها أسود، شخصية غامضة تفتقر للرقة والنعومة. قال، يبدو أن زوجك قد أحبك بشدة. وفض رسالة. بدأت كما ربما قد توقعت... إذا كنت تقرأين هذا الآن... لكنها حينئذ أفزعتها: هذه هى رؤيتى لحياتك بعد موتى. كيفى نفسك كسيدة "جنوبية". لقد كنت أُعجب بهن دائماً على الرغم من أنهن قد اختفين. اجلسى فى الشرفة واقرأى. شاركى فى مجموعة نقاش أدبى. انشدى التميز، ليس الغرابة لكن البعد الإدراكى لمعرفة عمق حبنا. وعلى الرغم من أننى لا أستطيع يا عزيزتى "إيزابيل" أن أفرض هذه

الأشياء، إلا أننى أتقدم بمطالب قليلة. وضعت ممتلكاتى فى وديعة. وسوف تقدم لك حصة، لكن إذا تزوجت مرة أخرى، فسوف يتوقف صرفها لك. سوف تفقدين كل شىء. وأتمنى فقط ألا يؤثر فيك هذا الإجراء، وأن تحترمى ذكراى بإرادتك الحرة. المخلص "ليفون جيه".

وأنزلت الرسالة وطوتها. من الواضح أنها كُتِبت منذ سنوات.

وإذا تزوجت مرة أخرى؟

قال المحامى، سوف يذهب ميراثه إلى إنشاء "حدائق البلدية لليفون جيه ويليس".

حدائق؟

نعم، فهو قد خطط من أجل إقامة واحدة بالتماثيل البرونزية فى كل الدوائر الانتخابية القريبة فى إطار مبرر التمويل. إذا قررت أن تتزوجى فى السبعين ربما ستقام واحدة فقط.

ابتسم. وحينما لم تفعل هى، شرح لها حصتها، واعتذر بنفسه.

وخلف النوافذ نشرت الشمس فى السماء لون الثلج المنثور.

استيقظت فجأة فى خضم هذا الغضب: مستقبل "ليفون"، مشد الصدر، حفيف رباط الثوب أسفل ذقنها. كما لو كانت هذه هى كل الحياة التى تحق لها.

ذهبت إلى الفناء حافية القدمين. أتت أمطار هذا العام بالمسامير وقطع الزجاج المنثورة على الأرض. هبت الريح ثم هدأت. السحب القاتمة تتراقص خلف قمر هزيل. طقطقت رءوس الحشائش البرية عبر السياج. وببطء عبرت إلى الإسطبل.

وفى الممشى بين مرابط الخيل، أنصتت إلى الصوت الخافت لتبديل الحوافر فوق التبن، حيث أتت الخيول الثلاثة لتنظر، تومئ وتطأطأ آذانها. كانوا دائماً فى حياتها، حاضرين جداً بطباعهم حتى أن دروس الركوب لم تكن أبداً ضرورية. فهى فقط كانت تمتطى وتحافظ على توازنها بنوع من الهارمونية. هل هى اختارت أى شىء؟ لقد انصرمت السنون فى الارتباط وليس فى الحب.

وعلى المقعد الخشبى تتمدد البندقية التى أعطتها "باربرا" إلى "جودى". وقد استخدمها مع القطط الضالة أو القوارض أو الأرانب فى الحديقة. ووجدت صندوق القواقع، وأخذت فى تلميع إضاءات المنزل خلال النافذة.

وحدق فيها الفرس عن قرب. كان حصاناً فضياً عربياً، اشتراه "ليفون"، ويرعى بالقرب من الطريق. لمست رقبته. فتراجعت إلى الخلف. ووضعت كعب البندقية على كتفها حينما قرب أنفه، وأذنه فوق فوهة البندقية. وحاولت أن تتذكر الضرب حينما أخذها "جودى" إلى الحقل وتركها تطلق النار على الأشجار. اندفع خفاش من خلال باب الحظيرة وصعد إلى العوارض الخشبية، ولم يخف الحصان، لكنه استمر

فى المراقبة. وتحسست الزناد، متعجبة كيف تكون دقة الحركة، متذكرة إطلاقها المتشنج، رجع صدى السماء الكئيبة فوق محيط من الأوراق. لقد فكرت فى أن قوة الطلقة تحتاج شيئاً ما قوياً فى اليد. واقترب الفرس من ماسورة البندقية.

خفضت البندقية إلى أسفل، ثم أخرجت الطلقة. ووضعت يدها على رقبة الفرس الدافئة، ونفضت الغبار بأصابعها. وعادت على مهل إلى الحجرة الملحقة. لقد أرادت "بارت" أن يضطجع على صدره حتى تذهب أياً ما كانت بذور الدمار أو الجرح أو الوحدة.

جذبت بطانية الحصان من الرف، ثم بسطتها على الأريكة الخشبية كفراش. فى الأصوات والروائح والذكريات، كان كل شىء هنا، الساعات التى قضتها مع "بارت"، شبابها وهى تراقب عمل "جودى". فقط تنفست وهى مازالت راقدة وعقلها يداعب النوم نصفه. فى إحدى المرات جاء "جودى" ومعه البندقية. كانت تشاهد "أنا أحلم بالجينز"، وأرادت أن تريه كيف يمكنها أن تكون مثل ذلك. ربطت قميصها حول وسطها. كان يجلس على المائدة، ووضعت خرزة بلاستيك حمراء فى سرتها، واستدارت، ثوبها مفكوك. كانت ابتسامتها وثقتها التلقائية غريبتين بالنسبة لكل منهما، البريق الذى شعرت به يلتمع فى عينيها. وقف، وفى الحال ركل مقعده بعيداً، وقفزت إلى الخلف ويداها متقاطعتان أمامها. ومضت إلى الخارج، ومن

خلال الحشائش قفزت فوق السور إلى الحقل، وخطت إلى حيث اختفت عند المساء باتجاه الغابة. وأطلقت النار ثلاث مرات على السماء، ثم هز البندقية، أقواس محنية طويلة، صمت ممتد وغريب، وبانتظام مثل هيئته الرثة ذاب فى الظلام.

لقد أتت الأيام المتقطعة الأخيرة والمثيرة لتهز الأشجار. وتوقف الضابط فيما بعد ظهيرة أحد الأيام الباردة ليرى ما الذى تفعله. سألها عن مدى تقدم الحمل على الرغم من أنها لم تفكر فيه بوضوح.

قال، على الأقل زوجك له واحد فى الطريق. فلا شىء أسوء من أن تتركى العالم بدون طفل يحمل اسمك.

تخيلت الناس فى المدينة يقولون، طفل "المكسيكى". أوه، نعم، هذا ابن مكسيكى أيضاً.

ورأت حينئذ ما الذى كان يعنيه أن تبقى. كان "ليفون" يذهب إلى النهر لسنوات، وفى الأسبوع الذى كان فيه "بارت" هناك، اختفى، وهى تقبلت ذلك. لم يعد القتل يبدو وحشياً جداً. فقد كان هناك الكثير من الغيابات والعمليات المجهولة. كان طفلها بسببيله أن يحتاج أباً.

ذهبت إلى المطبخ، أكلت أكثر مما أكلت فى أسابيع. سجلت المواد المخصصة للبيع على قطع من الورق المقوى والورق، الأسعار رخيصة بشكل غير معقول. ذهبت إلى مكتب البريد ومتجر البلدة.

ألصقت العلامات فى أى مكان استطاعت أن تضعها فيه.

وفى اليوم التالى ازدحم المبنى لديها. باعتها كلها: "الجاجوار"، الخيول، كل التذكارات والأجهزة الإلكترونية. سمحت للسكان المحليين أن يجردوا المنزل من الأثاث والطاولات المصنوعة من خشب الصنوبر والأرضيات من خشب السنديان. وطوال هذا الأسبوع، شاهدت الأسوار تمضى، الإسطبل، المبنى كله يُسَلَّم مقابل ثمانمائة دولار، يُفكك ويُنقل. أستأجرت محققاً ليبحث عمن كانت أمها، وأعطته صوراً من بطاقات هوية "جودى". لقد كانت مسرورة تقريباً بالتكاليف المُبالغ فيها، كما لو كان زواجها كان له غرض على الاطلاق. أخبرته أنها ستكون خارج المدينة وسوف تتصل به. "بارت" لم يتصل أبداً. نامت فى الغرفة الوحيدة التى تركتها سليمة لم تمسسها. احتفظت ببعض الملابس والكتب ورماد "جودى"، وكذلك احتفظت بكاميرا "بلورايد" قديمة. تخيلت رحلة إلى "كيبيك" مع "بارت"، تنثر الرماد، تبدأ حياتها، ليس المزيد، بل ختامها.

وفى المساء السابق على رحيلها، عبأت أكياس القمامة بما تبقى من ممتلكات "ليفون"، وبذلته، ومجموعة مطبوعاته عن رحلات سكان الفضاء إلى الأرض، ودراساته الهندسية عن دورات المحاصيل. وومض زجاج النافذة ببريق ريح قادمة من بعيد.

انتهى، خلعت ثيابها ومسحت وجهها بقميصها المبلل. كانت بطنها كبيرة، وشعرت بمدى الصعوبة كلما جذبت البلوزة عليها. ومضت للخارج وحملت الأكياس إلى المرعى، إلى الجدار الحجرى. تصورت أن الأحواض الجارية علقت بها المسامير الصدئة من المطحنة. ورحلة إثر أخرى القت بالكتب والوثائق حتى تعكر النهر بالطين من الكتب والملابس القديمة. ووقفت فى الظلام الدامس البارد، لا تعرف ما الذى تتوقعه أو ما إذا كانت خائفة. لم تكن بحاجة إلى برهان، ليس من الله، ليس من الآلهة ولا الشياطين.

ماين ـ كيبيك
ديسمبر ١٩٩٣ ـ يناير ١٩٩٤

وصلت "إيزا" قبل يومين من الكريسماس. وبقيت فى الفندق فى "ليوستون" وأبلغت موظف الاستقبال أنها تبحث عن صديق قديم. واقترح عليها أن تسأل فى بضع حانات شهيرة، وعلى الرغم من شكها، إلا أن كل فرد فى أول مكان عرف "بارت". حينما دخلت تحول الحديث إلى صمت غير مريح. لقد كان وقت ما بعد الظهيرة مع تجمع قليل معظمهم من الرجال المسنين، لكن فيما بينهم كانوا قادرين على أن يخبروها على وجه التحديد أين يعيش. ولم تكن متأكدة ما إذا كان الصمت الذى ران كان بسبب بطنها أم بسبب طولها. وقدرت أنها لو لم تكن حبلى لأخبروها بالمزيد.

كانت الشقة عند أحد أطراف المدينة، تقع فوق أحد المحلات المهجورة لتقديم الخدمات. كان ديسمبر معتدلاً دافئاً بما يكفى لأن تنتظره على درجات السُلَّم.

لم يكن لديها سبب يدعوها للتأكد من أن "بارت" ربما يكون فى "ليوستون"، لكنها لم تكن قادرة على أن تتخيل أى مكان آخر يمكن أن يكون قد ذهب إليه. وقالت لنفسها، وإذا لم يكن هنا أو إذا لم تستطع أن تجده، فهناك عائلته، وحتى يمكنها آنذاك أن تستمر ببساطة صوب الشمال.

وصل بعد الظهر، وهو يقود سيارة كبيرة متهالكة، "فورد برونكو"، ذات إطارات جديدة. كانت ملابسه متسخة، ومشى إلى منتصف المسافة إلى درجات السلم قبل أن يراها. استطاعت بالفعل أن تشم رائحة الكحول. توقف ببساطة.

قالت، إنك تعمل. ولأول مرة استوعبت بصدق الفترة الطويلة التى مرت. فوجهه كثرت غضونه وبدا أكبر سناً وعيناه محتقنتان.

كيف... أتيت هنا؟

سألت فى الحانة.

وتردد. أعتقدت أنه من الخطر أن أتصل بك.

هزت كتفيها. ربما. على أية حال، أنا هنا.

نظر إليها، ثم لأعلى ناحية الشقة. بإمكانى أن أريك أين أعيش.

وشعرت بالراحة لأنها لم تكن مضطرة للكلام. ولاحظت انحناءة ظهره حينما صعد درجات السلم. لقد كانت الأسقف منخفضة بالنسبة لكليهما. كان هناك بساط على الأرضية وهناك منضدة إلى جانبها

مقعدان. وامتلأ الطبق الذى يزين نور السقف بالذباب الميت، وكانت زينة الحائط الوحيدة ساعة متوقفة يعلوها التراب ويحيط بها إطار رقيق من الخشب. إن القذارة من آثار الأقدام على البساط الأصفر، جعلته يبدو مثل جلد النمر المرقط.

حملق فيما ورائها وبدل قدماً بقدم، فصدر عن الأرضية صوت صرير مثل سفينة فى البحر.

سألت، هل مازلت تفكر فى؟

نعم، أنا كنت أعمل. أنا أقيم هنا منذ وقت قصير، وكنت أعمل معظم الوقت. سُرِقت النقود منى. أنا... اشتريت السيارة، وما تبقى معى من نقود سُرِق منى هنا. لكن لدى وظيفة.

كانت صامتة. وهو كذلك. أنا لدى نقود أيضاً.

وبحركات متأنية أصبحت معتادة عليها، جلست. شعرت أنها منفصلة بشكل غريب، مثل راهب. قالت، أنا متعبة، ثم بعد لحظة، حينما لم يتكلم، أنا حامل. أظنه الشهر الثامن تقريباً.

وفيما بعد من أجل تخفيف التوتر، طلبت منه أن يريها المدينة. كان الهدوء فيما بينهما يشبه السكون الذى يسبق العاصفة. وطافت السحب أمام سماء بلون الألومونيوم. مشيا بدون هدف. أحضرت كاميرتها البلورايد، لكنها شعرت الآن بسخافة أن تفعل هذا. لاحظت أن الناس، الرجال فى العادة، يتوقفون ويحملقون.

سألت، كيف حال عائلتك؟

لم يرد فى الحال. كنت أعمل مع ابن عمى "زى". إنه يصنع ألواح التزلج ويصلحها. كان يقوم بإصلاح الهليوكوبتر للجيش فى كوريا، وعاد إلى الوطن السنة الماضية. وهو الذى جعلنى أحصل على الوظيفة.

ما الذى تفعله؟

فقط فى مناولة المواد والألواح لشركة تجميع الأخشاب. إننى أعمل بطريقتى.

كانت على وشك أن تسأله ما إذا كان قد رأى جديه، لكنه أشار إلى محطة السكك الحديدية.

وصل كل الفرنسيين الكنديين من خلال هذا المكان. إنى أتذكر... أخبرتنى جدتى أنهم أتوا بعد أن شجعهم إنشاء خط "بورتلاند-مونتريال". فكل هذه المنطقة من هنا إلى النهر كانت تُسمى "كندا المصغرة" على ما أظن.

ولمحت لافتة "شارع ليسبون".

كانت لديه آلام بادية على وجهه. قلت إن لديك نقوداً؟

تكفى... للبقاء. كانت تنوى أن تقول، نحن الاثنين. أن تقول من أجل الطفل وللبداية. وتساءلت هل سيستمر فى العمل إذا أعطته ما لديها.

أخبرته، ينبغى أن نشترى مأكولات من محل البقالة للعشاء. لنحتفل.

توقف، ونظر بعيداً. استدار. قال دعينى ألتقط لك صورة.

وقفت إلى جانب أحد المصابيح. حاولت أن تبدو هادئة أمام الكاميرا. كانت السماء مظلمة تقريباً. والتقط الصورة.

انتظرا لتظهر الصورة، كتفاً بكتف فى التوهج الأخير للضوء.

قال، كنت أتعجب هل... وُجِد؟

"ليفون"؟

هل وجدوه؟

قالت، هو لم يكن بالفعل زوجى. مجرد زوج قانونى. ولا لم يعثروا عليه.

وعقد إبهامى يديه. ربما تكون الصورة جاهزة. لماذا لا تقشريها؟

فعلت، واستدارت لتريه.

قال، إنها متقنة. إنها جيدة بالفعل.

لقد عادا إلى البيت بدون البقالة. وفجأة صارت متعبة جداً. كان هذا يحدث أكثر وأكثر، نوبات من الإجهاد تجعلها تنام تقريباً قبل أن تستطيع أن ترقد. خلعت حذاءها، الأرضية باردة من المحل المهجور فى الأسفل. وتمددت على الفراش، وفكرت فى هذه الأيام الأولى، حينما اضطجعت هى و"بارت" فى الإسطبل

المظلم. أرادت أن تتكلم الآن مثلما كانا يفعلان. أحست بالألم فى حنجرتها.

سأل، ما الذى تظنين أننا يجب أن نفعله؟

كررت، نفعله؟ نحتاج إلى أن نقلق بشأن أشياء بسيطة.

جلس فى مقابلها.

قالت له، تعال هنا، تحسسه لتشعر به.

كان الأمر كما لو إنها تأخذ يداً غريبة. شدتها إليها. مضت أيام بطولها رفضت أن تقر بذلك. أغمضت عينيها، ثم أجبرت نفسها أن تفتحهما وتنظر إليه. كان يحملق فى يده.

قال، حينما كنت صبياً، اعتدت أن أكره يدِىَّ. لقد كان شعرهما كثيفاً جداً. أتذكر أن أحد أساتذتى قال إن اليدين كانتا رمزاً للجمال البشرى أو الإنسانية أو شيئاً ما يشبه ذلك.

وتركت "إيزا" عينيها مقفلتين. وانساقت فى شعورها بثقل يده، تشبه حرارتها مخلوقاً نائماً. وتأكدت فيما بعد أن الضغط قد مضى. سمعت الأرضية تطقطق، وحدقت من حجرة النوم خلال حجرة المعيشة المعتمة إلى المطبخ. كانت رأس "بارت" تلمس السقف تقريباً. لقد عمق ضوء المصباح من المنحدرات على وجهه الشرس الضخم. ولم يتكلم. كان ممسكاً بزجاجة، والآن يصل إلى الطاولة مثل رجل عجوز.

فى الصباح، كان قد ذهب. لم تستطع أن تتذكر أنه قد عاد إلى الفراش. أتى ضوء الشمس الغامض من خلال النافذة. ارتدت معطفها، وجلست على السُلَّم. وجاء صبى عبر المبنى. فحص ميزان الحرارة، ثم كتب فى دفتر.

سألت، ما الذى تفعله؟

قال، فى واقع الأمر إننى أحتفظ بسجل لدرجات الحرارة. وأرسله إلى ابنة عمى فى مكسيكو سيتى، وهى ترسل لى درجات الحرارة هناك. إن الجو مشمس الآن، لكن الراديو يقول إن الثلوج ستتساقط اليوم، ولذلك فإننى أفحص الحرارة كل ساعة.

أوه. حاولت أن تبتسم. وللمرة الأولى فكرت فيما يمكن أن يشبهه طفلها.

هل أنت زوجة "بارت"؟

آه، نعم.

أنا "ميجويل". أخبرنى "بارت" أنه سوف يصبح كاتباً فى يوم ما. إنها مصادفة لأننى كاتب أيضاً. لكننى أكتب عن المستقبل.

كررت، المستقبل؟ وهى تفكر فى "بارت" ككاتب، وأنه ربما يرى نفسه بهذه الطريقة.

نعم، تدور فى معظمها حول السفر فيما بين المجرات. إننى أعمل فى كتاب حول عالم حيث يمكن استبدال أجزاء الجسد، ولا أحد يموت. وأضاف، أن

هذا العالم كما نعرفه سرعان ما سوف يصير عالماً قديماً.

قديم؟

نظر إليها بحدة، ربما مستاء من أنها دأبت على تكرار الكلام.

تماماً. فكل شيء نفعله سوف يصبح غير ذى قيمة بعد ذلك. فسوف نتوقف عن الكِبَر فى السن، وسوف تُنجز الأعمال من خلال الروبوتات. سوف يتفرغ الناس إلى الاستمتاع بحياتهم إلى الأبد.

مثل الأطفال.

وافق، بطريقة ما. لكنها أفضل.

وفيما بعد، وبينما مازالت تنتظر، فكرت "إيزا" فى هذا المستقبل. هل ستضحى بالقليل من نفسها من أجل التأكيد: لا أحد قد نسى، شريط مشفر على ذراعها، رقم على واحد من مليون باب متطابق؟

نامت خلال النهار، ثم بدأت التنظيف. كانت ملابس العمل مكومة فى الخزانة، جف الطين عليها وتحول إلى رماد جاف. وتجمعت زجاجات الويسكى الفارغة فى المساحة تحت الحوض. فكرت فى "جودى". لقد تحولت حالة الجو، وضربت كتل الثلج المتساقط الزجاج. وسكنت الضوضاء الصادرة عن حركة المرور. راقبت الهالات الخافتة لأضواء السيارات. لم تكن تريد أن تهرب مرة أخرى.

ذهبت إلى الحمام وجذبت شعرها إلى الخلف. ووضعت يديها على بطنها. لقد تغير جسدها كثيراً جداً. كان الطفل يتحرك فى الغالب.

وجدت دليلاً للتليفون فى المطبخ. حينما أخبرها "بارت" فى البداية بحكاياته، سجلت فى عقلها اسم أمه. كان هناك قلة محدودة لاسم "بيولاس"، لكن فى مكالمتها الثالثة رد رجل عجوز، قال إن "آمى بيولاس" كانت ابنة اخته، وما الذى يدور حوله البحث؟

أخبرته أنه مجرد بحث فى الأنساب، وسرعان ما عرفت أى من الأرقام المتبقية كان هو رقم جدة "بارت". كانت القائمة تقول "بيل" و"إيفلين بيولاس"، لكنه أخبرها أن الجدة قد ماتت. وعاشت الزوجة وحيدة. تركته "إيزا" يكمل. شكرته وكتبت العنوان.

ارتدت معطفها وأخذت حافظة نقودها.

كانت الثلوج تتساقط بانتظام من السماء المظلمة. والتمعت أكاليل الكريسماس القليلة على ضوء المصابيح. أدارت محرك السيارة وشغلت مزيل الصقيع. وحينما جلست فى البرد شعرت بنبض عميق بداخلها. تجمع الثلج حول الإطارات، ولكن بعد عدد قليل من المحاولات استطاعت أن تتخلص منه.

لم يكن المنزل بعيداً. رنت جرس الباب ووقفت، جذبت معطفها. كانت خائفة من أن تنادى وتفقد عزمها. أجاب رجل قصير سمين له شارب.

قال، نعم؟

هالو، إننى أبحث عن "إيفيلين بيولا".

صحيح، هى هنا.

صاح صوت امرأة، من هناك؟ وصعدت إلى أعلى درجات السلّم بالداخل. كانت على خدودها بقع بلون الحديد مثل شعرها. ورفعت نظارتها قليلاً وأسندتها على جبهتها.

هل من مساعدة يمكننى تقديمها؟

لمست "إيزا" معطفها فوق بطنها. وتساءلت كيف تبدو هيئتها. أنا آسفة لأننى أتيت متأخرة. أنا زوجة حفيدك.

أى واحد منهم؟

قالت، "بارت".

نطقت "إيفيلين" اسمه. كررت "بارت"؟ هل هو قريب من هنا؟

إنه يعيش قريباً.

تعالى. أدخلى على أية حال. أنا لا أعرف لماذا نجعلك تقفين فى البرد.

وضعت "إيفيلين" الماء فى "الميكروويف" من أجل الشاى، ثم جلست.

أخبرتها "إيزا" أين يعمل "بارت"، وأنهما كانا يعيشان فى فيرجينيا وانتقلا من أجل أن يكونا قريبين من العائلة.

عقدت "إيفيلين" حاجبيها قليلاً. لقد فقدت أثره منذ زمن طويل.

أنا أعرف. لكنه هنا الآن. وحاولت "إيزا" أن تبتسم.

أوه. فهمت. حسناً، لابد وأنه قد عاش أوقاتاً قاسية جداً حتى كَبُر. إنه لم يكن الشخص المحظوظ.

إنه سوف يستقر.

نعم، وافقت "إيفيلين".

وجلسوا. كانت هناك مفارش مشغولة فوق طاولة القهوة، وتليفون موضوع فوق إطار المدفأة. تظهر صور مؤطرة لعرائس وعرسان ضخام الجثة يرتدون حُللاً سوداء ويجلسون جانباً ويبتسمون للكاميرا. لم يتكلم الرجل. بدل مقعده، وزم شفتيه.

أخبرتهما "إيزا"، كنت أود أن أعرف المزيد عن العائلة.

قالت "إيفيلين"، اليوم لم يعد معظمنا مع بعضه البعض. نحن عدنا بالكاد. هذا هو "مايك". إنه يقود لى. قد يكون هو و"بارت" أولاد عم، على ما أظن. ورفعت يديها كما لو أنها تهز كتفيها ثم أعادتهما إلى مسند المقعد. إنها لم تكن أبداً عائلة مترابطة، فالأطفال الباقون هم آباء، وبعض منهم أجداد، ولديهم مشاغلهم الخاصة. لكن أم "بارت" لم تكن على صلة قوية بنا. أعتقد أننى رأيته فقط مرتين أو ثلاث.

وطافت "إيزا" ببصرها على الصور. حاولت أن تربط الشباب بالرجال، البنات بالأمهات.

هل لديك أية صور لـ"بارت"؟

ترددت "إيفيلين". قالت، لا. لا أعتقد ذلك. لم يكن لدى سبب لذلك.

وجاهدت "إيزا" لتتنفس. شعرت بأنها مخنوقة. قالت، إننى حامل.

رفعت "إيفيلين" حاجبيها بحركة مفاجئة، مثل جناحى طائر. إننى أرى هذا. هل سيكون ولداً أم بنتاً؟

قالت "إيزا"، لا أعرف. أخبرتهما أنها لم تكن متأكدة لماذا هى أتت. لقد أرادت طريقة لتساعدها أن تستقر هى و"بارت" فى مكان. لا أريد أن أظل معكم. وفى المطبخ علا صوت الميكروويف. حاولت أن تهدىء من سرعة أنفاسها.

ينبغى أن أذهب.

قالت "إيفيلين"، وهو كذلك. كانت مقابلتك لطيفة. لو كنت أعرف أنك فى المدينة لدعيتك...

شكراً لك.

وقفت "إيفيلين"، وجلست ثانية.

عرض "مايك" عليها، سأزيل الثلج عن سيارتك.

تبعته "إيزا" إلى شارع الضاحية الكئيب. هبت

ريح، ورنت البللورات الثلجية على زجاج السيارة الأمامى.

قال لها، أنا آسف. ووضع يديه فى جيوبه. لم يعرف سوى القليل منا أن "بارت" كان قريباً من هنا، لكن لم تكن لدينا فكرة... رفع ذقنه... عنك أنت.

وهو كذلك.

حينما كنت صغيراً كنا كما لو اعتدنا أن نرى "بارت" يأتى ويذهب. لم يكن يستطيع الاستقرار. كان دائماً الفتى اللطيف. لطيف بالنسبة لى على أية حال.

هو يحب السفر.

قال، نعم. ونظف الثلج القليل الذى تجمع على الزجاج الأمامى عندها. لم يكن هناك ما يكفى لضمان هذا. لم يستطع أن ينظر إليها تماماً. قال، اسمعى، إننى أعرف أن الأشياء ربما لا تكون على ما يرام إذا كنت هنا بمفردك. أنا... قد سمعت مرات قليلة عن أحوال "بارت"، لكن لم يذكرك أحد . إذا احتجت إلى مساعدة، فلدينا أنا وزوجتى غرفة إضافية. سوف نفعل ما نستطيع. مازال يوجد البعض من العائلة. نحن لسنا مترابطين كثيراً، لكن كلنا نميل إلى المساعدة.

أرادت أن تسأل عن ماضى "بارت"، بدا ذلك مجحفاً. إلى جانب، ما الذى كان هناك لتعرفه. لا يمكن أن يكون إدمان الكحول جديداً. استطاعت أن

تخمن أشياءً أخرى من حكايات "بارت"، أو من تردد "إيفيلين" ودهشتها.

قالت، أشكرك.

لا مشكلة. سوف نكون على اتصال، اتفقنا؟

وهو كذلك.

ليلة سعيدة.

جلست فى السيارة. شعرت بما كانت عليه، امرأة ضخمة، حامل، ربما كان هناك شجن فى عينيها.

وفى طريقها خلال المدينة، مرت بمحل بأجهزة تليفزيون فى نوافذ العرض، صور ضخمة تعرفت منها فى الحال على شوارع نيويورك فى الكريسماس. شعرت بأن العالم على الشاشات لم يكن ملكاً لها.

كانت شاحنة "بارت" هناك حينما عادت. فقط من الداخل شمت رائحته. طقطقت الأرضية فى حجرة النوم. أتى إلى المدخل ووقف بحيث إن الضوء القادم من المطبخ أظهر شعر الوجه على فكه. وتوقفت سريعاً، ضائعة فى اللحظة، رائحة غازية لشبح مألوف.

استدار مقترباً. أين كنت؟

أضاءت النور. حاولت أن تتماسك فى ثبات وتنظر إليه. كانت العروق النافرة حول عينيه المحتقنتين بالإحمرار.

سألت، هل قتلت "ليفون"؟

اهتز قليلاً، واستدار مبتعداً. قال، لقد كانت حادثة. وضع جبهته فى مقابل الحائط. بدا غريباً، ضخماً غير حليق ويضع وجهه فى الحائط مثل الصبى الموقع عليه عقاب.

أخبرته، ذهبت لأرى جدتك، تمنت لو إنه قد رقد، لو لم تسأله أبداً.

وببطء، أعتدل. كانت رائحة الكحول طاغية، ولاحظت أنه يمسك بزجاجة. لم تستطع أن تتبين صنفها، وإذا لم تكن قد حاولت أن تتعرف عليها، ربما ما كانت تتحقق من أنه بسبيله إلى الإلقاء بها.

صرخت لا إرادياً.

قال، لا يمكن أن تفعلى هذا. لا يمكنك.

ومن الطريقة التى مشى بها ورجع، فهمت أنه كان يجبر نفسه ألا يقترب. وتحركت إلى الباب. وسحق أحد المقاعد وكسره بأقل مجهود على الحائط. فكرت فى الكلمات التى يمكن أن تكون لها قوة أو معنى. لكنها وهى ترى كل شيء يتفسخ بسهولة، عرفت أن كل ما يمكن تجربته كان يأساً، فهربت.

مع نهاية السنة كانت فى فندق فى "كويبك". أقامت فى واحد أثر الآخر، يتردد طنين الرحيل بداخلها حتى وهى نائمة. بدت السماء فى الشمال أرحب. غربت الشمس سريعاً جداً، بعض الأمسيات صفراء وممتدة، بعضها ضبابية حمراء واهنة. لم تستطع فى الغالب أن تتذكر ما إذا كانت استحمت أو أكلت. كان الطريق يحف به الطين والملح، وتبعته.

كان مكاناً غريباً، فهى لم تأت إلى هنا من قبل. لقد قرأت كتباً كثيرة جداً، جمعت دراسات مصورة عن الأقاليم، بحثت عن إشارات فى حقول المعرفة الدقيقة. طابقت قصص "جودى" على أرض الواقع ومشاهده الطبيعية، لكن لم يكن هناك شىء من الرسوم المتحركة للماضى، مكنوناته وتوغلاته الصامتة. إنه لا ينتمى إلى التيارات المعترف بها فى التاريخ للطريقة التى عاشت بها عائلة "بارت"، حتى لو كان "بارت" قد كذب حول ما تبقى منها. جاء "جودى" متأخراً جداً. لم يترك موته مفتاحاً واحداً.

هل كانت هى الرغبة فى العودة إلى الطبيعى مثل مخلوق يفقس ليخرج من البيضة؟ منذ متى توقف هذا عن أن يحدث؟ لقد حاولت أن تفهم ما كان "جودى" يبحث عنه. هل كان عجيباً أن المكان الذى لم تعرفه أبداً من قبل يعيش بداخلها؟

توقفت عند أضواء المنازل والكاتدرائيات.وتكراراً، كانت مخطئة فيما يتعلق بـ"الباريسيات خريجات الجامعات الإنجليزية"، لأن اللهجة التى تنطق بها قد أعادت تعلمها فى الجامعة. لقد كانت أجنبية هنا. ومثل كل الآخرين، أوقفت السيارة على جانبى الطريق ومشت إلى المشاهد تنظر إلى ما يمكنها أن تطرحه: مشهد طبيعى مع القليل من محلات بيع التحف التذكارية، والبطاقات البريدية المسائية على البحر.

ولمدة أسبوعين، مكثت على ساحل "جاسبيسى". نادراً ما كانت تأكل. كانت تستيقظ مبكراً،مفضلة هذا

الضوء. فكرت فى فيرجينيا، الطريقة التى أتاح لها المنزل المساحة لأن تحلم وتصبح شيئاً جديداً.

وبالقرب من المدينة اشترت حذاءً طويلاً. أظهرت الجبال المتجردة من الأوراق الخطوط العميقة لتشكيلها. مشت طريقاً متجمداً، وصلت إلى مكان سقطت فيه الأشجار وتشققت، مازالت رائحة الأخشاب النافذة فى الهواء. فى وقت من الأوقات جلس "جودى" عاقداً يده، يفكر فى نفسه مختفياً أعلى الحظيرة لساعات. وهى مختفية، حاكت سكونه إلى ما بعد الظلام، تهدئ ما شعرت به فى أنفاسها من أجله.

عانى جسدها من الآلام، تقلصت أمعاؤها. تورمت قدماها، وانتفخت الأوردة فى ساقيها. وعلى الرغم من أن البرد جعلها تعود إلى الفندق، شعرت أنها تستطيع أن تمشى بهذه الطريقة التى يمكن أن يغفر بها العالم.

وفى منتصف يناير، وصلت كتلة دافئة غريبة، أعلن عنها الراديو. بدت السماء غير منبسطة، زرقة فوق زرقة. كان ضوء الشمس فوق كل شىء يستثير كل الفتحات والتجاويف. وقف الناس بالخارج، لا يتحدثون، تهتز المعاطف من رياح الخليج. قد يكون هذا الطقس غريباً فى يناير حتى فى فيرجينيا: أمطار بللورية نصف اليوم، رياح حارة، الثلج الذائب من فوق الصخور الرمادية. وتجمعت الثلوج من كتل

الجليد الذائبة إلى الخليج. ما الذى يشعر به "بارت" الآن؟ يبدو أنه منذ دهر مضى قد اضطجعا معاً، تحدثا عن أمهما. ما الذى حدث لهذا الجزء منهما؟

قررت أن تغادر. قامت بالحزم. كان المراهقون الهنود بالخارج يتطفلون على ركوب السيارات بالجينز والقمصان مطبوع عليها آلات الموسيقى النحاسية.

وبعد ظهر هذا اليوم وجدت امتداداً لشاطئ فارغ تنتشر عليه الصخور. أخذت رماد "جودى" من ظهر السيارة. كان المد آتياً يغسل الطين الخام على الساحل. تبرز الجُزر المنحدرة من البحر، تكتسى بالعشب والغابات، وتبدو فى المياه التى تعلو وتنخفض كأنها قطع مقصوصة من التلال المنحدرة، مثل أجزاء مفصولة من العالم، مجموعة معزولة طافية. هى عرفت أنه لا توجد هناك شعائر، لا توجد وسيلة لإعادته إلى المكان الذى غادره ولم يترك له أثراً. أخيراً بدون ثياب، عارية، يدها على بطنها الممتدة التى تؤلمها. أرادت أن تكون هناك بالكامل. خرجت أنفاسها بطيئة. ألقت بالرماد فى مهب الريح. تناثر، سقطت الأجزاء الجافة من العظام بعيداً، وهب المسحوق الناعم مرتداً إلى وجهها. لمس شفتيها، والجرح على أنفها. تذكرت الكتاب عن آكلى لحوم البشر الذى قرأته وهى فتاة صغيرة، ودفعت أصابعها المغموسة فى الرماد إلى لسانها. تذوقت الرماد، لاذع على نحو خفيف. كان هذا كل شىء، وجلست وأمسكت ببطنها. نادمة على الإشارة الأخيرة، فكرت فى أمها،

فى ماهية الشعيرة الأخرى التى ربما ستكون. هى قد افترضت موتها، لم تفكر أبداً، حتى حينما استأجرت المحقق، أنها ربما لا تكون كذلك. لقد افتقرت للقدرة على أن تحلم بحياتها من أول وجديد مرة أخرى.

مع ضوء الشمس الحاد ارتدت ملابسها، حركة مفزعة من داخلها، ألم. أياد رمادية تلمس كتفيها، تترنح للخلف. فى هذه الليلة أوقفت السيارة على امتداد الشاطئ، الرياح تؤرجح السيارة، الحرارة تنبعث من الفتحات. أطفأت الأنوار. تنبهت إلى ضوء القمر على المياه المضطربة، ذلك المشهد الذى يوجد فى أى مكان، أى بلد، لكنه هنا الآن.

فى "مونتريال"، استأجرت غرفة. تركت "الهوندا" فى موقف السيارات. مشت فى المدينة العاصفة: أغان موسيقية صاخبة، حانات أيرلندية، أطفال يابانيون فى حجرات الألعاب الإلكترونية، يهود عجائز يلعبون الشطرنج فى مقهى كئيب. إن حبها للماضى ليس له مكان هنا، سيارات مصقولة، نوادى موسيقى، محلات خردوات لبيع الحلى الصغيرة الغريبة، قرى "ديبارتن مير" و"ديكس مايلز". وحتى اليوم قبل "كويبك"، سهول "أبراهام" والمدينة القديمة والنزل الصغيرة الرائعة. كلها كانت بدون معنى. لم تستطع أن تمضى لأكثر من بضع دقائق بدون أن تضطر إلى الجلوس. أرادت أن تنام. تمايل الناس مثل الأشباح القديمة لقنوات التلفزيون. وحملقوا. استطاعت أن ترى نفسها مخلوقاً هائلاً يطل فوقهم.

وفى المكان الذى يتعامد فيه الشارع مع مشهد المدينة، وقفت امرأة سوداء تحت أشعة الشمس تحمل طفلاً. كانت "إيزا" مرتبكة، مجهدة. يحتويها الشعور بالفقد. استغرقت لحظة واقفة هناك، لتتأكد كم عدد الأشياء التى يمكن أن توجد.

كل صباح، تلمس الستائر الفينيسية المغلقة. تنعكس أشعة الشمس عليها، فتلمع مثل الماء.

أيقظها الجوع. حاولت أن تستمع إلى قصتها تُحكى بالتفصيل من أناس لم يعرفوها. وقفت أمام المرآه بدون قميص ولمست ثدييها وبطنها. لقد قرأت ذات مرة أن "الأسبرطيين" قد عاملوا المرأة الحامل بقدسية كأنها جندى. كل هذا فى الأيام التى سبقت ازدحام الأرض.

إنها سوف تتقبل رؤية "ميجويل" عن المستقبل الآن بسعادة. فالماضى، وحتى معاناتها، كانت شيئاً منتهياً. تستطيع بسهولة أن تتبع الفلسفة إلى هذه النقطة. مكان نترك فيه الأمور تمضى.

بدأت الثلوج تتساقط مرة أخرى، تجتاح ناطحات السحاب، تلف المدينة فى الصمت، تفترش الشوارع بالجليد. كان الراديو يعلن عن موجة باردة، سماء قطبية صافية. حرارة منخفضة، أربعون تحت الصفر. حذرت الأرصاد الجوية الناس ألا يمكثوا طويلاً بالخارج إلا للضرورة القصوى.

بدا وهى نائمة باستمرار أن الألم المتكرر لم يفارقها ساعة واحدة. كانت تستيقظ وهى لا تعرف أين توجد. لقد احتاجت إلى الحميمية. استيقظت قبل الفجر تماماً. ارتدت ملابسها وخرجت، سخنت السيارة. أزالت الثلوج. ومن خلال الأضواء المنبعثة من المدينة، شعرت بالهواء يُمتص بعيداً عن الأرض، كما لو كان الغلاف الجوى قد تمدد. حتى عندما كانت تقود السيارة كان البرد يشع من خلال النوافذ، فتبدد الحرارة من الداخل، واقيات الارتجاج بالسيارة خشنة ترتج وتصدر أصواتاً. وخلال الساعة التى يستغرقها الوصول إلى الحدود، كانت تشعر بالنعاس، أفكارها مشتتة، وهناك فى الحمام غسلت وجهها ورقبتها. وعلى المسافات الخالية فيما بين الولايات جنوباً، أضاءت النجوم الطريق من بين الأشجار. سريعاً، انتابها شعور بالحزن على كل ما فقدته أو سُرِق منها، من أجل العائلة التى لم تعد قادرة بعد على أن تسمح لنفسها بتخيلها. هل هى تحلُم بفرجينيا الآن أم تتذكرها، الحقول البيضاء، الطريقة التى يبدد بها ضوء القمر الرطوبة المظلمة؟ أو هذه المساءات الأولى فوق أكتاف "جودى"، واللوحات التشكيلية التى لا تنتهى على صفحة السماء، وأضواء المدينة، والوجوه السوداء التى تحملق إلى أعلى، تشاركها دهشتها؟ شعرت بالبرودة كما لو أنها تنبعث من داخلها. أرادت أن تنام. حلمت بأنه الفجر. انحدرت الشمس الرمادية من بين الأفق الملبد بالسحب. أغلقت عينيها وانتظرت أن تُنتَشَل من سكونها.

ماين

ديسمبر ١٩٩٣ ـ يناير ١٩٩٤

هل يمكن أن يتوقف مرة أخرى؟ ما السبب فى أن يبذل هذا الجهد الآن؟

كان يشرب باستمرار. لا يستحم ولا يحلق لأسابيع. يهز الناس رءوسهم حينما يمر، ويعلق الرجال من فريق عمله فيما بينهم. هو عرف كيف يكون الغضب سهلاً. حينما حاول أن يجد للأشياء معنى، بدا أن خوفه فقط من غضبه هو الذى أوقفه فى مكانه.

وفى آخر مرة توقف فيها كانت فى منتصف الطريق لمنزله فى "لويزيانا"، وبحوزته جيتار كهربائى مستهلك ومكبر للصوت، وكيس بقالة مملوء بالكتب. وفيما بعد وجد له المدير عملاً وسكناً فى مزرعة قديمة كان يجرى تحويلها إلى حضانة أطفال. وكانت هناك أشجار "القرانيا" و"البباباو" و"المانجوليا"، تزهر فى الحقول، ويأتى كل تبدل فى الريح بشذاها، ولم

يكن منزعجاً من واجباته اليومية. وعلى الرغم من أن غضبه مازال يأتى، فجأة، بصورة غير مفسرة تجعله يرغب فى أن يشرب، بدلاً من ذلك هو يحفر ويتصبب عرقاً ويهيل التراب. وتفرز مسامه رائحة حيوانية لم تكن سيئة ولا جيدة، لكنه كرهها.

وفى إحدى الأمسيات حينما تجمع الضباب فى الأشجار، مشى على طريق مزرعة نامية إلى الغابات. لقد أنهى عمله لكنه لم يسترح، ومع الضوء المتلاشى تتبع القنوات المسدودة بالأعشاب، إلى حيث أُخبِر أن هناك مستنقعاً لأشجار السرو. ارتفعت الجذوع من الأرض غير منتظمة مثل صندوق بيض مكرمش، طين مكشوف أحمر، المياه مغطاة بالأوراق وحبوب اللقاح وزغب البذور. حولت الحشائش سدود الأوراق الطافية إلى جسور من الأرض الإسفنجية. بدت السماء فوق الأشجار الملعونة باهتة وبعيدة. كان الصمت مطبقاً ما لم تهب الريح، على الرغم من أن الصمت قد ساد بغرابة. وقف فى حضور المستنقع، فى الهواء الراسخ عند مرتبة سميكة، وتنفس.

لم تكن الآحاد أيام عمل، وفى وقت متأخر من بعد ظهر اليوم التالى، حمل جيتاره ومكبر الصوت والمولد الكهربائى الذى يعمل بالغاز إلى شاحنة المزرعة، وقادها عائداً. وعلى ضفة المستنقع جلس يعزف ويغنى الأغانى التى أحبها كمراهق، أغانى الموسيقى النحاسية: "الرجل الحديدى"، "انتحار الأسود". وعلى الرغم من أنه رأى نفسه بطرق كثيرة،

غالباً مثل شخصيات فى كتب أو شعراء أو كتاب أو مستكشفين، إلا أن الموسيقى كانت هى الشىء الوحيد الذى أعطاه كل الجهد. لقد كان هناك وقت حينما يتذكر "أنغام الكمان المرافقة" للأغانى ويمارسها لساعات. حاول أن يجد الإشباع فى الإيقاعات الصاخبة، الضربات المتأنية الخفيفة على الأوتار فى راحة اليد. غنى بصوته الأجش المخنوق. أراد أن تكون الضوضاء الصاخبة هى المادة الأولية، الطريقة التى سمعها بها لأول مرة. ومع عرقه من قفزاته السريعة، حملق على المياه المتجمعة. رفع يده ليضرب "الجيتار" لكنه توقف. كان رجل يقف عبر الظلام المخيم على رابية يرتدى ملابس سوداء ويضع قبعة حافتها عريضة.

قال الرجل، فقط دقيقة واحدة يا بنى، وبدأ يأخذ طريقه فى الأرض السبخة. وصاح، لا تتحرك، وهو يرفع ركبتيه مثل "مالك الحزين"، ليخطو إلى الأرض الصلبة.

وعن قرب، نظر على "بارت" من أعلى إلى أسفل عدة مرات، كما لو كان يستوعب الحجم الكلى وربما الخطر المحتمل.

قال، يا لها من موهبة! يا ولدى. لقد أنعم عليك الرب بصوت راعٍ. وأضاف، إنه صوت كما لو إن الرعاة لم يكونوا معروفين بالتذمر والشكوى من قائد.

والآن، لا تجعلنى مخطئاً. لقد سمعت صوت صرخات من الألم. أنا بنفسى أتيت هنا للعمل على

أداء مواعظى، لكن بإمكانى أن أخبرك أن لدىَّ أسبابًا أخرى، ولقد سمعت هذه التسجيلات يُعاد عزفها. لكن الرب ما كان جاء بك لو لم يكن بقصد إنقاذك. أستطيع أن أرى أنك حققته من الداخل.

وتوقف، وجهه متوتر، تنحنح خائفاً، الجلد مثل صقيع أسفل خيوط رقيقة. استطيع أن أرى أنك كنت تبحث. أستطيع أن أرى أن لديك سلطة الرب الأعلى بداخلك، وأنك لا تعرف كيف تعبر عنها.

قدم نفسه، "الكاهن دايموندستون" - قيل إنه كان اسماً ملفقاً ذاتياً، وإنه قد أُخبر من وعظ الشوارع فى نيويورك أنه كان اسماً يهودياً، لكنه لم يصدق هذا. سوف يخبرك بأى شىء ليحولك بعيداً. قال، إنه سيفعل، بدلالة معينة، مخفضاً صوته، كما لو لم يكن فقط حالة دنيا، لكنه حالة ضبابية وغير مفهومة. إنه لم يكن "هو" نفسه كاهن "يسوع الرب".

فى يوم الأحد هذا، تحدث "دايموندستون" حتى احتشد البعوض فوق المياه الراكدة واندفع على وجوههم. أنصت "بارت"، لم يُسأل، لكن ببلاغة. حكى "دايموندستون" عن أيام وعظ الشوارع، ورجال الأعمال فى "وول ستريت" الذين ركعوا على ركبهم وبكوا وأعطوه تبرعات بألف دولار من أجل أن يستمر فى مهمته. قال، إن "الراعى الكنسى للمحكمة المقدسة"، أفترض أن هذا اسم جيد، لكن ما الذى سيفعله، وهكذا تماماً فالناس لا يظنون أننى "معمدان" آخر. وبرغم هذا فأنا "المعمدان". أخبر "بارت" أنه كان

شريداً، يعيش فى خندق فى غرب تكساس، ثم جاءته زيارة الرب، الملاك الرهيب "ميكائيل" الذى أنزل فيالق رهيبة بقوة الذراع اليمنى للرب، وهو، "دايموندستون"، وبدأ الوعظ مباشرة هناك فى "المصرف". قال، حولت امرأة وهى عائدة إلى بيتها ومعها مشتريات البقالة.

وأخذ "دايموندستون" نفساً طويلاً وازنه فى صدره. قال، نعم "المسيح" عثر علىّ فى الخندق فى تكساس، وقررت أننى قد قاسيت ما يكفى. لقد أعطانى حلماً وحول كل شرورى إلى خير. لكن، انصت يا بنى الآن. هل تعرف لماذا تعذبت كثيراً جداً؟

لأنه كانت لدىَّ الرغبة. لأننى أردت العالم. أردت أن أكون هناك على القمة، بدلاً من يسوع المسيح حينما أغراه الشيطان. ربما فشلت ولم أعرفه. ومن أجل هذا مات المسيح من أجلنا. وهذه هى الكيفية التى هزم بها الإغراء. لقد أخذ ألمى المسيح. وما تعانيه الآن سوف يأخذه المسيح أيضاً. كلنا نعرف. كلنا نرى. اترك كل شىء للرغبة. لن يكون كافياً أبداً. لكن بداخل كل جوع أو مطلب أو حاجة هناك لحظة، مساحة من الرغبة تحتوى على كل الرغبات. فقط لتكن راضياً، وأنه إذا فهمتها، هى الرغبة فى الله. خذ اشتياقك إلى المسيح، وسوف تكون النشوة حقيقية والإشباع أبدياً.

نظر "بارت" فى الظلام كما لو إن ضوءاً خافتاً قد أضاء فيما بينه وبين الكاهن. قاربت الشمس على الغروب، توهج رقيق على قمم الأشجار. تنهد

"دايموندستون". لذا، ماذا بشأنها يا فتى؟ إن العالم يستطيع أن يستخدم أصواتاً مثل صوتك.

فهم "بارت" كل ذلك الذى كان مشتركاً بينهما، التشرد والشراب. وللمرة الأولى بدا الطريق واضحاً، فلم تعد قوة غضبه التى لا تهدأ بمثل تلك القوة.

قال "دايموندستون"، على أية حال فإننى لن أعود إلى الطريق الذى جئت منه. سوف أتبعك لتتأكد أنك لست ضعيفاً.

كانت المسيرة تقريباً غير مرئية، على الرغم من أن "بارت" استطاع أن يستشعر وجودها، كما لو كان مصير الطين والمياه المتجمعة قد وَلَّدَت جاذبية أقوى. لقد كان من الواضح تماماً أن "دايموندستون" تقوده الموسيقى، ولم تكن لديه فكرة كيف يعود إلى وطنه.

حَمَّل "بارت" الشاحنة، وعادا معاً أدراجهما إلى المزرعة، يتمايل "دايموندستون" مع كل هزة، لكنه لا يمسك الباب ولا يندفع من أجل التوازن. وحينما وصلا، كان صاحب العمل الذى يعمل له "بارت" على مائدة العشاء مع زوجته. دخل "بارت" بخضوع وقال، أنا آسف بالفعل بسبب ذلك، لكن ينبغى على أن أذهب. أريد أن أشكر .

وقبل أن يطبق "دايموندستون" على المدخل مثل الليلة نفسها الممتدة بدون القمر، خطا إلى الداخل، وبدأ يعظ بالجمال فى دعوته للتحول.

بدت هذه الأسابيع الأولى للسفر فى أرجاء البلد تتسم بالبراءة مرة أخرى. كان "موريس" و"أندرو" بالفعل جزءاً من الفريق، وحينما غلب الصيف على الربيع، تطلعوا بأنظارهم إلى الخارج عبر الزجاج الأمامى للسيارة، إلى الأرض وقد تغيرت خبرتهم الروحية، إلى مشاهد المروج الطبيعية للسماء، زرقة ضبابية تتلاشى كأنها لمسة وحيدة واهنة، حقول لا نهائية جعلتهم يتأكدون كيف أنه من السهل أن يفقد المرء الآخر ويغرق.

قال "دايموندستون"، ربنا شاعر عظيم ورسام بارع.

صاحوا، "آمين".

كرر "بارت" بنعومة "آمين"، كما لو كان بعد تفكير، وهو ينظر من النافذة، يختبر الفضاء فى قلبه ليضم ضخامة العالم.

وفى كل يوم، يتوقفون فى حرم إحدى الكليات وفى معسكرات الإعاشة المسيحية. لقد عبروا البلاد مدينة إثر أخرى، وبرغم هذا كان "دايموندستون" يعظ والآخرون يجمعون من الحضور. وحينما تأتيه الروح، يصيح، هذا هو المكان، ويدفع بالشاحنة المقفولة إلى رصيف المشاة، تصرخ إطاراتها من الاحتكاك لكبحها مع الرصيف. وهو سيبدأ فى وعظه حتى قبل أن يخرج من الباب.

وعلى الرغم من أن "بارت" وجد الراحة فى حضور "أندرو" و"موريس"، إلا أنه لم يشارك معهما إلا

قليلاً. كان "أندرو" شاحباً له وجه رقيق غاضب، وكان "موريس" من فلوريدا يقص شعره بصورة أنيقة ويضع نظارة مدرسية ذات إطار، لكن له عينين براقتين يبدو منهما عدم الاكتراث، إما سعيدتان جداً أو غاضبتان جداً، ثم يقولون، ليخلصنا المسيح، "آمين"، شكراً لصاحب الطعام، الشكر للمسيح لهذا الطقس الجميل، على هذا الخير فيما بين الولايات، فليبارك الرب "ماكدونالدز". ومع الوقت عرف "بارت" قصص كل واحد منهم. نظريات "دايموندستون" فى ارتداء الملابس السوداء التاريخية ليجعل الناس يرونه ولا يكتفون بالاستماع إليه باعتباره نائباً عن المسيح، وانسحب "أندرو" من كلية الولاية ليعيش فى مناجاة المسيحية حيث أحرق رمزياً كل شىء امتلكه فى السابق - بما فى ذلك كما يقول فى حزن شديد، ستة آلاف دولار لمسلسلات لم تُقرأ، فيما بينها "رجال إكس" أبطال مسلسل الخيال العلمى أرقام واحد واثنين وثلاثة.

وعلى الرغم من أن "بارت" كان ينصت ويتعاطف، إلا أنه شعر أن صعابه ومشقاته كانت من نوع آخر، حتى فى الأوقات التى ستكون السعادة فى الغدر بهؤلاء الذين سيفقدهم. لكن فى الوقت الذى تنمو فيه شكوكه، يبدو أن "دايموندستون" يستشعر ذلك. لقد سأل عن حياة "بارت" مشجعاً إياه ومذكراً له بأن عمق الحكمة جاء من خلال الألم. ولم يمض وقت طويل حتى انتحى بـ"بارت" جانباً فى إحدى الأمسيات. وظهر

"موريس" و"أندرو" عصبيين طوال اليوم، وشعر "بارت" بهما يراقبان حينما غادر هو و"دايموندستون" المخيم.

أخبره "دايموندستون"، يا بنى نحن نهرب من النقود. الآن هناك بعض الحقائق الحزينة لأن تكون مبعوثاً دينياً فى عالم اليوم. قال، أحياناً ـ أحياناً يحتاج الناس إلى الإقناع. إنهم لا يعرفون ببساطة ما هو الأفضل لهم، وقليلاً من... دعنا نسمى ذلك مسرحاً، هو أمر ضرورى الآن. الآن، أنا لدىَّ فكرة. ربما لا يكون هذا ما كنا نعتزمه، لكن ينبغى علينا أن نأكل، وهذا العالم هو مكان تعيس.

وبهذه الطريقة كشف "دايموندستون" عن خطته، وسرعان ما أصبح "بارت" بعدها أخرس بغرض زيادة التمويل. فقد اعتبر أن "دايموندستون" قد عثر عليه فى مستنقع وأنه قد سمع صوت القائد، لكنه فهم أيضاً الحاجة للتضحية. وبطريقة ما شعر بالراحة لأنه غير مضطلع بمسئولية الوعظ.

وحتى ذلك الحين فى غضون سنة تقريباً، ركزوا مساراتهم الطويلة غير المباشرة عبر البلاد. واندهش "بارت" من سهولة المفارقة التاريخية من أن الترحال لتقديم العروض الدينية كان مقبولاً. لم يكن دوره صعباً. فهو لم يكن يتكلم أبداً، لكن الغريب هو أن صمته جعله يريد أن يتحدث. وعلى الرغم من أن "دايموندستون" قد شرح أنهم كانوا يحاربون الفساد، ويتحركون صوب شىء ما أفضل، إلا أن "بارت" كان يزحف إلى الخلف بطريقة متواصلة. قال لنفسه، إنه

كان يأخذ من عالم سبب له الأذى، كان هذا سعياً روحياً. نادراً ما كان غضبه يعذبه الآن. وبالرغم من فعله، شعر بأنهم قد اهتدوا إلى نوع من البراءة.

لكن بالتدريج، بدت المهمة التبشيرية مثل حالة التشرد التى عاشها فى وقت من الأوقات، حمامات عامة، ووجبات بالصدفة فى مواقف السيارات. وانشق الطريق العام ليلاً عن مقهى عظيم شبه صاخب، يدير لوحات إعلانات تتجمع حولها الريح والأتربة والنباتات المتسلقة، وتبدو كلها مهملة عفا الزمن عليها. وبالقرب من مدينة أوكلاهوما رأوا أنواراً متقاطعة تعلو فوق المسطح المظلم للسهول. قالوا، يا حبيبنا يا الله، "آمين". يا لها من بركة! وحينما اقتربوا، تحققوا من أن الذى خلق الوهم مجموعة المبانى المكتبية بالأضواء التى تُرِكَت مضاءة لتشكل صليباً على كل جانب منه.

كان هذا التحرر من الوهم تدريجياً، مصحوباً مع مسرح الخلاص، والملائكة من المرتبة العليا، ورجال الأعمال، و"سيارات الشيفورليه ٥٧" الخطرة. لم يتوقف "دايموندستون" أبداً عن الحديث. وسرعان ما لم يعد فى مقدور "بارت" و"أندرو" و"موريس" أن يفعلوا أى شىء سوى أن يطلقوا تنهيدة "آمين" بصوت خافت. كان تليفزيوناً إنجيلياً أربعة وعشرين ساعة مباشرة هناك عند عجلة الشاحنة المقفولة، يمارس الشعائر، يحكى أحلامه، قراره بأن يتخذ اسماً مثل "سيمون"، "روك"، أصلب صخرة فيها، الحجر الأبدى الواحد، مصنوع من الضغط. قال، كنت فحماً، كانوا جميعاً

مستغرقين فى نوم سريع، محمياً بالشعائر أو مناجاة الذات، يهدهد مهده اهتزاز الشاحنة المقفولة.

أخيراً مكث "بارت" فقط بدون خوف من الحياة التى عاشها من قبل. لم يخبر "إيزا" أبداً كيف كانت حياة صادقة. وعلى الرغم من أنه كانت هناك فترات من الإصلاح وإعادة التقويم والعمل حينما أقسم ألا يتراجع، إلا أنه دائماً ما فعل. بدت الوحدة والشراب لا مفر منهما، ثم يهيم على وجهه. كان ينام على جانب الطرق بين الولايات فى الأخاديد والمصارف، فى السواقى والقنوات الجافة فى الجنوب الغربى، أسفل المنحدرات المتداعية التى يضربها ضوء القمر. لأسابيع لم يكن قادراً على أن يسمى الأشياء بمسمياتها. هام إلى ما وراء النبتات الشائكة والشجيرات المعمرة والصبار، من خلال الصحارى الصفراء والبنفسجية. لم يفهم أبداً كيف فقد الطريق، طبقات النفس مثل تلك الحمراء المهشمة: الرغبة البسيطة فى الحب وهذا الشعور السكير بالطفو، ثم الحزن الذى أسلم إلى الغضب. إنه يضرب رجلاً لمحاولة أن يسرقه. لقد سرق الآخرين. التقط القمامة. كانت مواد التلميع نادرة فى المتاجر الكبيرة، والتصورات الأنيقة للحياة فى الأماكن الأفضل، روما بالنسبة لقبيلة "الجوث" الغزاة الألمان. وجد كتباً فى كل مكان، فى الصناديق المجانية على أرصفة المشاة، أو على ماكينات بيع المأكولات السريعة، أو النوافذ المساعدة، أو فى الساحات العشبية، مظلات المطر، صلب مثل الكتب المقدسة.

لم يقصد "بارت" أن ينجذب قريباً من "إيزا". أراد "دايموندستون" منه أن يجعلها تنفصل عن "ليفون". إن الراحة فى حبها كانت أكثر من أن يستطيع الاستغناء عنه، لكن بالإنصات إلى حديثها عن أمها نوعاً ما، وجد "بارت" نفسه يريد أن يتحدث. لقد تعلم اختراع الحكايات من "دايموندستون"، ليستخدم أجزاء من حياته تتعلق أكثر بالمستمع. لكن هذا كان له التأثير الخطأ على "إيزا". ما الغريب فى ذلك، إن ما أدهشه حقيقة هو أنه استمر فى الكذب على الرغم من أن نواياه قد أصبحت مخلصة، أن تجد ما حلمت به فى شخصه. هطلت الأمطار الدافئة القصيرة لترتطم على سقف الإسطبل. تفحص شفتيها الشاحبتين، الجرح على أنفها، إشاراتها الضمنية، مراقبة من أجل علامة على ما سوف تعتقده.

مازالت هناك حقيقة فيها أيضاً، فالطفولة قد مرت كما لو إنه تم التخلص منها، والسنوات بعد موت أمه والطريقة التى قرأ فيها بدون تمييز، الأيام فى النهاية، قلة النوم حتى أنه فى عمر الثانية عشر كان له وجه منتفخ وعيون متورمة لسائق شاحنة. وعلى الرغم من الروايات التى علمها وتصور والده المجهول على أنه رجل حكيم صامت على الطريق على حاجز، متجمداً ومتحولاً، غير قادر على أن يكشف كل هذا الذى عانى منه. ومثل حياة "إيزا"، بدا أن حياته قد تقررت من خلال هؤلاء الذين كانوا غائبين.

وعلى الرغم من أنه قد قابل جدته فقط فى بضع مناسبات، إلا أنها كانت هذه هى الزيارات التى اجتذب منها من أجل قصصه. فى المرة الأولى حينما ظهرت قلقة وتحدثت بطريقة منفصلة ومؤدبة إلى حد بعيد، وحتى يمكن أن تكون باردة. قالت، جميل أننى تعرفت عليك يا "بارت". ومشيا معاً خلال المدينة، وشاركت قليلاً فى التاريخ. كانت أمها أيرلندية ووالدها فرنسياً، وعلى الرغم من ذلك لم يفهم كثيراً مما كانت تخبره به، لقد كانت تتحدث عن عداءات قديمة فيما بين الثقافات وخصوصاً حيث يكون العمل هو موضع الاهتمام. فالكثير من الفرنسيين قد غيروا أخيراً أسماءهم. لقد عرفت "مستر بيشامبس" أستاذ الأحياء والكيمياء الذى أصبح "مستر فيلدز" أستاذ الطهى والأطعمة. ذكرت السنوات الأولى التى أُغلقَت فيها المدارس الفرنسية والأماكن التى ذهب للعمل بها أبناء عمومتها وأشقاؤها، "مانشستر" و"ونسوكيت" و"فول ريفير". لكنه لم يعتبر أبداً أياً من هذه هى الطريقة التى فعلت بها "إيزا". وفى إحدى المرات فى "لويزيانا"، فى منزل الإيواء، أخبره الرجل العجوز "كاجون" أن المدرسين قد اعتادوا أن يجعلوا الأولاد يرقدون على الأرض الرطبة تحت مبانى المدرسة، كعقاب للتحدث باللغة الفرنسية. لم يشعر "بارت" بالفرنسية أبداً أو اهتم بها.

ربما كانت الذكرى القوية الوحيدة للعائلة هى الجنازة. فقد أخبره فى النهاية جده، غريب تقريباً، ما

الذى حدث لأمه. فهو قد تنهد وهمهم عن طرق الرب بقليل من الاقتناع. وفيما بعد قبل الرؤية ذهب ليتحدث مع زوج الأم، ووجد "بارت" نفسه وحيداً. وبعد الشوارع المتجمدة، كان الشعور بالقاعة الدافئة منفصلاً وغريباً، زهريات بالورود فى الأركان، باقة ورود بيضاء على النصف الأسفل المغلق من التابوت. كان حذاؤه يلمس البساط بدون صوت. اقترب، ونظر إلى الداخل. لم يتوقع أن تكون أمه. لابد وأنه يعرف، لكنه فزع إذا كان يعنى أنها ماتت. لقد وضعت الكثير من المكياج. قال اسمها. وكرره، "آمى". رفع يديها وحركهما من على صدرها. فك الأزرار من على قميصها. ترك نفسه يرقد بوزنه على جانب التابوت. كانت "تينكربيل" الجنية الصديقة تظهر فوق مشد صدرها تماماً. لم تكن أوشامها أبداً بهذه الحيوية، وتساءل ما الذى سيحدث لها فى التراب.

فى عشية موت "ليفون"، ترك "بارت" "إيزا" وهو ليس متأكداً بعد من نواياه. لقد أخبرها بالحقيقة، وأراد تغيير كل شىء، لكن خوفه كان كبيراً جداً. وفى الخارج، فى الظلام، حاول أن يفهم معنى هذا. إذا انقلب ضد "دايموندستون" ورفضته هى، فسوف يصبح وحيداً. ومتخفياً فى الغابة، توقف ليفكر فى أمر "دايموندستون" منذ ذلك الصباح ليخيف "ليفون" عند النهر. كانت الخطة بسيطة، تتماشى بالكامل مع تكتيكاتهم المسرحية. لقد ناقش "دايموندستون" و"أندرو" و"موريس" كيف يوقظون عند "ليفون" الخوف

من الله ومن الرجل الغريب الذى رآه. وعلى الرغم من أن "بارت" قد شعر أنه قد غَيَّر الولاءات، إلا أنه افتقر إلى الشجاعة ليرفض.

كان يجلس عند الصخرة، يحاول أن يقرر، وحينما سمع صوت سيارة "ليفون" تسلق إلى الطريق. لم يكن يتوقع أن يعود سريعاً جداً. تنصت، فالطريق لم يكن بعيداً خلف الغابة، وكان صوت مرور السيارات الخافت المستمر يبدو كأنه جزء منه. وفى النهاية مشى باتجاه النهر. قال لنفسه، إنه يريد أن يرى زوج "إيزا" بنفسه، ليعرف إذا كان ما قالته صحيحاً.

كان صوت تدفق المياه عالياً، وعندما عبر مرتفعاً فوقها، ألقى ضوء القمر بظله. كان يفكر فى مكان يختبئ فيه، لكن "ليفون" كان بالفعل هناك، يحملق فيه. لقد واجها بعضهما البعض لما يقرب من دقيقة. اعتقد "بارت" أنه وقع فى شرك، وجعله هذا يدرك كم كان أحمق. لابد وأن قلب "ليفون" قد توقف ببساطة. فقد تهاوى بعد لحظة. وخاض "بارت" فى النهر وجثم. كانت عينا "ليفون" مفتوحتين، وعضلات رقبته مشدودة. لمس "بارت" صدره، ثم رسغه. حمله ومشى تجاه المنزل قبل أن يتحقق من أنه سيكون متهماً.

بدأ العرق البارد يتصبب من إبطيه وبطول ظهره. وبرقة على قدر ما استطاع، عاد إلى النهر، وخطا بداخله. لقد احتفظت الأمطار بالتيار عالياً وموحلاً، وتتبعه إلى جانب الجبل. وأتى إلى المكان الذى كان

فيه أثناء مشيه، بركة واسعة وأحجار منخفضة فى المنتصف. أرقد "ليفون" فى الماء. ارتعشت يداه. تساقط العرق من أطراف أصابعه. اختار حجراً كان أكبر قليلاً من "ليفون". انثنى ورفع حتى ارتفع إلى أعلى، المياه تمتص حول ركبتيه. أخذ الجسد وتأمل الوجه فى ضوء القمر. بدا للعينين بريق خافت. لم تكن هناك قضية. ما أخبرته به "إيزا" كان حقيقياً. دفع بالجسد إلى أسفل وجذب الحجر إلى الخلف. أخذ خطوات قليلة وتحول فى دائرة. ربما فى الصيف عندما تكون المياه ضحلة وصافية، قد يلاحظ شخص ما. ومضى عائداً أسفل الجبل، بمحاذاة النهر حتى أتى إلى المكان الذى كان ينتظر فيه "ليفون". وبحرص عبر من خلال الحقول ليبحث عن "دايموندستون"، فهو يعرف أنه إذا بقى سوف يُقبض عليه. فإن عاجلاً أو آجلاً، سوف تقود إليه آثار الأقدام الموحلة.

كل قرار منذ ذلك الحين يمر من خلال ضباب الرعب. وبمجرد أن اكتشف "دايمونستون" ما قد حدث، أخبر "بارت" أنه هو و"موريس" و"أندرو" سوف يتهمونه إذا اضطروا لذلك. كان الرحيل بدون مراسم وداع. أدخلوا الخيام إلى الشاحنة، وتركوه فى الحقل. مشى "بارت" إلى الغابة وانتظر حينما بدأت الأمطار. سمع أصوات وصول السيارات وشاهد أضواء سيارة الإسعاف. لقد عرف أن حجمه فقط علامة كافية على إدانته.

وفى هذه الشهور فيما بعد، فى "ليفيستون"، فى كل مرة يريد أن يهرب، كان يشرب. إن مسئولية أفعاله كانت تلازمه باستمرار. لقد عاش بالرغم من ذلك كثيراً جداً ولم يقم بالاختيار أبداً، وفقط مع تعاطيه الشراب تتركه هذه المشاعر. حينما وصلت "إيزا" وهى حامل، كان ارتباكه وغضبه لا إرادياً. لقد آلمه أن يرى خوفها. لقد عرف أنه إذا أخبرها أنه قد قتل "ليفون" سيجعلها ترحل. لكن حينما قالها أراد أن يرى إذا كانت ستبقى، على الرغم من أنه لم يعطها هذه الفرصة. كان غضبه عارماً. فى صباح "الكريسماس"، استيقظ متنبهاً على صعوبة فى التنفس وألم كما لو إنه تلقى ضربة على صدره، وشعر بحرارة جرح لن يصعد أبداً إلى السطح.

توقع طوال هذا النهار أن تعود. شعر أنها لا تطالبه بشىء بعد كل هذا، فيما عدا أن الطفل له. وفى المساء لم يرغب فى الشراب، خرج وقاد السيارة. وعبر "أندروسكوجين" إلى "أوبورن"، ثم اتبع المخزن عائداً. أضاءت شجيرات أعياد الميلاد النوافذ، وتذكر الكتب المصورة التى تلقاها وهو صبى. هذه التواريخ المشمسة والطريقة التى حلم بها بالامبراطوريات، بتلك التى تتناغم مع النضال والإشباع الناجم عن النضال. أراد أن يفشل، أن يشعر بكل ما يجذبه للفشل واليأس. الأوراق التى عصفت بها الرياح، وسائل المواصلات العرضية، والسفريات القليلة مشياً على الأقدام، بدت كلها مدفوعة ببعض ألم الذكرى. أوقف السيارة وأغلق عينيه.

ولأول مرة تساءل عن قوة الذكريات عليه، هذه الأمسيات الشتوية، حينما تغرب الشمس مبكراً جداً، وتحممه أمه. ربما تُجلِسَه عارياً فى سلة غسيل مبطنة، كتفاها وفخذاها مثل صفحات الكتاب الملون. تمسك به على بطنها وهى تغسله. وتلمع أيقونة "تينكربيل" على صدرها، ومشمع الأرضية مفروش يتلألأ عليه البلل. وفيما بعد، تضعه على المقعد الأرجوانى المجدول للمرحاض، تغطيه وترسم عليه بأقلام الشمع للحمام، شرائط حمراء وزرقاء تكون فى البداية مزعجة، لكن سرعان ما تصبح مثل تلك التى كانت لديها، قلوب وأفاعٍ وأزهار، ثم تمسح المرآه وتضعه أمامها حتى يغطيها الضباب ثانية. فكر فى قوة الغياب. كان موتها صورة منه فى التاسعة وهو عائد عبر منطقة الغرب الأوسط: الهمهمة البطيئة للسيارة الأجرة لمؤسسة "يوهول"، وما وراء النوافذ، زرقة الشتاء، ومسافة الحماية والدعم. فكر فى نفسه، أو فى طفل، وحيد.

وعندما عاد إلى البيت جرب رقم "إيزا" فى فرجينيا. لم يكن موصلاً. طلب الشرطة التى أوصلته برجل أخبره بأن اسمها لم يكن مدرجاً على النظام.

أخذ "بارت" زجاجة من تحت الحوض. عثر على الكاميرا البلورايد. كان يرى أن عظمتى خد "إيزا" بارزتان قويتان. ذكرته بـ"الكريوليين" المنحدرين من أصل فرنسى فى "لويزيانا".

عرف أنه كان يهجر الآخرين غالباً، تعلم أن يتوقف عن الاهتمام السريع جداً. أخبره "دايموندستون" أن الله وحده هو الذى يستطيع أن يخفف أحماله، وآمن "بارت" بذلك.

لكن، حينئذ كان ببساطة يمشى مبتعداً . لأن الحب يقربه من البراءة، ولم يكن هناك مكان يصل إليه فى البحث عن الله. ربما مازال "دايموندستون" على حق، وأن كل الرغبات تقود إلى رغبة واحدة. ربما أعتقد "بارت" فى الخلاص، حتى الآن، بينما هو ينتظر، مثلما أطبقت الثلوج على العالم بالصمت، وفكر فيمن هو الشخص الذى يمكن أن يستحضر المعنى إلى حياته.

وفى منتصف يناير، وصلت موجة حارة، عَمَقَت من زرقة السماء، كشفت المنحدرات الثلجية عن الحصى والنفايات وملأت الشوارع بالطين والجليد الذائب.

كانت وظيفته حارس فى فريق التزلج. إن سرقة نقود "ليفون" كانت كذبة. فقد صرف الكثير منها على الشاحنة وعلى الحانة، لكنه فقد الباقى فى لعب الورق فى حفلة. فقد جعله "زى"، ابن عمه الذى لم يره منذ سنوات، يشرب ويتحدث عن أبيه خلال اللعب. وفى الصباح التالى، أحصى "بارت" ما قد تبقى معه. فكر فى المغادرة وعدم دفع الإيجار. وبدلاً من ذلك طلب من "زى" أن يساعده فى العثور على وظيفة، وتم توظيفه بعدها بأيام قليلة. كان واجبه أن يعلق

السلسلة الثقيلة على الأغصان المقطوعة أو الأشجار، أو ليحمل الأشياء للعمال الآخرين، على الرغم من أنه فى معظم الأحوال كان فقط يقف فى البرد الشديد وينتظر.

ومع ذوبان الثلوج، كان كل فرد فى الفريق ينتابه التعب، وتتفتح الأرض وتترك قصبات سيقانهم مغروسة فى الطين. وفى يوم الجمعة بعد ذلك بدأ الراديو يعلن عن توقع موجة حادة من البرد تصل إلى أربعين درجة تحت الصفر. قال المذيع، رياح قطبية وسماوات صافية ـ ومع كل هذه المياه، فإن "ماين" سوف تصبح أكبر ساحة لهوكى الانزلاق فى الولايات المتحدة بامتياز.

نسى "بارت" موسم الوحل، ورائحة الأرض، والرياح الدافئة الآتية من بعيد، الطريقة التى يعطس بها بتأثير الشمس المشرقة. كانت أمه تضحك تتثاقل خطواته ويجر قدميه. فكر فى "إيزا" وفى طفلهما. لم يستطع أن يسيطر على غضبه الشديد فى كراهية الذات. شعر بأنه يستطيع أن يجذب "الزحافات" بالسلاسل ويسحب الغابة والتلال مثل "الملاءة" من على السرير. وعند الغداء، أخذ زجاجة من أسفل مقعد الشاحنة.

وأخيراً، بعد أن سحب السلسلة إلى المكان، صاح فى العامل أن يسرع قبل أن تُقطَع يده. سحقت الوصلات طرفى أصبعين من أصابع يده. وصرخ، وتجمع الرجال ولكن عامل التشغيل الذى كان

يعتذر،يُصر فى الوقت نفسه على أنها غلطة "بارت".
أرسل كبير العمال "بارت" إلى المستشفى وأخبره أن يعود حينما ينتهى من صرف تعويض العاملين. لقد استؤصِل طرفا أصبعين من عند الظفرين، كانا منسحقين تماماً.

عاد إلى البيت، وحينما أوقف سيارته، كان "ميجويل" جالساً على درجات السُلَّم. لم يره "بارت" للحظة.

هل جرحت نفسك؟

نعم، لا شيء. علِم "بارت" أن شحوبه وامتقاع لونه قد وشى بحالته.

لقد فعل أبى هذا. مرات كثيرة. أظن أنه شىء طبيعى حينما تتعامل مع الماكينات.

أظن. الكتاب يسير جيداً؟

نعم، ما عدا أن أمى وأبى يتشاجران.

أوه

أين زوجتك؟ هل هى فى المستشفى تضع طفلها؟

لا. إنها مع عائلتها.

سقطت قطرات الماء اللامعة بصوت عالٍ على طول الأوراق.

قال "ميجويل"، على أية حال ربما أنت تحتاج إلى الراحة. أراك فيما بعد.

وبالداخل لم يتناول "بارت" المسكنات أو الخمور. كانت أصابعه تنبض. وتجمع العرق على طول الجزء المطاطى من ملابسه الداخلية. جلس وترك مشاعره تتجمع، العصب فى ذراعه مثل سلك تسرى فيه الكهرباء. كما لو إن كل عاطفة عرفها فى حياته تجمعت فى يده.

إن المرة الأولى التى ركل فيها الشراب كان فى موقف الولاية بالقرب من "ناتشيتوتشيس". نام لمدة أسبوع تحت طاولة المنتزه. لقد نسى كيف كان الأمر صعباً. أراد أن يمزق كل شىء، أن يرتدى ملابس نظيفة، يأكل، يرقد وينام، يبدأ من جديد. أراد أن يستيقظ من كل هذا، أراد أن يقرر. هل كان دائماً خائفاً من الفعل؟ لقد عرف كيف أنه من السهل أن يتقاعس عن الحركة.

استيقظ وبدأ يحزم أشياءه. سيذهب إلى فرجينيا ويجد "إيزا". أخذ الكاميرا البلورايد وجعلها فى أقرب مكان فى الحقيبة. إنها تحمل واحدة من دفتر ملاحظات "إيزا" وبعض بطاقات الهوية القديمة: "جودى وايت". فحتى من لقطة الرأس استطاع "بارت" أن يخمن حجم الرجل، الوجه المسطح والعيون المحملقة والبراءة الخرساء والقوية، فلا يوجد أحد يستطيع أن يكون أى شىء غير ما كان عليه. شعر "بارت" فجأة بالإجهاد. أراد أن يرقد، شعر بأنه بحاجة إلى أن يستريح. إن هذا القبح يشتعل بداخله ويملأه بالحزن، شعور بالعجز أمام حياتيهما اللتين لا مفر منهما.

نام نوماً متقطعاً ومتشنجاً، وحَلِم بالمستنقع، بالطين تحته الذى استطاع أن يستشعر عمقه. وفى محيط هذه الليلة عرف بوجود شخص آخر، وظن فى البداية أنه "دايموندستون". لكن الحضور كان له الثقل الذى يستشعره الطفل من شخص كبير. لم يستطع الحركة، ينتظر حتى فى نومه الأب، هذه الذكرى التى يحتفظ بها لم تتغير طوال هذه السنوات، الرجل العملاق يحملق فيه من عبر الشارع.أراد أن يهرب، أن يغوص فى المياه السوداء.

استيقظ. تجمد ضوء النافذة على ستار الجليد. فتح الباب، البرودة ألم يمتد من صدغه إلى أعلى شعره. بدت السماء لامعة جداً والقمر واضحاً بغرابة، مكتملاً ولكن هلال خافت، كما لو إن اللون الأبيض يلتمع فى مقابل الزرقة الزاهية المفرطة. ظهر العالم محدداً صارماً مجرداً من جراء البرودة، بستان غامض من النبتات الجليدية المغموسة فى سكون مصمت. وعاد إلى الداخل. كانت هناك نصف زجاجة من خمر "البوربون" فى خزانة الملابس. سكبها فى الحوض وعاد إلى فراشه.

وحَلِم مرة أخرى بالمستنقع، بالانتشار الصامت للوحل. كان راكعاً يحملق فى المياه، ظامئاً أكثر من أى وقت أبداً. استيقظ ووقف والتف أمام الحائط. ارتعشت يداه. وفعلها فى الحمام. وأضاء النور. إنه لم يحلق. بدا جلده كثير الحفر ومجعداً. واستند إلى الحوض. كان منتفخ الصدر وذراعاه متورمان من شهور الإجهاد والمشقة.

حملق فى الوجه الوقور المهيب. إنه قتل رجلاً، وسوف يكون، ربما كان بالفعل أباً. كيف هو مازال يشعر بنفسه صبياً؟

ذهب إلى الباب. بدأت الثلوج فى التساقط. التقط التليفون وطلب الشرطة. فى هذه المرة رجل آخر أكد على صحة اسم "إيزا". كان فظاً على عجلة من أمره، وأبلغ "بارت" أنه سوف يعاود الاتصال به. وبعد عشرين دقيقة، رن جرس التليفون. الآن، الرجل يتكلم ببطء، بدا أنه يتأنى، الآن يكرر الكلام. لم يرد "بارت". نطق الرجل ببطء عنواناً فى أعلى شمال نيويورك. وبعد ذلك اندهش "بارت" من أنه استمر فى الكلام. وبالتدريج، فهم "بارت" أن الحديث كان يدور حول طفل.

تغير، وارتدى معطفه. وأخذ حقائبه إلى أسفل. تشقق الجليد فوق الوحل المتجمد. كانت سخانات الشاحنة تضرب فى الهواء. فقط الألم استبد به. ولذلك أراد فى مرات كثيرة أن يختفى فى الحركة المفاجئة الأخيرة. الآن كان يقود بحذر مبطئاً سرعته قليلاً ثم أكثر، قبل أن يزيد السرعة مرة أخرى.

لقد فكر فى كره الذات، أو هل كانت هى المسئولية ببساطة؟ كل هذا ربما يدعيه شخص فى حياته، كل هذا ينبغى إدعاؤه لأنه لا يمكن عدم فعله. تجاوز المقبرة، ثم استدار واقترب من البوابة. خرج ومشى فيما بين القبور. تكسرت الثلوج أسفل حذائه، والليل كهف كبير عند ركن عينه. أخبر "إيزا" ذات مرة

أن اسم أبيه كان "بارثليمى"، لكنها كانت كذبة. ففى يوم جنازة أمه، رأى شاهد قبر فى الجزء الفرنسى القديم من المقبرة. كان مكتوباً عليه، "بارثليمى"، ولأنه لم يعرف من قبل اسم أبيه، قرر أن هذا لابد وأن يكون اسمه، وأنه لابد وأن اسمه الخاص قد اشتُق منه. وربما قد أحبه أكثر. لقد كانت كذبة صبى.

حاول أن يبقى ذهنه هادئاً. كانت له ذاكرة غامضة عن أشجار مزهرة ومبنى حجرى. رآه الآن فى البرد. فذوبان الجليد كشف عن معظم الأحجار. وبعد فترة وجده. "آمى بيولا جراى ١٩٥١ ـ ١٩٧٦". وبرفق ركع على هذه الأرض الخفية المهملة. فكر فى "إيزا" باعتبارها الشخص القادر على إنقاذه. لمس اللوح الحجرى لقبر أمه. كان عمرها ٢٥ عاماً. لقد أحصى السنين. وحينئذ تحقق من أنها ماتت.

فيرجينيا ـ لويزيانا
فبراير ١٩٩٤

لقد كان الطريق بين الولايات جنوباً بعد "دى سى" يبدو غريباً على الأرض، فهو طريق عسكرى مقام عليه سواتر بحواجز خرسانية وسدود، والسماء صفراء بلون الأضواء فى أنفاق الطرق السريعة، مع ضواحى متجمعة حولها مثل المجرات. كانت المدينة خاوية بشكل مخيف. يوم الأحد. كل شارع كان يشبه الشوارع الأخرى تماماً، مبان رابضة مثل المخابئ. إن حلمه القديم بأمريكا البريئة قد تبدد. لم يشعر أبداً بالاهتمام بالألم. لقد اعتقد أنه من سيدمر نفسه.

شرح له هذا طبيب عجوز فى المستشفى. وبعد ذلك كانت هناك اختبارات دم، وأوراق ليملؤها. كلمات وشفاه، مداخل لها صدى. ولبضع ساعات لم يلحظ أحد السيارة الواقفة بعد الظهر، لا تلال ثلجية توقفها. لقد فعلوا كل ما باستطاعتهم. ولسنين سوف يبحث "بارت" عن الكلمات ليشرح هذا حتى يستسلم

للأبد يحلم بأنها كانت تُغمِض عينيها، ترى سماء الليل. قال الطبيب، إنها معجزة ـ الطريقة التى رجعت بها الأشياء.

تعين على "بارت" أن يمكث أسبوعين من أجل إنهاء أوراق قبل أن يذهب. وللمرة الأولى لم يكن من الصعب أن يمتنع عن الشراب. لقد جعلته الممرضات يقضى الأيام بطولها معهن، حتى يمكنه أن يتعلم. لقد حزمن الحقائب، قلقات بوضوح، لا يتركنه يذهب حتى يشرحن له كل شىء. كانت هناك زجاجات للرضاعة، وحتى كتب، ومقعد سيارة لطفل، أحضرته إحدى النساء من البيت.

كرر لنفسه، لقد كانت معجزة. لقد تذكر شيئاً قاله "دايموندستون" ـ نحن نسمو بالأسى، ثم لم يفكر لبرهة.

فى "فرجينيا" توقف عند المنزل. كان الباب غير مغلق. لقد جعله النبض العميق لهذه الخطوات الأولى يتجمد. كان المكان هيكلاً، حجرات عارية منفصلة، سلوك معلقة ومعزولة. اعتقد أنها سوف تعود هنا. لقد خاطر بالمجىء على أمل أنه ربما يجد شيئاً ما منها يمكنه الاحتفاظ به للمستقبل. كان هناك فقط ظرف ورقى على الأرضية، من وكالة التحقيق.

وواصل جنوبياً خلال اليوم، يتوقف من أجل الإرضاع أو ليهدئ أى قلق أو بكاء. وفى هذا المساء وصل إلى طقس أكثر دفئاً. وعبر إلى "لويزيانا". شعر

بثبات أكثر، ربما شعر أنه أقوى. وفيما بعد أخذ غرفة فى فندق صغير. كانت طفلة هادئة.

راقب نومها لفترة، ثم خرج. انبعثت أصوات المساء من المستنقع عبر الطريق العام، السكون المظلم، تضيئه توهجات شبكية العين. كان فى السادسة والعشرين. كانت سلوك الكهرباء معلقة فى السماء، تُرى بالكاد. عبر الممرات الخالية. مرت شاحنة، صفق صوتها تحت القبعة. وقف على حافة الوحل، وبريق الماء يضىء من خلال الأشجار. لقد عرف هذا المكان. فجأة بدا كل شىء واضحاً وبسيطاً، العاطفة التى شعر بها تجاه الطفل الصغير التى كانت جزءاً منه. ربما أن "دايموندستون" قد أعتقد بالفعل أن القوة الوحيدة الأعظم من المعاناة الدنيوية كانت هى حب الله. لم يعد "بارت" متأكداً. مرت شاحنة أخرى، تلملم الظلام، جعلته يتغلغل إلى الداخل بامتلاء أكبر من ذى قبل. اندفع الهواء الرطب من فوقه. وانتظر برهة أطول فقط ليترك نفسه يتنفس، ثم مضى إلى الداخل لينام.

الكتاب الثاني

الجزء الأول

كيبك ١٩١٨ - ١٩٦٣

سوف تعود "جورجيانا" للبقية الباقية من حياتها إلى هذه السنوات الأولى، تتوقف عند الكتاب المقدس، ورياح الخليج وشجرة الأرز البيضاء، وصوت جليد النهر على صخور الشلال. وكفتاة هى لم تبتعد لأكثر من بضعة أميال: على الأرض، تناثرت المنازل الخشبية فيما بين مصب النهر والشلال بارتفاع الحظيرة؛ أو على البحر، قرية "جيرسى" المختصرة كمسحة من ضوء على الساحل الخلفى. فقد كانت تخصها. عرفت تاريخها، الإغراء ورحلات الطيران التى أتت بالعائلات من "جاسبيسى"، أو جزيرة "أنتيكوستى" القريبة، المستعمرات الأولى حينما اكتشف بالتأكيد "كابتن فورتن" مدرسة لطائفة تابعة لكنيسة "ريدج بوينت" فى الستينيات من القرن التاسع عشر. أحبت أن توضح أن اسم "ريفيرى أوتونيير"، أتى من أول شلال حيث تنتهى عنده المنازل، لكن على بعد ثلاثة

أميال توجد منازل أخرى ارتفاعها مائتى قدم مع موانع الصواعق مرتفعة بما يستحقه الرعد.

عاشت سنواتها الأولى من أجل أنفاس الخليج المشبعة بالملح وهواء الجبل. طويلة وأكتافها عريضة، فضلت الملابس القاتمة التى تظهر منها يدان بضخامة يد أبيها. وكفتاة تعلمت أن كل المهن ذات مرتبة دنيا لا تستحق التضحية من أجلها. ماتت أمها أثناء ولادتها، واعتمد أبوها عليها لإدارة المنزل ورعاية أختها الأصغر منها. وجدت السعادة فى ضخ المياه عند الفجر، فى رائحة أعواد الثقاب حينما تشعل الموقد، فى خياطة ملابس أختها. كانت تعمل دون كلل لتوسيع الحديقة، تزيل العفن من ثمار العام السابق. لبست حذاء أبيها القديم، وبعد ظهيرة كل يوم تأتى لتجهز العشاء، تنفض الطين والرمال تماماً عن أحد نعليها ثم عن الآخر. وفى اليوم التالى حينما يجفان تكنسهما من المدخل. ولأنها ولِدت فى عام ١٩٠٠ كانت متأكدة من أنها لن تعمر إلى ما بعد هذا القرن، وأسمتها توأمها الهزيل. لقد عرفت من أبيها، وحتى من أختها الصغرى، أو ربما ذكرى باهتة من أمها تخبرها أنها يجب أن تهتم وتتخفى بصورة أفضل. لقد عرفت أن الكتب المقدسة تدعو إلى الاستكانة والتواضع، وفى الكنيسة تعترف بأن مصدر فخرها أنها الأقوى، وأن هناك اهتمامات معينة لا ينبغى وضعها موضع التطبيق.

وحينما كانت فى الثامنة عشرة، وصلت الأنفلونزا التى يُعتقد أنها انتشرت من خنادق الحرب، والآن

تنتشر فى أرجاء العالم، مئات الألوف يموتون على الساحل الشرقى، عجز فى النعوش فى بوسطن وواشنطن. ولأنها غير قلقة على نفسها، لم تفكر فى القلق بشأن الآخرين. كانت تراقب السيارات المغطاة بالأسود وهى تندفع، كأفراد أولاً، ثم عائلات تُنقل إلى المدن، "جيندرونس"، الأب والزوجة والأطفال الخمسة كلهم، نصف "ليفيسكوس"، "لابيير" و"بوركو" ويعلم الله وحده عدد الآخرين. قرر أبوها أن العائلة سوف تبقى فى البيت، دعها تمر. وذات مساء، سمعوا شخصاً ما يتسلق الشرفة. ذهبت إلى الباب ورأت أنه أحد الجيران، "جيروم مارسو". كان أبوها يقرأ بصوت عالٍ أجزاء هزلية من ظهر ورقة، على الرغم من أنهم سمعوها من قبل. توقفت أختها عن تمشيط شعرها، وأضاء مصباح الزيت رباطاً فضياً بطوله كما لو كان سطحاً واحداً مستمراً. كانت الثلوج الأولى فى العام تتساقط، ومال "جيروم" على الباب وطرق بشدة، وبدا وجهه مغضناً شاحباً، وطرق ثانية. تقبض يده على قلادة يتدلى منها صليب يطرق به على الزجاج.

قال أبوها، نحن لا نستطيع أن نتركه بالخارج هناك.

فى هذه الليلة أتى الشتاء. الأجنحة الصفراء للغسق تخترق السحاب عن بعد. الموجات المضيئة من الثلوج الرقيقة تهب من الخليج، والباب يفتح بصوت مثل زجاجة مغلقة تتكسر، طوفان يتدفق من الهواء البارد. كانت شفتا "جيروم" زرقاوتين، وكما أخبرهم

فإن كل شخص قد مات، زوجته وبناته وأولاده، أخت "جورجيانا" راقبتها بعينين مظلمتين خائفتين. وأخيراً، حينما مضى كل شخص للنوم، تركت "جورجيانا" فراشها، ودفنت وجهها فى شعر أختها، ورفعته وتركت الخيوط الكثيفة تتساقط على وجنتيها.

وبعد مرور أسبوعين، كدرت السحب نور الشمس فى الصباح، ضربت جفون عينيها، استيقظت، تنفث الضباب، لا توجد بعد حرارة. مازال الموقد مفتوحاً وريح الدخان تنثر نصف دائرة من الرماد على الأرض. أشعلت النار أول مرة منذ أسبوع وبدأت تأكل ثانية. جاء الرجال من القرى وأخذوا الجثث بعيداً، ورأت فى مايو أباها وأختها مسجيين على الأرض مع المئات من الآخرين. لم يكن يونية حقيقياً. ومشت إلى ما وراء المنزل من خلال أعشاب "الألفية" والنباتات البرية التى نمت حول الحديقة. مشت طوال الليل إلى ما بعد أشجار التنوب والحور الجبلية، من خلال نباتات "اللينة" دائمة الخضرة وخمائل النباتات الحمضية والنباتات الشائكة التى مزقتها بيديها وفركتها على ذراعيها. ونبحت كلاب القرية على إيقاع النبضات الصامتة للبرق فوق الخليج، وتوهج الماغنيسيوم من سحابة إلى أخرى. ونزلت بخفة إلى الخارج، وتسابقت الكلاب نحوها وتجمعت حولها فى دائرة، وطردتهم بعنف بعصا.

وفى يوم الأحد هذا، بعد الكنيسة، سرت شائعة بأن رجلاً يسمى "هيرفى هيرفى" أتى إلى المدينة

يبحث عن زوجة، وأن له أطفالاً فى المنزل تحت رعاية أكبرهم الذى كان حينئذ فى الثانية عشرة. وقف فى قميص أحمر ملفوف على مرفقيه، وقبعة رأس ارتداها بزاوية. وكان يضع على عينه رقعة مثل قرصان، وكان أطول من أى رجل آخر، ونظر إليهم كما لو أنهم لا يستطيعون النظر إلى الخلف. ومن خلال جيب صدره ظهرت الخطوط الخارجية لسجائر داكنة.

لحقت به على منحدر صخرى فوق أحواض السفن. هبت السحب حتى أن الظلال تحركت على طول الساحل مثل ظلال عمالقة تمر. أخبرته، أنا سأكون زوجتك. نظر على الحواشى النظيفة لملابسها وعليها من أعلى، على رقبتها، وأخيراً على وجهها، ووقف هناك، يدخن. ولاحظت هى العضلات من أسفل أكمامه المشمرة. أومأ مشيراً إليها، وعادا متوجهين إلى الكنيسة حيث تحدث مع الكاهن وهو لم يعرف بعد اسمها، على الرغم من أن ثلاثتهم كانوا بمفردهم واستطاع أن يشير. وفى اليوم التالى حينما انتهت الإجراءات الرسمية، ذهبا إلى المنزل. وفيما بعد ساعدته فى تحميل كل شىء على القارب. وبعد ذلك خطت إلى الداخل، وأبحرا جنوباً عبر "سان لورنس" المدينة التى بدت متجمعة مع بعضها بخيوط شبكات الصيد، إلى مزرعة جعلتها تظن حين رأتها أنها طينية.

ثمانية وثلاثون عاماً وهبت نفسها للعمل، فطمت الأطفال من الرضاعة والزوج من الزجاجة، فكلما

بكرت كان أفضل وإذا تأخرت كان أصعب، وأبداً ليس لآخر مرة. لقد علمت هذه الأسطورة واللعنات العائلية، ولم تدع نفسها تذوى فى أى شىء آخر مهما كان، وراقبت بالاهتمام الهادئ نفسه زوجها بينما أطفالها يشيخون بسرعة كبيرة جداً، ويموت الضعفاء منهم. بالنسبة له التفاخر والكبرياء هو عائلة قوية؛ بالنسبة لها كان عائلة مقدسة. ومن هذا بدأ تنافسهما. كان يشعر بالخزى والعار حينما يعلق القرويون على الأقزام، تماماً مثلما كانت تغضب حينما يتفادى الآخرون القداس الكنسى ويهجرون أنفسهم إلى الفساد الأخلاقى.

لم تكن هناك طريقة لتصور أن مثل هذه العشيرة يمكن أن توجد. ومع الوقت توقفت عن أن تفكر فى أبنائها كأبناء، ولكن بدلاً من ذلك كأشقاء. وباستثناء الأقزام، فهم اهتموا بسلوك عصابة الشارع، يزعجون الأطفال العابرين وفى المساء يسرقون السجائر والزجاجات من المخمورين. كانوا أضخم الرجال الذين شاهدهم أى أحد على الساحل. وفى المناسبات النادرة التى تحدثوا فيها كانت للتفاخر. لقد سمعتهم يتحدثون عن مشاكسة البحارة لبدء الشجارات، اقتلاع عين رجل بزجاجة مكسورة، الإمساك بخادمة فندق فى طريقها إلى البيت. ومن ناحية أخرى ظل المنزل صامتاً، وهى ترتاح مع الصمت الأعمق للشتاء حينما يرحلون إلى معسكرات الرحلات فى أعلى الشمال.

وفى بعد ظهر أحد الأيام، أتت إلى ابنها الثانى، "جين"، راكعاً فى حجرة الجلوس على السجادة يصلى

من أجل خلاص العائلة. لحقت به، وحينما انتهى ذكَرته بأن الضعف سوف يرث العالم، على الرغم من أنها منذ هذه النقطة فصاعداً، لم تكن مع الضعف الذى دافعت عنه. كان دارساً سريعاً، وسرعان ما صار مؤيداً للاستشفاء، ومنذ ذلك الحين كان من المفترض عموماً أنه سوف يلتحق بالكهنة.

فى البداية، مع الأفواه الكثيرة التى ينبغى إطعامها، فهمت لماذا تخلص "هيرفى هيرفى" من بضعة أقزام، واحد إلى زوجين لا أطفال لهما، وآخر إلى خباز سمين كان سعيداً بما استطاع أن يحصل عليه. كانت غاضبة، لكنها عرفت أن الأقزام سوف يكون حالهم أفضل فى مكان آخر. لكن فى اليوم الذى لم يعد فيه "جين" من المدرسة، وأخبرها الآخرون أن "هيرفى هيرفى" قد أعطاه إلى صاحب الفندق، ذهبت واستردته. تعين عليها ثلاث مرات أن تجده، وفى إحدى المرات مشت أربعين ميلاً إلى أحد المحلات حيث وجدته يرتدى مريلة نظيفة يرسم بناسخ "الاستنسل" أشكال الورود على حواف المرايا. ومنذ ذلك الحين كانت تأخذه معها فى كل مكان. وفى المساء كانوا يذهبون إلى الكنيسة، بينما هى تنظف الأرضيات، وهو يؤدى واجباته الدراسية على المقاعد الخشبية. وكل كلمة من الصلاة تنطق بها كان يكررها، حتى أنه فى إحدى المرات أصر على أن يساعدها. وفى تلك الليلة وجدته فى الحمام يزيل شيئاً من يديه. حينما سألته ماذا بهما، أخفاهما خلف ظهره، ثم بكى

حينما جذبتهما ورأت البثور المائية والتقرحات من حك الجلد. وبعد ذلك لم يعد يكرر كلماتها أو يساعدها على الرغم من أنه بقىَّ ودَرَس وأنصت.

وحينما بدأت الحرب، لم تندهش كثيراً من أن قائمة التجنيد لم تشمل سوى القليل من الأشقاء الأكبر، بينما ضمت "جين". أول رسالة وصلتهم تقول إنه حصل على وظيفة طابع على الآلة الكاتبة، وحملت الرسالة الثانية التعازى من جلالتها فى موت ابن آخر. وبعد أربع سنوات، عاد "جين"، كان رجلاً ضعيفاً شاحباً شارد العينين، لم يكن ينظر إلى أى أحد. ولم تعد يداه ثابتتين إلا حينما يدخن، ويشمر ساعده، ويضع السيجارة بالتدريج إلى جانب خده مثل امرأة لعوب. تحدثت "جورجيانا" عن الكيفية التى سوف يذهب بها إلى معهد اللاهوت الآن بعد أن انتهت الحرب. وحينما انتهت، قال فقط، أوه يا ولد الطريق الذى سلكه السائحون. وفى اليوم التالى كان قد ذهب.

وفيما بعد أخبرها "هيرفى هيرفى" أن "جين" هو الوحيد الذى لم يرسل حصة من أجره فى الجيش، ولم تقل شيئاً لأنها كانت تعرف. وخلال الشهر التالى تلقت بطاقتين بريديتين، إحداهما مع صورة لمونتريال التى حملت إهداء "ليس بعيداً"، والأخرى لسلسلة الجبال الكندية الهائلة تغطى قممها الثلوج، مكتوبًا عليها "بعيداً لكنى راضٍ بما أملك". وبعد أسبوع هربت ابنتها التى تبلغ أربعة عشر عاماً وتركتها مع توأم.

وفى هذا المساء، بعد تنظيف الكنيسة، جلست فى الظلام تشم رائحة مطهر التنظيف. احترقت بضعة شمعات ببطء فى الزجاج، وألقت بظلال متكسرة على الحجر. وذات مرة فى مقاطعة "ريفيروتونير"، اقتربت الحيتان من الشاطئ، تقفز فى دوائر تثير دوامات من الضباب، وقد أخذت شقيقتها لتراها. وتوقف هؤلاء الذين تجمعوا عن مشاهدة الحيتان، وتحولوا يحملقون فى أختها التى قد وصلت من أجل أن تأخذ يد "جورجيانا" لتذهب. أخبرت "جورجيانا" فى هذه الليلة، إن لك رموش عينى نفسها. قالت "جورجيانا"، نعم، لكن هذا فقط. لقد أدهشها أن تتذكر. لمست وجهها. لقد جعل السن وجنتيها وأصابعها مخدرين كما لو كانوا مجمدين من البرد. وتحولت مفاصلها إلى رماد. أرادت أن تصرخ، لكن كان من الأسهل أن تنسى.

فى هذه السنوات، وجدت الراحة فقط فى الكنيسة وفى خياطة الملابس. لقد كست العائلة، على الرغم من أن الأثواب كانت تعود ممزقة من المشاجرات، ملطخة بالوسخ وبدماء غير محددة. كانت تنصت إلى الواعظ وتمسك بالكتاب المقدس وتكرر كلماته، الأرض والتراب والحجارة التى يشقى فيها الرجال، وهى قد عرفت الآن أن المرض والحمل والأيام القاسية فى الحقول التى تضربها الرياح كانت نوعاً من العقاب. لقد كانت فخورة جداً واثقة تماماً من قوتها. لكن الآن كلما انغرست الإبرة وانجذبت،

تترك نفسها تحلم، انبثقت ومضات من الشباب أثناء الكدح بقميص محدد، مثل صورة من كتالوج مؤسسة "إيتون" الأمريكية. لقد كان عصراً اعتقدت أنه يزعزع كل شيء.

كان هذا الربيع مفاجئاً بعد شتاء قاسٍ، أيام حارة، ليالٍ دافئة مع رياح جنوبية غير معتادة، يقطعها وابل من الأمطار الجارفة. ينفصل الجليد الطافى بصوت مرتفع حينما يهبط باتجاه الخليج. نمت النباتات وازدهرت قبل أن يجف سطح الأرض، الأرض مبللة عليها زهور دقيقة تنمو فوقها. ومؤخراً، بعد ظهر أحد الأيام، شعرت ببناتها يجهزن العشاء. صعدت درجات السُلَّم وذهبت إلى حجرتها، وأغلقت الباب بهدوء. ورقدت وهى تشعر بالذنب حتى لا تفسد ترتيب الفراش. وبالخارج أضاءت الشمس مثل شرارة صفراء على أطراف سحابة نحيلة. كانت هناك ضربات الجاروف فى الأرض المبتلة وصفعات الطين الملقى، والريح بصوت يشبه الشراع ينتفخ ويهب. يبدو أنها نعست. جاءها إحساس بالسقوط، وبالهواء المندفع، وشكل يرتفع كما لو كانت الريح قد هبت على الستار على الرغم من أن حزامها كان فى الأسفل، وحينما فتحت عينيها، وقف الشخص ليس فى سكون وثبات وهو معلق فوقها مثل ذرات الغبار فى الضوء. لقد بدا أكبر سناً بهذه الطريقة من أطفال المدرسة، مع الطحين على وجوههم من أجل مسرحيات أعياد الميلاد، على الرغم من أنه ارتدى قميصاً مخططاً

بالأزرق والأبيض، كل خط منها مميز، شبه لامع. وقف جامداً، يُذَكِّرها تعبيره برجل رأته ذات مرة متجمداً فى نهر جليدى، أقتُطع وحُمِلِ إلى القرية فى نعش بللورى. كان ميتاً وسعيداً فى الوقت نفسه، وهو ما شدها. وحينئذ، ربما رمشت عينيها - لم تستطع تحديد اللحظة - وجلست لا تفعل شيئاً.

إن المساء قد صنع صدوعاً فى الظل عبر انحدار الجبل، وتوقفت لبرهة، بقيت ساكنة قبل أن تركع على السجادة. لم يكن هناك أدنى انطباع لآثار أقدامٍ. لم تستطع التفكير فى أى شىء آخر. قالت فى النهاية، "جين"، رجعت، ثم أضافت صلاة قصيرة غامضة. فإذا كان الشبح هو "جين" كصبى فى معطفه من الفراء بشكل عام، بالقبعة الجلد التى أرادها فى عيد ميلاده الحادى عشر، والتى صنعتها سراً، لقد عرفت أنها كانت مجهدة وتفكر فيه، لكن لماذا، ابنها يرتدى ثياباً مثل سائح؟

وذكرت فى الأيام التى تلت بعينين شاحبتين رؤية الشبح فقط إلى الواعظ الشاب، سألته إذا كانت تلك رسالة. لقد سمعته يتحدث عن موضوع المعجزات، الأسقف فى مونتريال الذى شفى الطفل الأسود المقعد، خير حقيقى. أنصت الواعظ، ثم زارها اليوم التالى ليفتش المنزل، ليتكلم مع "هيرفى هيرفى".

وأخذت فى المساء البطاقات البريدية من صندوق تفاح كان لديها منذ حوالى أربعين عاماً من قبل أن يتحول إلى خزانة للرجاء. لم يساورها الشك

فى أنها أصبحت معتدلة، لكن هل هى الشيخوخة، الجنون؟ لعشر سنوات ظلت تصلى من أجل "جين" بانتظام. فى عشر سنوات سوف يكون لديه أطفال. أى شىء آخر تبقى لها؟ أبناؤها وبناتها كانوا يختفون، يهربون. لقد حاولت كثيراً جداً أن تحافظ على هذه العائلة، لكن الظروف التى جعلت ذات مرة هذا البلد لافظاً لازمت "هيرفى هيرفى". لقد كانت قوية بما يكفى لأن ترى أن عماها قد انتهى.

نزلت إلى الطابق السفلى. كان "جودى" قد حضر بعد ساعات من قدوم الآخرين. خلع الحذاء الذى يغطيه الطين. وفى العاشرة بدا مثل قاطنى الكهوف بوجهه المسطح الذى لا يحمل أى تعبير، وطيات من القذارة وعضلات تبرز من كل جزء منه. ألقى نظرة عليها بدون اكتراث. كانت له رموش عينيها نفسها ورموش أختها، ولم تستطع أن تفكر كيف أنه فى زمن أو مكان آخر ربما يكونوا كلهم مختلفين.

وحينما رحلت، فهى بالرغم من كل شىء قد عاشت، عرفت فقط قريتين. أخذت النقود التى استطاعت أن تخفيها، وحقيبة مستعملة. ومشت بطول الساحل، قمر الربيع، أمواج المد والجزر تتلف أسفل الطريق، أشجار الصنوبر المعتمة مثل شقوق فى السماء القاتمة. كان القرويون يعتقدون أن هؤلاء الذين يذهبون جنوباً أو غرباً، كانوا مختلفين، وأنهم إذا عادوا فهم موضع شبهات. قال عنهم "هيرفى هيرفى" إنهم "الخائنون". رحلت ابنة "أويليتس" إلى

بوسطن مع سائح، وفيما بعد حضرت ابنتها للزيارة. فتاة اسمها "مافا راتلدج". يا له من اسم قبيح. وفى جيل واحد. وهكذا فربما تحمل القصص بعضاً من الحقيقة. فقبل زمن أبى "جورجيانا"، كان يُشاع بأن القساوسة يطوفون فى أرجاء الولايات بحثاً عن "الكنديين الفرنسيين" التائهين أو "الأكاديين" الفرنسيين الذين رَحَّلَهم البريطانيون منذ أمد بعيد.

وعلى مر السنين، ومن الإنصات إلى الحديث فى الأماكن الفرنسية، "لويزيانا" أو "سانت بونيفيس"، بدأت تفكر فى أنهم كانوا قريبين، على بعد بضعة أيام، لكن أسبوعاً بعد أسبوع ترحل صوب الغرب، إلى ما وراء المدينة المائجة المتسلقة إلى السماء، تتمدد الحقول فيما بين الغابة وصخرة "لورانتايد". تحدثت عن الابن المفقود والأطفال الذين ربما تركهم خلفه. وبعد شهور تلت، فى المروج، سألتها العائلات الفرنسية التى دعتها عن "كيبيك"، أين وُلِدوا. كررت المقولة التى تجاهلتها طويلاً، لم تفكر فيها أو تتنبأ بها ولم تنشرها: التلوث من الولايات المتحدة، أو سفن الصيد العملاقة التى سحبت أسماك القد من الخليج.

لكنها سألت نفسها وهى تمشى بمفردها، ما الذى حدث للشباب مع أحلامهم بحمامات السباحة وحفلات الشواء. هل هذه الضخامة الهائلة هى التى ابتلعت "جين"؟ لقد تحسنت "كيبيك" بعد "الحرب الثانية". لقد تواجدت إمكانية العمل. كانت الشتاءات

قاسية، تستمر الثلوج فى التساقط حتى إبريل، تفتقر إلى الدفء فى مايو، لكن حينما تتنفس الأرض، وتزهر مشاهد الطبيعة، تكون بلداً مريحاً. لا يتواجد هذا العالم بدون مد وجزر. فهى ما كانت ستستمر إذا لم تعرف ما الذى ينتظرها فى البيت. وذات مرة، بعد سنوات قليلة من زواجها من "هيرفى هيرفى"، حينما كانت عائدة من قداس يوم السبت، توقفت على طريق القرية. ومن المنازل الأخرى، ليس من قلة بل من الكثير، جاءت موسيقى، أطفال وآباء وأمهات يعزفون معاً على الكمان والبيانو والجيتار، كلهم يعيدون خلق الأغانى المستقرة الجميلة للبلد. كانت تتساءل لماذا أعطاها الله مثل هذا الصمت.

فاجأها الشتاء وهى لم تستعد. مكثت فى الغرف الرخيصة. "وينابيج". "ريجينا". "ساسكاتون". "موس جاو" و"بورتاج لا بريرى". عملت حيث استطاعت، الكى فى المصانع مع مئات من النساء دائمات السعال، أصابع متورمة من البرد. كانت كل حياتها فيما وراء المزرعة والشاطئ ليست أكثر من ألوان معبأة على خريطة، لكنها الآن شكت فى وجود الله فى إطار هذا المشهد الطبيعى. لقد استشعرت الأديان البدائية، فى نيران الريح وحشائش المروج، فى سكون الشتاء بعيداً عن البحر. لقد أفزعها أنها استطاعت أن تفكر فى هذا.

فى الأيام الأولى للشتاء، بدأت ثانية. الآن حينما تُدعى، تحكى القصص التى اعتبرتها فى وقت من

الأوقات سخيفة عن معارك القوة وبطولاتها. إن العالم الذى ناضلت ضده يعيش بداخلها كنوع من الحب، "هيرفى هيرفى" الذى كان هناك حينما احتاجت حياة جديدة. لكن فى النهاية كان "جين" هو من تتحدث عنه، لأنها عرفت أن الأمل والحب لم يكونا الشىء نفسه.

سنة بعد أخرى، كانت السيارات تتزايد والشاحنات تعدو مسرعة تكسوها بالأتربة. رأت ماكينات ضخمة مثل الخيول، تجتث الحشائش خلال المروج، وتشق الطرق فوق الأرض. توقفت عند كل كنيسة لتصلى. كانت تنام ليالى الصيف فى المصارف. حلمت بالسماء، بمرور "جين" بقميصه المخطط وهو لا يعرفها. وبعد أمطار الخريف، توقفت عن تجفيف الأشياء المستعملة التى مازالت تحملها، بقايا الأطعمة المتعفنة التى ذكرتها بالأطفال المفقودين أو بنفسها، تميل فى الحقول، قوية فى الأمومة. الثياب التى لا تلائم أحداً، مثل الأحلام، الملابس التى لم يلبسها الطفل المولود ميتاً، الحظ السيىء، هذا الإدراك المجوف الذى كانت عليه فى وقت ما. على شجرة السنديان التى لا أوراق لها على جانب الطريق، على سهول "مونيتوبا"، الرياح تهز الخرق العتيقة لخيال المآتة، ترعب المسافرين من الوحدة فى رفرفتها.

ثم فى الكنيسة، نصف عاجزة وتمسك بنفسها، كانت مصدومة فى أن تشعر بوزن يديها. تذكرت شعر أختها يسقط على وجنتيها. القميص الأزرق والأبيض

يعاود الظهور. مشت البنطلونات الجينز إلى الماضى. مشت تعرج وراثها. كان الشبح هو نفسه كما بدا منذ سبع سنوات مضت بعد ظهيرة هذا اليوم ناعماً كرداء يرفرف.

عودة إلى طريق آخر بدون منظور، منازل متهالكة أمام حقول مزروعة، فناء كثيف الأعشاب، مدخل فيه صبى منكمش، لم ير أحداً من "خدام الله"، عينان تلمعان بنبوءة، تراب القديسين يغطى حذاءها، لكن امرأة محنية بفك عريض ورأس مربع مثل ضفدع كبير. لم تتكلم، فقط فتشت المنزل بينما تراجع هو إلى الخلف. ذهبت إلى المطبخ. الأطباق تملأ الحوض. كانت غرفة النوم متعفنة، الظلال مخيمة. امرأة فى الفراش تتقلب فى ملاءتها.

نادت المرأة، أمى؟

أخبرتها "جورجيانا"، نعم أمك يا حبيبتى، وتناولت يديها النحيلتين الجافتين. أنا هنا، أمك ياحبيبتى.

مانيتابو ـ مونتريال
١٩٦٣ ـ ١٩٧٤

فقط حينما دخلت "جورجيانا" غرفة النوم وأغلقت الباب، أتى "فرانسوا" من خلف الأريكة. وقف يتنفس كما لو كان يختبر الهواء، تجعد شعره وتكور حول رأسه، مثل فصوص مخ كبير داكن. كان ضوء النهار يتلاشى من النوافذ. ذهب إلى الخارج، وعبر الفناء، وخطا فوق الأعشاب فى المكان الذى سقط فيه السور، ومن ثَمَّ إلى حقل الذرة. سيقان نباتات كثيفة تجرى فى المقابل فى الظلام الدامس، ومشى فيما بينها، حتى ظل العالم فقط إحساساً بالرياح تسقط الثمار الجافة. واستلقى. أحياناً يسمع فى الليل محركات الشاحنات، أصواتاً، أبواباً تُصَفَق. يستيقظ فى الصباح على أشعة ضوء الشمس. رأى أزهاراً زرقاء دقيقة تنمو على الأغصان، وعلى مسافة أبعد الحذاء الأسود برباط من أعلى، الكاحلان المتورمان تغطيهما الجوارب الطويلة، والملابس ذات الرقع والرتوق لجدته.

منذ ذلك اليوم فصاعداً، بدا العالم مكاناً قديماً، وصار أقدم فى هذه الأسابيع التى تعلم أن يعيش فى حضور من كانت قسوتهم الشىء الوحيد الذى عرفه. وعلى قدر ما استطاع أن يتذكر، أخذ فى الطواف. صادق الكلاب، ومشى معهم، وأعطاهم أسماءً من الكتب المصورة، "كابوت" أو "كارتير". لقد تعلم الآن من الوصايا ومن الخطايا المميتة، عن أعمال الخير لأبيه وقوة عائلته. لقد شعر بضآلة الشأن بالمقارنة مع هذا الإله الذى كان ينتظر بالتأكيد ليدخل إلى العالم، إلى المنزل، ليكسر النوافذ ويقلب الموائد ويتبول على الأرضية مثل الفرس باستقامته الذاتية. وحينما تفجرت السماء بالبرق، وغمرت القنوات والمصارف، اعتقد، أن الإله هنا ثانية، يثير الفوضى فى الأشياء. ثم ركض إلى البيت، مرعوباً من أن الله سوف يسقط شيئاً ما ثقيلاً، غطاء بئر أو ثلاجة.

فى المطبخ، الكتاب المقدس ملقى الآن على طاولة قابلة للطى، أسفله قطعة من مفرش قماش، أكثر كثافة من حامل القدر، كما لو أن الكتاب المقدس يحتوى على شىء ما ساخن. وتحت إشراف جدته كان يقرأ شجرة العائلة داخل الغطاء، قرنان من الأسلاف بأسماء ضعيفة فى تأثيرها التاريخى. أخبرته أنه يجب أن يتعلم أن يكون مثل أبيه، وحينما كتبت اسمه. "هيرفى فرنسوا هيرفى" . تَعرَّف فقط على الاسم الأوسط. قالت إنه إذا أراد أن يصبح قديساً، ينبغى عليه أن يحمى روحه، على الرغم من أنه حينما

أغمض عينيه ليجده، رأى فقط دوامة من النجوم المظلمة تركها ضوء الشمس على رموشه.

بالنسبة لـ"جوريجيانا"، من الواضح أن "فرانسوا" كان واحداً من الأقزام على الرغم من أنها لم تر سبباً لزراعة هذه البذرة للخراب. لقد نقحت قصة "هيرفى". قررت أن أفضل تعليم سيكون كفيلاً بإقناعه بالخير بداخله. كانت تعرف أن الإنسان وُلِد من الخطيئة، وأن التعاليم لم تنقذ سوى القليل من همجيتهم. كان "جين" نموذجه، قوياً حينما يتطلب الأمر، رقيقاً فى قلبه، ماهراً فى المدرسة، وُهِب نعمة وضوح الهدف الذى كان يستحضر "فرانسوا" إلى العالم من أجل أن يقدر على أن يكون قديساً.

وحينما يكون فى شك، كان يتعين فقط على "فرنسوا" أن يسأل، ومعاً هو وجدته سوف يضيفان الأب المفقود، حتى فقدت الأثر وتجولت فيما بين الآخرين، والأعمام الضخام، وولد وُلِد بوجه مقاتل، و"هيرفى هيرفى" الذى لم يكن هناك شىء بالنسبة له غير مسحوب إلى أسفل، أو مطروق فوقه، أو ضُرِب ضرباً مبرحاً. أحياناً كانت تبدو همهمتها مثل تغلغل القهوة.

سأل، لكن أبى كان رقيقاً؟

قالت، رائع، كثيرًا، رائع. رقيق جداً يميل إلى الخير. مثلك. أنت شخص جيد.

وأردت أن أكون قديساً؟

قالت، سوف يكون، ورفعت يديها، لكن لم يكن. لذا يمكنه أن يجعلك. شخص جيد.

وجد "فرانسوا" الأمر غريباً أن أمه لم تذكر أبداً أياً من هذا. لكنها كانت مريضة. وبدا الأب الذى عمل على أن يتذكره مثل هؤلاء الرجال الآخرين الذين ذكرتهم جدته، قوياً، أحضان خشنة، وجندى مقدام موهوب بكف ضخم، برائحة الحقول المحروثة. وفى أحد الأيام كان "فرانسوا" محمولاً من الفراش، ملفوفاً فى ملاءة إلى الشرفة. يطن البعوض فى أذنه كلما استغرق فى نومه أو تنبه منه. تحول الشرق إلى الأزرق. كانت يد أبيه ملفوفة بضمادة. كان يتكلم، والكلمة الوحيدة التى سوف يتذكرها كانت "ألاسكا"، ينطقها بقوة مثلما تنطق "جورجيانا" كلمة "آمين". "ألاسكا"، كان أبوه يُعيد حتى كل مقطع فيها. وفى الصباح كان قد رحل. "آ-لاس-كا"، غناها "فرانسوا" وهو يمشى فى الحقول، يهز زهور "الهندباء" البرية بعصا، مع شعور بالمتعة.

وبالرغم من هذا، فقد كانت معظم المتاعب مصدرها اختفاء أمه. وفى هذا الصباح الأول، حينما أحضرته "جورجيانا" من حقل الذرة، أمسكت رسغه بيد كانت "الكالوهات" فيها صلبة مثل العظام تحتها. وبالداخل أجلسته.

أخبرته بقسوة، "إنه قد مات". وشرحت بعد ذلك أنه بسبب أن أباه قد مات أيضاً، وإنها وجدته وسوف

يربيانه، لكن الأمر لن يكون سهلاً أن ينشأ كقديس. قالت، إنهم يفسدون سريعاً جداً.

وفى هذا المساء، بعد أن تغذى بحبات البطاطس وامتلأ بالطعام كما لم يفعل من قبل، دفع بباب أمه وفتحه. كان الظل دائماً منجذباً فى النافذة المفردة، لكن السماء المتلألئة تزين الظلمات المتضخمة لغروب الشمس وتخيم على هذه الأرض الهائلة. بدت الغرفة صغيرة جداً. لمس القماش البارد للفراش العارى، ثم بدأ يرتعش. جرى للخارج من خلال الحقول. بامتداد المسافة التى أظهرتها أضواء مزرعة على السهول مثل تلك التى تظهرها سفينة فى البحر. وطنت حشرات الحقول فى مصدات الرياح. وتقيأ. وأتى عند سياج كهربائى وجذبه وتعلق فوقه وقفز لينطرح أرضاً. حينما فتح عينيه، كانت النجوم تلمع من فوقه. رقد على الحشائش، وصوته يصرخ من حوله.

فى هذه الشهور الأولى، حينما كانت جدته يغلبها النعاس، يترك الكتاب المقدس ويتسلل إلى الخارج، الآن هناك قيود، كما لو كانت الطبيعة جاراً مشاكساً. وفيما بعد جاء الصيف بسحابات غير ممطرة، وكان يخرج من خلال أعواد الذرة المزدهرة. كان دائماً هنا، يدندن بالأغانى مع الراديو الخاص بأمه، أو يقتطف الزهور من أجلها. يتوقف ليصغى لحفيف سيقان النباتات. كان يفتت حبات الذرة النشوية بأصابعه، ثم يقشر "كوزاً" من الذرة بدون أن يكسره. تضئ الذرة فى الظلال مثل البشرة اللامعة. أحصى الحبات،

فتحها وتذوقها بظفر الإبهام. رقد على الأغصان المدكوكة، وكور أصابعه تجوث خلال التربة الجافة التى كانت باردة ورطبة.

وفى أول يوم خريفى ناضر، أخذت جدته بيده وقادته من المنزل عبر الطريق إلى ما وراء حقول القمح المائلة باتجاه محطة الحافلات. قالت علامات الطريق، إلى الشرق، بمجرد أن تركوا المدينة، وتعجب ما إذا كان أول الأطفال المولودين قد سافروا على هذه الطرق نفسها.

كانت مونتريال موطنه الجديد، سماء داعمة، أسقف هرمية مدرجة مثل أسقف المعابد، وشقة رخيصة على بعد عشرين دقيقة من وسط المدينة، فى "ليتوارنوكس" بالقرب من "هوتشيلاجا". كان يمشى إلى المدرسة، يعود من أجل الغداء، وفى كل ليلة قبل نصف ساعة من ذهابه إلى النوم، كان مسموحاً له أن يقرأ من مجموعة القصص الهزلية الصفراء فى الصحف التى اكتشفتها جدته فى خزانة للملابس والتى يرجع تاريخها إلى عشرين عاماً. وتلقت المساعدة الخيرية من الكنيسة ومن مؤسسات أخرى، صناديق بها سلع مجففة وأشياء تم الاستغناء عنها. وكانت النقود القليلة التى تكسبها تتحصل عليها من الحياكة مع ثلاثة من جيرانها العجائز، وكن يجلسن معاً فى حجرة المعيشة المكدسة، يتحدثن بصخب وحيوية. أحياناً ينصتن إلى محطة الراديو التى تبث الموسيقى الكلاسيكية والأغانى الشعبية، "مدام

بولداك" الكندية، أو فريق "كواتيور ألويت" للأغانى الكندية، وفى هذه الأثناء التى يصبحن فيها صامتات إلا من أصوات تعجب معتدلة من "آه، رائعة"، و"يا إلهى". وغالباً كن يسألن "فرانسوا" أن يقرأ من الكتاب المقدس، ويقاطعنه بالتسبيح والتمجيد.

كانت حجرته كحجرة خزين، فارغة من الرفوف ولا يزينها سوى صليب وصورة معدنية للعذراء البتول. معلق على المدخل مفرش مائدة مخطط بالأحمر والأبيض، وملابس رثة جداً حتى أنه عندما تضىء الشمس المزعجة المنخفضة لصباحات الشتاء من خلالها، يستطيع أن يرى الجدران الصفراء للمطبخ. وحينما لا يقدر على النوم، يضع رأسه على عتبة النافذة ويحملق فى القمر يفترش المروج. كان ينصت لأصوات الصخب فى الشارع، وللنغمات المتعارضة من جيتار على مسافة بعيدة أو ضحكة فتاة.

إن جدته رتبت له أن يكون ولداً مختلفاً، وكان يُرسل إلى البيت مع دولار واحد لها بعد كل قداس. لقد كان يساعد "بيير ويلبرود"، كاهن قديم تفوح منه رائحة دخان السجائر. وعلى الرغم من أن "فرانسوا" أراد أن يسعد جدته، إلا أنه كافح فى دراسته وفى تعلم مبادئ المسيحية. كان خجولاً حالماً ورقيقاً بالنسبة لسنه، وغالباً ما يتعرض للانتقاد. كانت جدته تخيط له وترتق لوازمه، حتى ملابسه الداخلية، الملابس الخشنة جداً التى تزحف تجاعيدها فى الأيام الرطبة مثل النمل بطول فخذيه. كان شعره قصيراً،

حليق الرأس تقريباً، فقد كانت ترى أن الشر يكمن فى الشعر المجعد. آمن بحكمها بأنه كان صالحاً وأن الأولاد الآخرين من عمره كانوا فاسدين. لقد عرف بأنه سوف يكون فى يوم من الأيام قسيساً، على الرغم من أنه شعر بضآلته فى الكنيسة، فلا يوجد شىء يضارع وقوفه فيما بين حقول الذرة، و"شراشيب" الذرة تتمايل من أعلى حينما يغمض عينيه أمام الشمس ويتحول إلى التلهف على أن يكون مفقوداً، أن يهيم فى تلك الحقول إلى الأبد.

حينما ماتت أم "فرانسوا"، ذهبت "جورجيانا" إلى كل درج وخزانة، لكنها لم تجد أثراً لـ"جين"، فقط شهادة ميلاد الأم، وقائمة بالديون، وكومة من الرسائل بالإنجليزية، لم تستطع أن تقرأها، ولكنها احتفظت بها احتياطياً. وأحرقت الباقى مع الملاءة من فراش الموت. لم يكن لديها أى شكوك. الشبح قد أحضرها، وهى كذلك وهبت نفسها لتربية "فرانسوا"، خائفة فقط من أنه ربما يموت مثل قزم، أو أن العفونة الملوثة وأزيز الحشرات خارج نافذتها يمكن أن يودى به. لقد فضلت القرية، من أجل الهدوء للتأمل فى الخلاص، لكن أصولاً غير معروفة سوف تكون ملحوظة، ويمكن للشائعات أن تضر بالاحتمالات.

لم تكن سنواتها فى التجوال لطيفة. فقد امتلأت ركبتيها وكاحليها بالعقد والتوت قدميها مثل الجذور. وسرعان ما عجزت عن الخروج. كان "فرانسوا" يقوم بالمهام وهى تجلس إلى جوار الراديو، تغط فى النوم،

وتصحو على عزف "أكورديون". أحياناً يدَّعى أن لديه أسئلة تتعلق بأبيه فقط ليستطيع هكذا أن يسمع من هؤلاء الآخرين قصصاً كثيرة أفضل، "هيرفى هيرفى" الذى كان يصارع الأبطال من على بعد أميال، "لا سويد"، أو "لا جينت"، أو "لا روسى نوير"، أو ذلك الولد القوى وأخته الضعيفة. لقد ارتعش من هذا الحب غير المعقول.

وفقط حين كان عمره ستة عشر عاماً، بدأ "فرانسوا" يشك. وأخذ يحصى السنين. لقد بحثت عنه جدته لسبع، الرقم الطاهر إذن مشكوك فيه، لقد كان فى السادسة. لقد عرف من الموسوعة أن الحمل حوالى ٢٨٠ يوماً، أقل قليلاً من تسعة أشهر. جرب الحساب، ليكتشف أنه إذا كان أبوه قد ظهر لها كشبح، فلابد وأن ذلك كان فى غضون أسابيع من الحمل. لكن "فرانسوا" تذكر بشكل غامض أنه حتى فى الشهور الأخيرة من حياة أمه كانت مازالت تنتظر. وأعتقدت أن أبوه سوف يعود فى الليالى الدافئة القليلة، وأنه بسبب اضطراب يديها واهتزازهما، فهى قد علمت "فرانسوا" أن يضع لها مكياجها. ومعاً حملقوا فى انعكاسها، فى شعرها المسترسل الذى يبدو حياً فى مقابل جلدها. وبتمهل غير ضرورى رسم على شفتيها وعينيها وخديها، كل خط دقيق يوقعه على جلدها تصدر أصواتاً فى تنفسها كما لو كانت تتلذذ. وفيما بعد، انتظروا فى الشرفة حينما احتشد البعوض من الحقول مثل الدخان أمام الشمس المنخفضة.

فى اليوم الأول من إجازة عيد الميلاد، بدأ البحث. موجة باردة غطت النوافذ بالصقيع، واستسلمت جدته لغيبوبة العقار المنوم التالى للإشعاع. إن موقع "الاستاد الأولمبى" المخطط إقامته قريباً من مربعهم السكنى، ومع صوت رافعات "الأوناش" المدوى وشاحنات الأسمنت والشواكيش، فهى لن تسمعه. وفى قاع صندوق أدوات الخياطة فيما يلى المسبحات المتوفرة، عثر على رزمة من الرسائل.

تعلم فى المدرسة إنجليزية بدائية تكفى فقط ليشعر بما هو مكتوب. عزيزتى "مادلين"، كل فرد بدأ ومضى يذكر مدينة المناجم أو المشروع الإنشائى الجديد فى "يوكون" أو "آلاسكا". تحدثوا عن نقود وقالوا، إنه سوف يعود فى الشتاء إذا سارت الأمور على ما يرام، وفى كل رسالة عند نقطة واحدة سؤال عن "فرانك" الهزيل. كيف هو ضعيف "فرانك"؟ وبصورة معتمة بعض الشىء من مكان بعيد، استطاع "فرانسوا" أن يتذكر أباه كان ينادى أمه "مادلين". كانت كل رسالة موقعة باسم "فرانك"، وتقريباً كل رسالة كان لها عنوان مختلف تُرَدُّ إليه فى حالة عدم الوصول، إلى "يوكون" أو "ساسكاتشوين" أو "كولومبيا البريطانية"، اثنان فى "البيرتا"، واحدة فى "آلاسكا". القليل منها ورد فيها ذكر مرضها والسؤال عما إذا كانت تواظب على دوائها. وتقول الرسالة الأخيرة فى الرزمة، "بلغى سلامى لفرانك الصغير، أم مازلت مصرة على تسميته فرانسوا"؟

ومسح نصل ماكينة إزالة الثلوج الشارع بطوله.
لقد كان ما بعد ظهيرة يوم قاسٍ فى أوائل الشتاء، الشمس ساطعة على المنحدرات الثلجية، المبردات تقعقع وتهسهس. وتدق الشواكيش عن بعد. وكانت جدته تغط فى نومها وفمها مفتوح تظهر منه ضروسها بنية اللون.

استرجع قواعد اللغة الإنجليزية. أكثر دقة مما كان فى كل سنين المدرسة، فكتب رسالة بسيطة يشرح فيها من يكون، وأن أمه قد ماتت، وأنه كان يبحث عن أبيه. ونسخها إحدى عشرة مرة لكل عنوان من العناوين المختلفة، يتوقف ليدلك التقلصات العضلية فى يده. ثم أخذ بعضاً من النقود من العلبة أسفل الحوض. وتحصن ضد البرد وأرسلهم بالبريد فى الدقائق القليلة الخالية التى سبقت القداس.

ومع حلول هذا الصيف، مازال "فرنسوا" لم يتلق رداً. ولأنه صغير بالنسبة إلى سنه فقد ظل هو صبى المذبح، و"بيرى ويلبرود"، أحول العينين، الذى أُخِذ اختصاراً من المبتهلين على أنه مقايض على مفترق الطريق، ولم يحظى بأى اهتمام. لكنه توقف عن إرسال النقود إلى البيت، وأصبحت جدة "فرانسوا" عمياء جداً لا تقدر على الحياكة، تدفع الإيجار بالكاد وتطعمهما من هبات الصدقات. لم تعد هى المرأة التى يلوك فكها غضب الله.

سألت، هل ستصبح قسيساً سريعاً؟ وتحدثت كيف أن القساوسة يتلقون راتباً طوال الحياة.

فكر "فرانسوا" فى الحصول على وظيفة، لكنه لم يعرف من أين يبدأ لأنه بدا صغيراً جداً. النقود تطرح الاحتمالات، الحرية، الملابس الطبيعية، تذكرة عودة إلى المروج. هل هو أراد مبرراً ليريدها؟ جاء الحل قبل أيام قليلة من انتهاء الدراسة بالمدرسة. وبعد القداس، أظهر له "فيليب"، صبيًا آخر من صبيان المذبح، إعلان مكتوب: مائتا دولار للشباب الذين يقدرون على الاستمرار بدون نوم فى غرفة مظلمة.

أخبره "فيليب"، أنه توجد طرق أفضل، وقرأ الإعلانات، وافق "فرانسوا" على أن تناول دواء لم يكن بالأمر السيئ. واتفقا على أنه بالإضافة إلى ذلك فأن الدواء هو شىء جيد بالنسبة لك.

فى هذه الأسابيع من إجازة الصيف، حينما جففت الشمس الممرات، ارتدت البنات الملابس التى احتفظن بها فقط لهذه الشهور، وحاول هو و"فيليب" أن يدخلا هذه الأجواء، لكنهما استُبعدا على اعتبار أنهما صغيران جداً. وفيما بعد، مشيًا إلى "مونت رويال"، ورأيا "الخنافس" والقبلات والعناق فى الحدائق. وفى دار للسينما بعشرة سنتات، شاهدا فيلماً جنسياً مثيراً حول المسافرين العابرين.

وفى الوظيفة الخامسة التى تقدما لها، امتلأت قاعة الانتظار لمركز العلاج بـ"بخاخة الأنف" بالطلبة والمشردين. وبينما كان "فيليب" يسحب الطلبات، جاءت إحدى المومسات ـ كان "فرانسوا" شبه متأكد ـ وجلست إلى جواره. لقد رآهن مرات عديدة يضحكن فى

الشارع وهن يرتدين ملابس من الألياف الصناعية، لكن بالنسبة لهذه المومس فقد بدت غريبة بالفعل. صدرية معلقة برباط فى الرقبة مكتوب عليها بحروف متناثرة "نيوجيرسى"، وترتدى حذاء أبيض برقبة طويلة على نمط فتاة من رعاة البقر، ملابسها مرصعة بمسامير الزينة الفضية والشراشيب والأهداب. كان لها صدر حمامة بارز للأمام، وكتفان مشدودان إلى الخلف برشاقة. وآثار أحمر الشفاه على أسنانها البارزة. شعرها أسود "فئرانى" ومقصوص مباشرة أعلى عينيها. لم تكن ترتدى مشداً للثدى، واستطاع مع ذلك أن يرى حرف الياء الأخير فى "نيوجيرسى" مدموغاً فوق حلمة ثديها. حرك مقعده بعيداً.

قالت، بنبرة صادرة من مكان ما أعلى فمها، أنا لا أعض. وجذبت تنورتها. كان صوتها صادراً من الأنف، واعتبر "فرانسوا" أن رشاش الأنف الذى كانت على وشك أن تضعه سوف يحدث تغييراً معها. ولحق بـ"فيليب" على الطاولة، حيث علم أنها كانت غير مواتية. ورحلا، وبعد أيام قليلة حينما أطلعه "فرانسوا" على إعلان وجده على أحد أعمدة التليفونات، الأولوية حسب الاختبار. كل الرجال، كل الأعمار، قال "فيليب"، إنه سيحصل على وظيفة حقيقية. بعد أن قرأ الإعلان، قال مستنتجاً، ربما ستشرب عصير. كان العنوان هو فى منتصف المدينة، فى ناطحة سحاب غريبة مثل سفينة فضاء، مصنوعة من الزجاج المقوى المقوس مع انحناءات مثل الخطوط

الانسيابية. ومضى إلى الداخل وصعد بالمصعد إلى الطابق الرابع عشر. كان المكتب الذى يبحث عنه مكدساً بالآلات الموسيقية التى تطن والسلوك المتقاطعة أسفل الطاولات والشاشات التى تومض والجدران المعلق عليها الرسوم البيانية. وقد أُضيئت نصف أنابيب "الفلوروسنت" فى السقف، وكان رجل يفحص الكلمات والأرقام على أوراق مطبوعة مطوية كان يقلبها بدون أن يفصلها عن لوح الأوراق. وعلى المكتب الذى يليه منفضة سجائر مكدسة بأعقاب السجائر المغروسة مثل أشواك قنفذ البحر.

سأل، هل يمكننى مساعدتك؟ وهو مازال يقرأ. كانت الغرفة تفوح برائحة الدخان وأبخرة الرسم.

حاول "فرانسوا" بإنجليزيته الضعيفة، جئت من أجل الاختبار.

نعم - بالطبع - تكلم الرجل بحيادية، حركاته جافة وميكانيكية. كان له وجه يشبه وجه الحصان، جامد التعبير خالى من التجاعيد. التقط طلب التقديم. أنت ماذا، أربعة عشر، خمسة عشر؟

قال "فرانسوا"، ثمانية عشر.

تنقلت عينا الرجل ما بين الورقة وإلى الخلف. كتب، خمسة عشر، ثم مرر لـ"فرانسوا" استمارة الاستبيان.

أخبره، ليست هناك متطلبات قانونية. فقط حاول أن تقول الحقيقة. إنها مسألة ثقة.

فحص "فرانسوا" مربعات الاستمارة ونقش الإجابات على عجل: الديانة، الحالة الدراسية، اللون، تفضيلات الطعام، الأهداف الوظيفية. الأهداف الأخرى. هل أنت عذراء؟ مِثْلِى الجنس؟

وحينما انتهى، أخبره الرجل أن يتبعه، فتح باباً.

من النظرة الأولى كان الظلام مطبقاً. ولم يخترق أى ضوء إلى الداخل. أخذ "فرانسوا" خطوات اختبار قليلة قبل أن يبدأ فى رؤية الجدران التى كانت مطلية باللون الأسود.

وبعد لحظة أدار الرجل جهاز عرض الشرائح المضيئة. عبر الحجرة ووصل إلى الفراغ وجذب شاشة عرض إلى أسفل.

قال، هذا اختبار التفضيل. ونظراً إلى أنها المرة الأول بالنسبة لك، سوف أعطيك الأولى. إذا عدت فى غضون أيام قليلة، سوف أعطيك الثانية كذلك. عشرون دولاراً فى كل مرة.

قال "فرانسوا" وهو كذلك، وهو كذلك.

أحضر الرجل صندوقًا كرتونيًا، وما بدا أنه يشبه منظفًا مفرغًا مستقبليًا شديد القوة والصرامة. ونقر على محول فأضاء العديد من الأضواء الحمراء. وعلق حبلاً فى الظهر. يجرى فى فتحة فى الجدار.

إن الخرطوم المفرغ لم يكن يحدث ضوضاء للامتصاص، بل بدا أنه يهمهم. وأخذ الرجل من خلال

الصندوق زوج من الملابس الداخلية المطاطية كبيرة الحجم التى يمكن تثبيتها بحزام. وكانت هناك وصلة دائرية فى المقدمة التى علق الخرطوم فيها. قال، حسناً، تستطيع الآن أن تسقط سراويلك. وفك "فرانسوا" بتردد الزر ودفع به إلى أسفل. وعانق الهواء فخذيه، وجعله يشعر بالقشعريرة. قال لنفسه، عشرون دولاراً.

قال الرجل، لباسك الداخلى أيضاً. إنه لن يؤلمك.

كانت الغرفة مظلمة، أنزل "فرانسوا" لباسه الداخلى.

وأُحكِم الشد على خصيتيه. وركع الرجل ووفق وضعه، فالضمادة المطاطية ناعمة ومرنة. وجفل "فرانسوا" حينما أخذ الخرطوم يمسك برفق مثل فم يرضع من إبهام اليد. وخفق ضوء أخضر فى الفراغ. وهزهز الرجل اللباس الداخلى. وظل الضوء الخافت مضاء. وأصدر الجهاز العجيب صفيراً مريحاً.

أنا أريدك أن تعد من صفر إلى مائة واثنين وثلاثين بزيادة اثنى عشر، ثم ترجع إلى الصفر، ثم تزيد وهكذا دواليك. لا تفكر فى أى شىء إلا العد. فقط انظر على الصور التى تأتى أعلى. ومضى خارجاً وأغلق الباب. إن الطريقة التى كان يقطع بها الضوء الظلام، ذكرت "فرنسوا" بفيلم من أفلام الخيال العلمى، كان البطل فيه على وشك أن يُنقل إلى ميناء مستقبلى مأهول بنساء جميلات وحيدات. وطقطق

جهاز عرض الشرائح المرئية، مربع باهر الإضاءة على الشاشة، ثم مرة أخرى. ظهرت صورة الشجرة، فروع محملة بالتفاح الأحمر. فقد "فرانسوا" العد عند اثنين وسبعين، واضطر إلى أن يغمض عينيه لثانية واحدة ليصل إلى أربعة وثمانين. وهمهم جهاز عرض الشرائح وطقطق. جَدّى يقف فى فناء مزرعة عاصفة، ساقاه مائلتان قليلاً كما لو إنه قد توقف فجأة. مال بوجهه الأسود المخطط على الكاميرا. كان له قرنان طويلان ملفوفان.

استمر "فرانسوا" فى العد، وكل طقطقة تأتى بصورة جديدة: تفاحة مأكول نصفها، وعاء يتلألأ بحبات الكرز، قدم رجل مشعرة بالأصفر، أظافر أصابع مغروزة فى اللحم، "كاتدرائية نوتردام"، جبال شاهقة، طرف حذاء راقصة باليه، مشهد نيويورك من الجو، رداء كاهن مهترئ، مخزن لتعبئة الصابون، زهرة، كتلة جليد ذائبة. وبعد ذلك أُغلِق جهاز عرض الشرائح، وتُرِك "فرانسوا" مرتبكاً فى الظلام قبل إزالة اللباس الداخلى.

سأل، ما .. السبب.. فى .. هذا؟ وهو يرمش عينيه فى المكتب الذى بدا من قبل معتماً تماماً. شعر بالهواء يضرب فخذيه وخصيتيه.

قال الرجل، الغرض هو دراسة ردود الأفعال غير الواعية.

سأل "فرانسوا" ما اللاوعى؟ لكن الرجل أشاح بيده وقال بفرنسية غير واضحة، هو فقط أن الآلة تقيس بصورة غامضة التغيرات فى الانتفاخات.

وبينما "فرنسوا" يفكر فى ذلك، أخذ الرجل عشرين دولاراً من الخزنة. قال، لا تنس أن تعود فى غضون ثلاثة أيام. الاختبار الثانى هو "لولو".

ما "لولو"؟

قال الرجل، سوف تعرف، وأعطاه النقود.

وأثناء البرد، الشهور البطيئة فى يناير وفبراير، عبرت رسائل "فرانسوا" البلد إلى بيوت على الحدود غير موجودة، إلى مكاتب بريد فى مدن هادئة، سدودها ومشروعات القوى الممتدة فيها منذ بنائها. كانت الرسائل التى لا تحمل عناوين عودة، يُحتفظ بها لمدة شهر أو اثنين، ثم يُلقى بها فى القمامة. طرق أبواب المنازل المغطاة بالألواح الخشبية. سأل عن فتيات بالأسم بعد عقود من حرق مواخير الدعارة.

لمدة أربعين عاماً تقريباً تتبع الوظائف من "أونتاريو" إلى "الاسكا"، التنقيب فى المناجم، تقطيع الأخشاب، بناء السدود وخطوط الأنابيب. لقد احتفظ بفتاة تحمل نصف أصل من الأسكيمو بالقرب من مدينة "فيربانكس" كان لها ولدان، وامرأة أيرلندية فى "فانكوفر"، احتفظ بها الآخرون بالمثل، وهى التى وضعت أطفالاً من عرق ملون، وبالفتاة الفرنسية فى "مانيتوبا" والتى أحبها أكثر من الأخريات، والولد أيضاً، إنه ينتمى له دون شك. وفى إحدى الزيارات كانت المرأة "الإنيوتية" من الأسكيمو قد رحلت، واحتل

المنزل عائلة أخرى. وماتت المرأة الأيرلندية بالتهاب رئوى، وأن الأطفال كما سمع مؤخراً قد توزعوا على دور الأيتام. زعمت أن لها طفلة منه، وأنها كانت هذه الفتاة التى تذكرها وهو راقد فى فراش إحدى العاهرات. نهضت المرأة الشابة، وذهبت إلى المرآه. ارتدت قبعة صيفية، وأخذت شريطاً طويلاً وربطته فوق حافتها بحيث تدلت أطرافه على كتفيها العاريتين. وبالتدريج تأكد أنه قد رأى هذا من قبل، الابنة التى كان من المفترض أنها ابنته التى كانت تتبعه طوال زياراته. لقد وقفت فى إحدى المرات فى المدخل وارتدت القبعة وربطت الشريط عليها. وعلى الرغم من أنها الآن يمكن أن تكون من عمر الفتاة التى فى المرآه، إلا أنها كانت حمراء الرأس، وتلك لونها أسمر. نهض، وارتدى ملابسه وقاد سيارته خلال النهار إلى "فانكوفر". زار كل دار للأيتام، لكنه فقد تتابع السنين، وربما كانت كبرت، أو ماتت، أو تيناها أحد. وبعد ذلك تحمل مشقة القيادة حتى "مانيتوبا". كان المنزل قد استأجرته عائلة أخرى، ورحلت المرأة وابنها.

إن العمل قد أكسبه الاتزان الكلى، لكن عبر الشهور التى بحث فيها، كان هناك وقت أطول لأن يشرب، وأكثر من سبب حتى لم يعد يبحث بل يهيم فقط. وبالنسبة له كفتى، كان هو الأصغر فى العائلة، وكان هناك شتاء سيئ حينما بدأت أوصاله تتفكك وتتورم، حتى صارت مفاصل أصابعه مثل رجل عجوز، له مرفقان وركبتان متكورتان مثل البصلة. وفى اليوم

الذى أخبره فيه الطبيب أنه ربما سيصير مقعداً، زحف إلى الخارج حيث كان حطب الوقود مكدساً. أخذ أكبر قطعة استطاع أن يتناولها وكرر رفعها. وفى كل يوم كان يلف يديه حول الخشب. وعلى الرغم من الألم، إلا أنه كان فى النهاية قادراً على انتزاع جذع متعفن وتفتيته. إن العضلات قد أعطت شكلاً للعظام التى تلفها، وكان يتحرك بصعوبة ولكن بقوة مثل رجل يلبس قميصاً مدرعاً. أعتقد أن الألم من إنجازاته البسيطة قد أكسبته الصلابة. لكن رؤية الفتاة تربط الشريط أعطى شىء ما. الآن المبانى التى بناها كانت قديمة، وكل مكان عاد إليه، لم يتذكره أحد. لقد باع ما يملك حتى يواصل الشراب. لقد عبر المروج فى مقطورة عربات الشحن. إن أمطار الربيع الأخيرة قد خضخضت الأرض حتى أنها عكست عبوس السماء. كان يمشى أحياناً إلى السهول المنبسطة المجهولة. جاء بصيص من النور من خلال السحب، لكنه لم يكن لديه تذوق للأديان. لقد تعرف على المدينة التالية. وفى المنزل المؤجر، عرفه الرجل. لقد بحث خلال كومة الرسائل حتى وجد واحدة، حديثة تماماً. وهذا هو السبب فى أنه تذكر. قال، "فرانك". صحيح. أنت مكثت هنا فى سنة ٦٢. أومأ "فرانك" بالإيجاب وأخذ المظروف. لقد كان هناك رجال مثل هذا ممن لا ينسون شيئاً أبداً.

وفى اليوم الذى أعقب اختبار التفضيل، تجول "فرانسوا" فى المدينة، يسأل نفسه ما الذى ربما يرغب

فيه ولا يعرفه. مر على رجل أعمى يهتدى بكلب، محلات بها أوعية معلقة من البلح والزيتون. هل يتوق الجسد للأشياء التى لا يستطيع أن يفسرها؟ وماذا عن الروح؟

وحينما اقترب من البيت لاحظ أن هناك رجلاً قصيراً يجلس على الدرجات المعدنية. وضع مرفقيه فوق ركبتيه، وعقد يديه وشبكهما معاً.

قال بالإنجليزية، يا ولد، وتداخلت نغمات صوته. هل يوجد شاب يسمى "فرانسوا" أو "فرانك" يعيش هنا؟

شم "فرانسوا" رائحة الكحول. كان الرجل يرتدى قميصاً جديداً بأزرار، لكن سترته كانت متسخة.

كرر "فرانسوا"، "فرانك"...؟

لقد أجرت الشقة الأعلى هناك، لكن السيدة العجوز لم تنهض لتفتح الباب.

تعمد "فرانسوا" أن يقول، شقة "دات". شعر برماد فى حنجرته. قال الولد "دات"، لقد رحل منذ وقت طويل. نظر بتمعن على ملامح الرجل المتورمة، بقع الطعام على سترته، القميص الرخيص، الأنف المائلة. أضاف "فرانسوا"، ربما مات، بسيارة أو شىء ما.

وقف الرجل. حرك شفتيه. تقلصت وجنتاه الخشنتان أسفل عينيه. هبط الدرج بخطوات قصيرة متثاقلة، وابتعد وهو يمشى بصعوبة.

ومضى "فرانسوا" إلى الداخل، متجاوزاً جدته التى جلست وعيناها نصف مغمضتين. استلقى على سريره ودفع بكمه إلى فمه ليمنع صوت بكائه حتى لم يعد بعد قادراً أو مهتماً ما إذا كانت تسمع. نهض بعد ذلك وجرى إلى الخارج، هبط الدرج متوجهاً إلى الشارع، لكن الرجل كان قد رحل.

وفى كل يوم من هذا الأسبوع، يبدأ عند ضجيج إنشاء الاستاد الأولمبى، ويمشى إلى "سان لورين"، إلى "كوتريمونت" حيث تتنزه النساء اليهوديات مع عربات الأطفال وغطاءات الرأس والشعر المستعار. رأى الإيطاليين يحملون الشاحنات ويصيحون. ورأى الصينيين فى محلاتهم للجزارة ذات الرائحة الكريهة. استكشف "سانت كاترين" فى منطقة "هوتشيليجا" من أدناها إلى أقصاها على اتساعها، "طلاء الأظافر" الشفاف للغرب والفتيات الإنجليزيات بشعرهن الأصفر. لقد انصرف عن القداس.

لقد حدث فى إحدى هذه التمشيات أن قابل المومس من العيادة. لقد لاحظته أولاً وأخبرته أنه يبدو ضائعاً. يبدو أنك تائه. هل أنت الولد الذى قابلته الأسبوع الماضى؟

قال، نعم. حينما سألت ما الذى كان يفعله، أخبرها، أتمشى. عرضت أن تذهب معه. قدمت نفسها، "إيرنستين". تحدثت فى البداية عن تجارب طبية، على أنه هناك سوق من أجل اختبارات منع الحمل، وأنها حصلت على وظيفتين بسبب وضعها.

توقفت ونظرت إليه بجدية. وافق. بعد لحظة ابتسمت وسألت من أين أتى. وجد نفسه يخبرها بكل شيء، المروج، أمه، الأب، العشرون دولاراً التى يحتفظ بها، أنه من المفترض أن يكون صالحاً لكنه لم يكن ورغب فى أشياء لم يعرف حتى أنه يستطيع فعلها. وشعر أن الكلمات لن تتوقف عن التدفق.

سألها، هل تريدين أن تأكلى شيئاً ما؟ قالت بصوت رفيع تغلفه الدهشة، وهو كذلك. وكان أول مطعم وصلا إليه إيطالياً، وطلبا أطباقاً من "الاسباجيتى"، وأعملا شوكتيهما فى دوائر، وأخذ كل منهما دوره فى الحديث بينما الآخر يمضغ.

قالت، كل الناس تكره مهنتى، مع أن "المسيح" كان دائماً يتواعد مع نساء مثلى. لا يعنى هذا أننى أحب ما أفعله. فليس أمامى اختيار. لكننى انتقى النوعيات. نظرت إليه نظرة ذات دلالة. قالت وهى توارى العظمة المشوهة ما بين ثدييها من خلال قميصها المشدود على صدرها، أنا صالحة من داخلى.

وصفت كيف هربت من البيت. كانت واقعة فى الحب، وجاءت إلى "مونتريال"، لكن الشاب تركها، ولم يسمح والديها لها بالرجوع. وحينما كانت تتكلم احتشدت عيناها بالعاطفة. أخبرت "فرانسوا" أن "الكاثوليك" كانوا ضعافاً، وأن أمها كانت غارقة فى الكاثوليكية، وأنها أطلقت عليها اسم "إيرنستين" تيمناً بخالتها التى كانت راهبة. تخيل "فرانسوا" جيلاً بعد

جيل من الراهبات ذوات الأثداء البارزة يُسمين "إيرنستين"، مثل ثمار بصلية مقتطفة مغلفة بالورق.

قالت، لكننى لن أهرب من أى أحد. هل تعرف ما أعنيه؟

قال، نعم. قطعاً. نعم.

وضيقت عيناها. أنا أؤمن بالأشياء. أنت لا تحتاج أن تكون كاثوليكياً لكى تؤمن.

قال، أعرف.

أخبرته، إننا متشابهان إلى حد بعيد. انتهيا من الأكل. على أية حال ينبغى أن أذهب. لقد تأخرت. كتبت عنوانها على منديل المائدة الورقى. أنت تعرف، إذا أردت أن تزور. فليس مثل ذلك. فقط لنتحدث، أو شىء من هذا القبيل، إذا كنت وحيداً. إنه أمر يحدث. لكن لا تأتى متأخراً جداً. ابتسمت، تنظر فيما يبدو إلى ما ورائه. أنا أحبك. إلى اللقاء. وحينما قبلت وجنتيه، نظر إليها كأنما جفونه مرسومة وأنفه مثل بوق. كررت، إلى اللقاء. ألقى نظرة على العنوان مكتوباً بحروف ملتفة متشابكة. لم يلحظ إلا بعد أن مشت مبتعدة كيف كانت ساقيها نحيفتين.

حينما وصل من أجل "لولو"، كان الرجل مازال وحيداً وغامضاً، يفحص بتأنٍ الأوراق المطبوعة، كما لو إنه لم يمر يوم.

قال، ادخل، وجعل "فرانسوا" ينتظر. وتتابعت العملية نفسها بدون جهاز عرض الشرائح. أنزل

"فرانسوا" سراويله من أجل اللباس التحتى المطاطى. السراويل المفرغ أُحكِم ربطه. خفق النور الأخضر وظل مضاءً، وغطاه الرجل بقطعة من شريط كهربائى. وفى هذه المرة أحضر حشوة سماعات للأذن.

ضع هذه، وأبدأ فى العد.

أغلق الباب.

الظلام أصاب "فرانسوا" بالدوار. رمش بعينيه، لكن عينيه رفضتا التكيف. بعد ذلك أتى من خلال الميكروفون صوت تنفس متلاحق لفتاة قريبة جداً، ربما تكون فى الغرفة. استطاع فقط من عمق الذعر المحتجز فى حنجرتها أن يرسم صورتها.

أبقى على عينيه مندفعتين ليرى الأقدام الهاربة، الفم يشكل كل نفس مسعور. خطوات قدمين أخريين أعاقت الاستمرارية، قدمان أثقل، أسرع. بعد ذلك، صرخت، ثم كان هناك الصوت المنخفض المكتوم غير المسموع تقريباً لارتطام الأجساد.

قال صوت الرجل، تعالى. عاهرة. ثم بعد ذلك أصوات: ملابس تتمزق فيما بدا بطول جسدها، كانت صرخاتها تُخمد كما لو إن فمها يُسَد. تبعها مساحة تشبه الصمت، خشخشة وكشط وحك. ثم عادت الأنفاس. كان لهاثه إنسانياً فقط من حيث إنه يشكل تقريباً بعض من الكلمات، أما لهاثها فحاد النغمة. كان "فرانسوا" مستثاراً جنسياً بشكل مؤلم. النخير يأتى أسرع فى الرجل، كان نبض أنفاسها الآن سريعاً

متلاحقاً متقطعاً بصوت لا إرادى. إن صوت كشط القماش على الخرسانة تلاشى سريعاً مع ابتعاد بوق السيارة. وفى مكان ما انزلقت نافذة من إطارها وأُغلِقَت بقوة. كل شىء انتهى مع لهاث الرجل وهو يجرى إلى الصمت الذى جاء سريعاً جداً. واختفى ببساطة وقع الأقدام.

أغلق "فرانسوا" عينيه وأنصت إلى أسنانها المصطكة وأنينها الأخير ونشيجها.

وبعد وقفة مناسبة، جاء الرجل وحرره. وفى الشارع وقف "فرانسوا" ومعه نقوده. كانت حركة المرور فى ذروتها. أضاءت أشعة الشمس المائلة الرسومات الفاحشة على الجدران، والنوافذ المسدودة بالقوالب، والحمامات على عتبات الأبواب، ولطخ الغائط من طابق لطابق. كانت هناك فى الركن محطة بنزين. مضى إليها وطلب من العامل مفتاح الحمام. تمايل الضوء. كان بلاط الحمام قذراً. أوراق الحمام تتدلى من حافة الحوض.

خلع قميصه ووضعه فى الحوض، ونظر فى المرآه. أنزل سراويله ولباسه الداخلى. انصت إلى صوت الفتاة، لكن أبخرة الحمام كانت خانقة. مال قريباً من المرآه. ظهرت ضلوعه من صدره، الخفقان الهادئ لقلبه.

بالخارج، قاومت السماء الظلام المتغلغل. مشى على طول "سانت كاترين"، عبر الممرات الخشبية

لمحلات مهجورة، ومداخل تغطيها الأتربة، ونوافذ مشقوقة متصلة ببعضها بشريط حاجب. كان وسط المدينة مزدحماً، يصطخب بالضجيج، أبواق السيارات تدوى دون انقطاع.

وفى الكنيسة، كان قداس المساء قد بدأ، ومازال أناس قليلون ينتظرون من أجل الاعتراف. جلس على المقعد الخشبى، ونظر على القديسين المنقوشين على الجدار. من أجلهم، بدا الإيمان شيئاً مرعباً ومؤلماً وطارداً، وتساءل هل هم من اختاروا أم إن الله كان بداخلهم ببساطة، مثل مرض عضال.

مضى إلى كرسى الاعتراف وجلس. جاء صوت صرير الخشب على الجزء الآخر. تحدث "ويلبرود" الكلمات المعتادة. رائحة دخان السجائر العطنة ودهانات التلميع، أصابته فجأة بالغثيان. بدأ "ويلبرود" يكرر نفسه، وألقى "فرانسوا" بالستار إلى الوراء. وجرى خارج الكنيسة، ووقف يرتجف، يلقف أنفاسه فى الهواء البارد. وجد عنوان "إيرنستين" والنقود فى جيبه. غربت الشمس. هبت الرياح من عند النهر البعيد، دفعت بأوراق الشجر على جانبى الطريق. كان العجائز بالخارج يمشون تمشية اليوم الأخيرة.

كيبيك ـ أونتاريو ـ مانيتوبا ـ ساسكاتشوان
البيرتا ـ كولومبيا البريطانية
١٩٧٧ ـ ١٩٨١

ظل "فرانسوا" صغيراً مع بلوغه سن العشرين، كانت له شعيرات متفرقة فى لحيته مثل الصينيين وشعر قوى غزير كاليونانيين. لقد تخلى منذ زمن عن العمل كصبى للمذبح، وحينما أخبر جدته، لم تُعقِب. فالذهول الذى أصاب قلبها تحول بالفعل إلى تحجر فى مخها. أحياناً تتألق عيناها وتتحدث بطريقة مسرحية بأن الكنيسة لم تعد بعد هى الحارس، قالتها بمرارة كما لو كان هو الكنيسة. لكنها كانت هى عادة الغضب. إنها لم تلحظ غياباته، ولم تكن أمامه طريقة ليذكر اهتمامه بالعشق لأربع سنوات منذ ممارسته الحب لأول مرة مع هذه العاهرة ذات الصدر البارز التى تسمى "إيرنستين"، ثم استسلمت جدته وجرى القرن معه من خلف ظهرها. باع الكتاب المقدس للعائلة إلى محل أثريات بمبلغ دولارين.

شرح ليلته الأولى مع "إيرنستين" بأنها شىء لم يتخيله ـ لم تكن هناك عائلة عظيمة، أب متألق ـ كان الجنس أقوى من أية روح وهمية. تحدث عن تشوش عظيم، قوة بداخله. وببساطة لا تنتمى إلى أعمال العبقرية العظيمة، لكونها بديهية أكثر منها شفاهية، تركت رداء الحمام المزركش يسقط من عليها. حلمتا ثديها كبيرتان بالنسبة لصدرها، وانزلق لباسها الداخلى، انسل، وُضِع جانباً، صغير أغلب الظن. وبهذه الطريقة مرت السنون.

بعد موت جدته، بدأ يعيش مع "إيرنستين". وحينئذ عرف الحياة الجيدة لخنزير التجارب الغينى، ربما كان يشعر بالملل فقط من التمشيات الليلية، فى الأمسيات بمفرده. هل من الخطأ أن يزاول الرجال المتعة الرخيصة، فليست "إيرنستين" شيئاً لتترفه، ليست آسيوية متوهجة، ولا سوداء مملوءة الجسم، ولا نحيفة واردة من روسيا، لكنها نتاج محلى؟ هل يزعجه أنه كان فأر تجارب، على الرغم من أنها حياة سهلة؟ فعلى الأقل هو يتذوق موسيقى البوب، ويعلق على الاستثارة فيها والانفعال، ويخمن الأنواع الشعبية منها. لكن النقود كانت فى أدنى حالاتها، يخلط الأقراص مع "البيرة"، الصداع والتجشؤ، الغاز الكثيب المرعب الذى جعل "إيرنستين" خارج الفراش تضىء الشموع. كان يأكل خليطاً من البروتين، ويركب دراجة تمارين، بينما كان الرجال الذين يرتدون معاطف المعمل يأخذون عينات من الفخذ المخدر. وفى إحدى المرات، بسبب

الآثار الجانبية، توقف عن التبول لمدة أسبوع، ربما يشعر بالرغبة فى التبول ويقف فوق المرحاض بدون فائدة. وحينما سأل العلماء الذين يديرون المشروع، أين يذهب البول؟ هز الرجل كتفيه وقال، معجزات الجسد الإنسانى، معجزات العلم، وبدا دائماً سعيداً.

وعندما يعود "فرانسوا" إلى الشارع زائغ العينين، يعالج نفسه بأكل السجق. كانت الشمس تلقى بظلالها، فبيته الآن هو مكان للعمل.

حذرت "إيرنستين" فى هذه السنوات "فرانسوا" من أنه كان كمادة مستهلكة، وأنه قد جُعِل للأفضل، وهو ما لم يوافق عليه. لن يعود مرة أخرى إلى الكنيسة. الآن هى القصص الأخرى التى تذكرها، القصص التى ليس لها معنى فى ديانة جدته - المحاربون والجنود. فهل كان هناك أى شىء من دماء "هيرفى" البطولية تسرى فى عروقه على الإطلاق؟ هل كان الاسم له حتى لو لم يوجد فى هذه السنوات الست المرتبكة لكنها براقة؟ تذكر الرياح التى تهب على مروج السافانا، ضوء الشمس الذى يشق له منفذاً من بين السحب بفعل الانقلابات الجيولوجية. لقد أرادت مونتريال أن تحقنه بقضايا العصر. فسوف يظل هو و"إيرنستين" لهما قيمة فقط طالما ظل جسداهما مسلوبين. وحينما حلت الألعاب الأوليمبية بالمدينة، ازدهرت الأعمال، ومنذ ذلك الحين أتاح الاستاد أرضاً خصبة للصيد، دائماً السكارى المهجورون المترنحون فى وسط الجموع. وحينما

استطاع "فرانسوا" فى النهاية أن يعود إلى البيت، كانت "إيرنستين" نائمة، تعرض فخذيها للهواء، حيث تنبعث رائحة مطهر الجروح.

لقد عملا على أن يعيشا ما بعد الظهيرة، يتنزهان فى الحدائق، يحكيان القصص نفسها، ذكرياتها هناك فى الشمال، ذكرياته فى الغرب، كما لو كانا طفلين. وقد كان يستمتع بالحمى المتعمدة التى تصيبه بغرض البحث الطبى، ومن ثَمَّ كان عليها أن تقضى الليل بطوله تلاطفه وتخفف عنه. تنظف وترتب وتحرق بخوراً رخيصة، وتقرأ من رومانسيات رديئة، وأحياناً حتى وهو مريض، تجرى دماؤه حارة، وتصدر فقط أصوات الحب التى قد يسمعها جيرانها.

وفى النهاية بدأ يتساءل عن عملائها. لم يعرف لماذا. طغى هذا على كل شىء. إنه مع ممرضة بعد تناول القرص، وتقول، أنا لا أعرف إذا كان السبب أنت أو الدواء، لكن ضغط دمك مرتفع حتى السقف. يكذب، لست أنا. يعود إلى المنزل فى الصباح، ويداه ترتعشان، يمسك بكتفى "إيرنستين"، رائحته مثل الجمانزيوم، رغم انتعاشه من أخذ حمام، تدعه يتملك منها حتى تستسلم، تقفز وتجذبه من شعره. بكت مثل فتاة صغيرة، انتفخ انفها الصغير، قالت له، أحبك، ربتت على رقبته. أراد أن يمزق الستائر السوداء، يلقى بمحتويات الشقة إلى الشارع. تعود به حركة المرور إلى الماضى، يتوقف النفير ويتجمد الهواء وقعقعة الشاحنات. وبعد ليلة مجهدة قضاها فى مراقبة تفريغ

الشارع من الطاولات البلاستيكية وأكشاك الهامبورجر، أنصت إلى النهار يبدأ. هذا هو الحال، العالم يمدد صوته وضوءه بدونهما.

فى النهاية أخبرها أنه من الضرورى أن يتغير كل شىء. لا عملاء، لا تجارب بعد الآن، سيتوجهان إلى الغرب قبل أن يفوت الأوان. وصف غروب الشمس على مروج السافانا. لكن، حينما عاد فى الصباح التالى، كان كل شىء قد تم. الستائر تمزقت وتكومت، الأثاث الهزيل تفكك وتجمع فى أكوام، ورسالة: "فرانسوا"، أنت رائع وأنا أحبك جداً، وداعاً.

اغتسل وأعاد تعليق الستائر، وأعاد وضع معدات الشاى على المفرش الصوفى المزركش. كما أعاد الروايات الرومانسية إلى الرف، مثل كسيح يجاهد الآلام النبيلة. لقد نام الآن فى وسط ما كان يكرهه. لم يقدر على أن ينظر إليه بما يكفى، لم يستطع أن يتقلب فى فراشه مرات كثيرة جداً. كانت مرآة يدها تجمع الضوء الذى يفلت من خلف الستائر. ومن الطوابق العليا، جاء صوت الناس المرتفع للعمل من خلال فتحات التهوية. إن المدينة ـ كما رآها غالباً ـ معلقة فى ضوء الصباح، تضم ملايين الغرف مثل هذه الغرفة، أجساد نائمة، تحلم، ينسون بعضهم البعض، أعداد هائلة حتى أن الله ربما لا يستطيع أن يحس بهم جميعاً، مثل شمس المروج عند الغسق عندما تفترش حشائش المروج، تختفى كل ورقة فى ظل الأخرى.

رحل قبل أن يحل موعد الإيجار، ومع كل ميل يقطعه، كان يشعر أنه يتمدد، ليضم فى جوفه الأنهار والجبال. وفى تمشياته الليلية، تحدث مع خنافس الهيبيز، وفهم كيف أنهم قد أرادوها، نوماً وطعاماً وجنساً وتدخين الحشيش. إن ثقتهم جعلته يشعر بالرعب، قوة مفترضة، خط نجمى مستقيم يسمح بالعيش الوقتى. تخيل أنه هناك على الأرض الكندية الشاسعة التى لا حدود لها، يوجد مكان له.

وكانت أكبر ركوبة له مع سائق شاحنة، شاركه القهوة والساندويتشات، واعترف له خلال ساعات الليل الذى لا ينتهى، بأنه قد أحب أن يرتدى زى امرأة، ويعلق عند استراحات المحطات. كان البابا فى الراديو، السعادة بسبب طيبة العالم تنتشر بداخلهم.

ومع تورنتو، نضبت النقود مع "فرانسوا". وأخذ غرفة رطبة فى أحد النزل المؤجرة، وعمل طوال الشتاء وخلال الصيف الذى تلاه فى غسيل الأطباق، والانتقاء من بين بقايا الطعام، ومارس اللغة الإنجليزية مع الطهاة. كان بائساً وحيداً. يقوم بإزالة الثلوج على جانب، ويوفر كل بنس. حاول ألا يفكر فى "إيرنستين" وأن يحافظ على معنوياته بالاستغراق فى الحلم.

وبعد سنة ونصف، كان لديه ما يكفى لشراء "فورد" خضراء قديمة. جاءت مع مقطورة للنوم، وبمجرد أن رآها فكر، كيف ينبغى أن تشعر السلحفاة ببيتها الموجود فوق ظهرها. وجاء الربيع فى النهاية، وأصبح عاطلاً ثانية، سقوط الأمطار الغربية على

النظام الكهربائى يجعل الشاحنة تطقطق، على الرغم من أن المحرك الذى يخفق يجف فى إطار حرارته الذاتية. وفكر، عند العبور على "مانيتوبا"، فى مشية جدته. تخيل شبحها فى إطار المشهد الطبيعى، قوة تجوالها بحركة بطيئة ضد الأبدية.

وفى هذه الأسابيع التالية، سافر بشعور من التصميم. بدا كل يوم أنه كشف وإلهام. أشعت صدمات خفيفة على الطريق العام من خلال المقعد فى حركة هابطة رقيقة. انغمست السماء الغربية وسالت فى حمام صبغة لا نهائى فيما وراء حافة الأرض. إن رائحة الحقول والحشائش والرياح وقعقعة الشاحنة الصغيرة كان لها تأثير شعورى قديم، مثل الركوب فى عربة من التبن الهش. وفى المساء كان يوقف السيارة على طرق مزرعة نامية، نبتات "آذان الدب" الضخمة من القشور الجافة من السنة السابقة. وسحقت إطارات الشاحنة نبات "الكاموميل" البرى، وجلس فى الظلام يستنشق الهواء المعطر.

وفى أوقات، حينما يعرج على الغرب، يتوقف على جانب الطريق العام ويمشى إلى الحقول اليانعة، ويقف ينظر من جانب عينيه فى ضوء الشمس الساطع. حاول أن يشعر بغياب العواقب قبل أن تصل جدته برأسها البدائية. وفى الطبيعة، اعتقد بأنه سوف يعود دائماً من حيث بدأ، لكن النقود كانت

تتناقص، وكان متأكداً من أنه لم يكن يوجد شىء ليعود إليه. لقد بدا واضحاً الآن، لكن عاطفة إيجاد ما قد فقده، كانت قوية منذ أمد طويل، حتى أنه لم يفكر أبداً ما الذى سيفعله هنا. إلى أى حد سيستطيع أن يهيم فى المروج؟ لقد بدا كما لو أن العالم يسأل من هو، المزارعون بنظراتهم المحدقة المتصدرة، نظرة جانبية بنصف عين على المراعى. كان بضع خنافس يسافرون متطفلين إلى الغرب، ذاهبين إلى "بى سى". تحدثوا عن الجنة، المدينة الأسطورية "إل دورادو". ابتسموا ابتسامة عريضة وسألوا إلى أين كان متجهاً.

لكن بعد ثلاثة أسابيع، على الرغم من أنها بدت مفاجئة، تجول بعيداً جداً، ووصل إلى الجبال. وعسكر على الشواطئ والبحيرات والأنهار. ومن الجلوس بمفرده شعر بالتلاشى، فحقيقة هذه الأرض التى لا حدود لها والحجر، أنه يتدفق مثل النور إلى عيونه حتى لم يعد هناك مكان لنفسه فى رأسه. بحث عن حقيقة أخرى، عن حقيقة ربما تتضمنه، لكن فى النهاية الحقيقة الأخرى الوحيدة التى وجدها كانت النقود. توقف محرك شاحنته مع الرعد الهائل للصلب الساخن. وانبعث الدخان من كل جزء. تريث للحظة، ثم شرع يطلب النجدة. ومشى على طريق جبلى، يتفحص بنظره، من خلال تحرره، واللطمات العنيفة على بنطلونه "الجينز". لقد رأى المنظور الأفضل لنفسه من السماء، نقطة متلاشية بين الصخور والمنحدرات والأشجار. لم يكن يملك بنساً باسمه.

وفى الأسبوع التالى، نام فى بضعة أماكن غريبة، حاول أن يعقد صفقات مع الميكانيكيين فى مدن واقعة على طريقين يمر الواحد منهما خلف الآخر. وقام رجل أخذته الشفقة بتوصيل "فرانسوا". لكن كل منهما كان طريقاً مفرداً فى الوادى يتطابق مع آلاف أخرى، أو أن شاحنته قد اختفت. تتابعت المشاهد فى موجة تلو الأخرى حتى صوت تبديل السرعات فى علبة التروس كان ينبعث من عظامهم. أخيراً، شكر "فرانسوا" الرجل. فتح الباب ووضع حذاءه على الأسفلت المتكسر. وبدأ يمشى فى اتجاه تحول إلى أن يكون صوب الغرب.

كانت الوظيفة الأولى التى وجدها فى وادٍ بالقرب من مدينة "ميشان" على بعد ساعة من "فانكوفر". فقد احتاج زوجان بولنديان عجوزان للمساعدة فى جمع القش التبن وتربيطه وتطهير قنوات المصارف. أعطياه عشرين دولاراً عن يوم العمل وتركاه يقيم فى حجرة صغيرة معتمة فى ظهر مزرعتهم. فالصيف جعل الشمس تنضج وتتوهج ذهباً، وبدا أنه وجد الجنة فى النهاية. لكنه استيقظ عند المساء، ضربات قلب مكتومة، العرق يبلل صدره، على الرغم من أنه لم يستطع أن يتذكر أى حلم أو صوت.

ارتدى ملابسه "الجينز" ومشى خارج الغرفة الصغيرة إلى الحشائش المشبعة بالندى. دخل إلى الغابة التى تشرف على النهر. وأصدرت ضفادع الشجر نقيقها فى الظلام. وخشخش شىء ما عبر

أوراق السنة الماضية، فأر بنى كبير، أو أحد القوارض الضخمة ذات الحجم الهائل. وتعمقت السماء واستدارت حينما حملق إلى أعلى وتمايل واستنشق الهواء البارد الذى ينساب إلى النهر، غير موجود، الأشجار تتجمع لأعلى أمام النجوم. شعر بالخدر، منفصلاً، وحيداً، بدون هدف. قال لنفسه إنه يجب فقط أن يدع الأشياء تكون، أنه يجب أن يعمل ويجد السلام فى الطبيعة.

وبعد ظهيرة اليوم التالى، جاء الرجل البولندى العجوز. قال، إننا نعانى من مشاكل.

ماذا؟

قال الرجل العجوز، مشكلات. شركة متخصصة فى المروج من خارج المدينة تشترى الوادى.

سأل "فرانسوا"، وما الذى يعنيه هذا؟

المروج؟ إنها الحشائش. حشائش ملفوفة. خضراء لامعة. تُباع فى حزم. إنها هذه التربة الطينية التى يريدونها. الرطبة. إنها جيدة بالنسبة للمروج. ظروف مثالية. إنهم يريدون أن يجردونها كلها إلى لا شىء، ويضعون المروج إلى أبعد مسافة يمكن أن تراها العين. لو كنت أعرف حينما كنت أصغر، لفعلتها بنفسى.

وما المشكلة إذاً؟

قال الرجل العجوز، أوه، الرهن والمنع، والشركة التى اشترتنا وتريد إخراجنا من الأرض. مثلما أنت على وشك أن تتوقع.

لكن "فرانسوا" لم يستطع أن يأخذ مأخذ الجد مسألة الاستيلاء لترويع الآخرين من الذين أرادوا حزم الحشائش. أخبره الرجل العجوز أن بعض الجيران قد أُجبِروا على البيع، وأن الرجال كانوا يتداولون فيما بينهم ليكونوا حريصين. وفى هذه الليلة رأى "فرانسوا" ما يشبه سقيفة تحترق عبر الوادى. وبعدها سمع صوت طلقات نارية قليلة متقطعة.

وبعد ظهر أحد الأيام، حينما كان متوجهاً إلى محطة البنزين ليجدد إمداده بدقيق الشوفان والتفاح المعطوب، رأى سيارة "بويك" قادمة على الطريق وتذكر أنه كان اليوم الأربعاء، على الرغم من أنه لم يستطع أن يفكر فى السبب المحتمل فى أن هذا اليوم ربما هو يوم فاصل. انسابت "البويك" بنعومة من خلال ظلال الأشجار المتفرقة، كان دهانها يلمع مثل الأسنان. توقفت عبر المصرف حيث كان يقف، ونزلت النافذة لتغطى على انعكاس الجبال. كان للسائق أنف طويلة مكسورة إلى درجتين مميزتين وسميكتين، يحتضن الشفتين.

قال، "فرانسوا"، كما لو كانا يعرفان بعضهما البعض، من المفترض أن أخبرك أنك قد استُغنى عنك. فلم تعد المزرعة مملوكة للناس القدامى بعد الآن. حان الوقت للإخلاء.

قال "فرانسوا"، أنا لا يهمنى أى أحد.

سأل الرجل، ماذا الذى يعنيه هذا؟

لا أهتم بأى أحد كان. ونفض رماد سيجارته أمام المرآه الجانبية وتوقف كما لو كان يقدر رد فعله.

ما هذه السخافة، يا "فرانسوا"؟

ليس لدى مكان أذهب إليه. فما الذى يُفتَرَض أن أفعله، من هذا الخراب؟

انظر. أنا لا أعرف عن كل هذا. أنا هنا فقط لأقول لك إنك لا مكان لك. وإلا فمن المفترض أننى سوف أكسر ساقيك الملعونتين. هل فهمت؟

سحق سيجارته، ولف الفلتر على إبهامه. وأخذ يحملق حتى نظر "فرانسوا" بعيداً، ثم قاد سيارته.

وبعد يومين، استيقظ "فرانسوا" فى غرفته الصغيرة بعد غفوة ما بعد الظهيرة. لم يكن قد رأى الزوجين البولنديين، ومن ثَمَّ لم يكن لديه عمل يشغله. كانت الشمس الغاربة عند النافذة، وكان متأكداً من أنه سمع شيئاً. وقف وأنصت. شعر بأنه يريد أن يتبول، وربما كان هذا هو السبب. وحينما اقترب من المدخل، رأى شخصاً بالخارج. يمشى على أطراف أصابعه. لقد كان الرجل فى "البويك"، أضخم كثيراً مما بدا وهو جالس فيها. كان يرتدى بذلة ويحملق فى قطعة من مرآه وضعها "فرانسوا" فوق حوض الغسيل. لقد بدا الرجل ملولاً ومجهدا، وكان من الواضح أنه ينتظر. غمس أصابعه فى الماء ولمس شعره، ثم ألقى نظرة إلى أعلى.

قال، يا إلهى، أيها الرجل لقد كدت تصيبنى بأزمة قلبية. ضرب على صدره وأخذ نفساً وتجشأ. اللعنة إنها مثل حالة طارئة من عسر الهضم.

نظر حوله كما لو أن شخصاً ما يراقب. ثم سحب نفسه. قال بنغمة مختلفة، تعالى. سوف نتحدث.

وبسبب أن "فرانسوا" شهد عرض الزهو والكبرياء، فإنه لم يكن منزعجاً كثيراً. لقد تتبع المجارى المعشوشبة تجاه الطريق.

قال له الرجل، انظر، لقد اعتدت أن تجول فى هذه الأرض. لا شىء أكثر تعقيداً. أنت أيها الفتى الصغير، وأنا لا أريد أن أُلحِق بك ضرراً. فى الحقيقة، أنت لك سمعة طيبة، لكن سمعتى معرضة للخطر. أليس بإمكانك أن تقدر ذلك؟

قال "فرانسوا"، أوه، أنت تعرف، أعتقد أننى أحب أن أبقى. فهنا مكان لطيف.

توقف الرجل، واستنشق الهواء وطاف ببصره كما لو أنه يحاول أن ينفذ إلى الشخصية. أخذ مسدسًا مربعًا من داخل سترته. ونخس "فرانسوا" فى صدره به.

استدر. لقد أخبرونى أنه لا أحد سيتبرز إذا قتلتك.

وحينما نُخِس من خلال أشجار الصنوبر التالفة، بدأت ساقاه تهتز حتى أنه قفز إلى الأمام مثل مهرج.

أنا أحتاج، اللعنة، كرر أنا أحتاج، على الرغم من أنه لم تكن لديه أية فكرة عما يحتاجه. ارتعش كل جزء فيه حتى شعر بمثانته ستنفجر. اندفعت ماسورة المسدس إلى ظهره، وكانت ساقاه تهتز مثل ماكينة الخياطة، تضرب فى القماش الجينز المبلل لسراويله. ثم دخل فى نوبة تقلص عضلى وقفز إلى الأمام، يتخبط ويرفس ويبكى.

قال الرجل، عليك أن ترحل، الأمر واضح.

وحينما رجع "فرانسوا" إلى غرفته، شعر كما لو إن كل بوصة منه تقرصها حشرة مختلفة. غطس فى النهر وخلع سراويله. جلس على الدرجات، والدوائر القصيرة من حوله. كان مصباح الكيروسين من الداخل مطفًا. كانت الشمس تغيب، وشىء ما بصوت أجش ينادى من أسفل الجبال. حاول أن يتخيل ما الذى شعر به والداه حينما وُلِد هزيلاً، ولداً سعيداً ربما. لكن ربما لم يشعرا بشىء، وانهمكا أيضاً فى حياتهما الخاصة. استطاع تقريباً أن يفهم هذا. تمنى لو كان لديه يقين واحد، تمنى لو كان ابناً لرجل أذكى وأقوى من نفسه. لو أنه قد أُطلِق عليه النار هذا اليوم، لو أنه يموت الآن، ما الفرق الذى سيحدث؟ سوف يستمر العالم فى طريقه. لن يفتقده أحد. لقد كان لا شىء، لا لغته أو جسده الهزيل.

لاحظ أرض الحديقة تزداد قتامة كما لو كانت تمتص الهواء الأزرق. كانت الغابة خامدة، الطريق، الوادى بأكمله. لم يعتم ضوء منزل واحد على النجوم.

كان مازال هناك عند الفجر، ومرة أخرى المساء التالى. تشنج جسده من الإرهاق، وأفسح الجوع طريقاً إلى الخدر. انتشر خلاله. تدلى رأسه. بدا على فترات أنه قد أصابه العمى. أم أنه كان المساء؟ لم يفقد الوعى أبداً، لكن لم تكن لديه الرغبة فى أن يقف، لا حافز للاهتمام أو المحافظة على الذات التى كان يراها الآن على ما هى عليه الآن، عرضية، تافهة، غير مميزة. مالت الشمس المتبلدة بنفسها على رأسه، ولم يعد متأكداً من عدد الأيام التى لبثها. سقطت الأمطار، ولم يستطع أن يتحرك من المدخل.

ملأه شعور غير مُدرَكٍ بالكراهية. لهيب بدأ يتراقص داخل جسده الصامت. الجبال تلف لأعلى إلى المساء، الأشجار والأحجار والخط الخلفى المُدرَك لنهر مضىء. يترقرق ضوء القمر كما لو أنه مياه يطفو فوقها. تمددت العروق مثل الأسلاك. سحب نفسه إلى هذه النقطة من السخونة. كانت هناك قصص القوة والعنف، لكن الشخص الوحيد الذى يقتله كان هو نفسه.

ثم بدأ يجرى. بجمود فى البداية، تعثر فيما بين الشجيرات. لكن غضب كل سقطة كان يدفعه، وسرعان ما كان يتسابق متحدياً الأغصان، يضرب على الأشجار، يقفز فوق الأحجار. وصل إلى غابة حيث وقفت الحيوانات على بقع من ضوء القمر كما لو أنها مسكوكة على العملات. القنادس، غزال الموظ، الدببة. يرقبون فى توتر وخوف. ومن على قمة التل

عوى حتى ارتد صوته إليه مضغوطاً موجة إثر أخرى من الصدى المتداخل، نقاء الصوت، غضب حيوان. أضواء البيت جاءت فى خيط وعر عبر مسافة مظلمة من أسفل.

وفى وقت ما قبل الفجر، يقرصه الجوع. كان حقيقياً أكثر منه ألماً. جرى، قفز الأسوار، ركل كلب المزرعة حتى عوى وهرب. أغار على حقول الذرة، مزارع التوت، تسلل كروح شريرة إلى مخازن العلف. لقد عَرِف نهب الأرض المزروعة. أكل طعام الكلاب من علب الصفيح أو الأكياس. وليلة تلو أخرى، فرغت ثلاجات المواقف المسقوفة، نبش أرض الحدائق بحثاً عن الدرنات، فكك تعريشة الأعناب. ويوماً بعد يوم، جلس المزيد والمزيد من الرجال على جذوع الأشجار ببنادقهم، أو درسوا المداخل، قرروا، الأمعاء اللينة بالرعب لإنسان الغابة. تفجر التعصب، النشرات المنتظمة تنتشر بسرعة، ليست التنويعة كاملة النمو. ثم توقف كل شىء. لقد تحرك الوحش، جريمته الأخيرة لم تُذكر، أُخِذت بذل العمال من خزانة أرملة وقطعة صابون وبعض الأمواس.

وحينما سُحِبت "البويك" كانت نافذتها منزلقة على التكييف الداخلى، يقوم الرجل باختبار روتينى. كان عمله قد انتهى تقريباً، ولم ير أحداً لأسابيع. قاد باتجاه الحجرة الصغيرة، تذمر من اهتزازات بسبب الأخاديد التى حفرتها الشاحنات وغطتها الحشائش. كان يشعل سيجارة، يلاحظ نفسه فى مرآة المشهد

الخلفى، حينما برز شخص من بين أشجار الصنوبر المتهالكة. تحسس مسدسه، لكن وضعه إلى أسفل. كانت هناك لحظة من السكون تبعث على الغثيان، حينما لاح "فرانسوا" فى الحدقتين المتسعتين بالرعب فى عينى الرجل، كان رد فعله لرجل أعمال، ينحنى على السطح اللامع ويعدل من رباط عنقه.

كولومبيا البريطانية
١٩٨١ ـ ١٩٨٦

انتهى "فرانسوا" مع الطبيعة. دعهم يطلون الوادى بالمروج المشعة. جامله الرجل فى السيارة "البويك" وعرض عليه توصيله إلى المدينة، على الرغم من أنه قد كان لديه شخص قريب فى الرهن العقارى كان "فرانسوا" قد مد له يد العون. وعلى الطريق العام اشتكى الرجل من أنه يرغب فى إيجاد عمل وظيفى من أجل الشباب البائس بحق، بدلاً من العمل كونه إنسان غابة لشركة المروج. وفى وسط المدينة بعد الوداع، ذهب "فرانسوا" إلى محل بيع الصحف، ولأول مرة اشترى صحيفة. تفحص إعلانات الوظائف، محاولاً أن يسمع كل عنوان: مدير، موظف، عامل تفريغ المراكب. استأجر غرفة فى أحد المنازل، وغسل الأطباق من أجل الحصول سريعاً على النقود. وبمفرده، قرأ بصوت عالٍ، محاولاً للمرة الأولى أن يحسن نطقه. وفى الغالب كان يتوقف من أجل التشديد على نطق المقاطع. فى النهاية كان عليه أن

يعطى تصديقاً لما كان عليه، غرضاً متنوعاً. كان هناك مشروع علمى يبحث عن شخص يقبل بقطع أصبع قدمه الكبير، ثم يخيطونه ثانية فقط باستخدام مخدر موضعى. التعويض: ثلاثة آلاف دولار. ليست كثيرة، لكنها سريعة، سهلة من ناحية الإحساس، وكافية كرأس مال صغير. وفى المستشفى، كانت هناك استمارات ومقابلات، وفحص دقيق لقدميه، وجراح تجميل، وأخصائى فى علاج الأقدام.

أخبره كبير المعالجين، أن المشكلة هى فى إيجاد الناس الذين يرغبون فى أن يفعلوا هذا. فمعظم المتشردين يرغبون فى القيام بهذا العمل، لكن ليس لديهم الأقدام الصالحة. نحن نرى كل شىء، من الفطريات إلى الأظافر المغروسة فى اللحم والأظافر الملعقية و الأنونيشيا.

سأل "فرانسوا"، الأنو. ماذا؟

العيب الخَلْقى بغياب الأظافر. لكن قدميك أنت على ما يرام.

بقى "فرانسوا" بضعة أيام تحت الملاحظة. كان هناك تردد من جانب القائم بالرعاية الذى أعتقد أن "الكوبكى" ربما يكون إعلاناً سيئاً، لكن هذه العقبة تم تجاوزها. وتم فحص أصابع قدم "فرانسوا" بأشعة "إكس" وتنظيفها. وكانت غرفة العمليات مجهزة لعملية نموذجية. اصطف أطباء الامتياز الشقر والآسيويون بنظاراتهم الأنيقة على الجدران، الكاميرات أسفل

المظلات المضيئة. كان محنياً ومربوطاً بحزام، وجرى حقنه بمخدر جديد. وخفق قلبه. وبعد المشرط البارد للقطع، اقترب رجل معه منشار دائرى صغير. ضغط "فرانسوا" أسنانه. سقطت قطعة حمرء فى الطبق المعدنى. وأومأ الطبيب برأسه. همس شخص ما إنه فتى صغير فظ.

إن الإصلاح بالليزر، التكنيك الخاص تحت التجربة، لا يشعر به كثيراً أيضاً، على الرغم من أن غدة ما فى جسد "فرانسوا" النابض كانت تصب "الهروين" إلى عروقه. فقد حدث حينما رأى أصبع قدمه على الصينية أحمر مثل عرقوب خنزير. وبعد ذلك أُعيد توصيله. كان متورماً مؤلماً، لكنهم قد أقروا، سيشفى عملياً خلال الليل، ليترك فقط خطاً يشبه أثر انبوب اللحام. واستمر علاج "الليزر" أسبوعين، وقد أمن على ذلك العودة السريعة للإحساس.

وفى كل لحظة كان يختلى فيها بنفسه، كان "فرانسوا" يقرأ "التايم"، "النيوزويك"، أى شىء حديث، وبالطبع الصحف. لقد رأى معتقدات جدته العتيقة الآن على ما كانت عليه. قرأ فى الأعمال والسياسة. ومن مشاهدة التليفزيون تعلم التعبيرات. كان ينطق وهو بمفرده، إنك تحاول أن تجزنى، متخيلاً صفقات أعمال ضخمة. كان الضعف يغضبه. تنبأت الصحف بعقد من التجديد والابتكار. فى قسم الرحلات أتى على قصاصات من التاريخ. أعتقد أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة، هى هكذا، الآن صفقات أعمال،

مؤسسات، المستقبل، ليست حلماً من أحلام "الهيبيز" لكنها نوع آخر من الجنة. كان مستعداً للحياة الطبيعية.

وخلال فترة نقاهته، اعتنوا بتغذيته جيداً. لقد وزنوه عند كل دخول، صنفوا مكوناته الغذائية وراقبوها وهى تختفى. ومع الوقت رحل، كان أزيد مما وصل، ولم يكن يعرج أيضاً. جعله كبير الأطباء يرى صورته منشورة فى الصحف، العنوان الرئيس: الجسد الإنسانى مجرد ميكانيكا. أجرى "فرانسوا" مقابلة. قرر أن الحديث الجيد كان هو نتاج الأنفاس العميقة، ميل كلب الحراسة للنظر فى العين. جعل الناس تتملص من الوقفات والكلمات المبالغ فى تفصيل نطقها والتى كان من العسير قولها. وحينما غادر المستشفى، كان هناك تعادل، منتظراً على الدرجات، مشجعو النادى، هذه الظاهرة الغريبة المفاجئة. قَبِل عدداً من الفتيات الجميلات، على الرغم من أنه لم يكن لديه وقت لهذا، ليس بعد.

وعرج على وسط المدينة. بحث فى الصحيفة عن غرفة رخيصة. كانت الغرفة الوحيدة غير الغاطسة إلى أسفل فى بيت دكتور "إدواردو وى"، صينى بيروفى المولد، نشأ فى إلينوى وهاجر إلى فانكوفر فى سنوات مراهقته، والذى كان يشبه فى لكنته للوسط الغربى تماماً "ريجان". وكانت له حتى قصة شعر "ريجان" التى يُمَشَط فيها الشعر إلى أعلى الجبهة. لم يذكر سوى القليل عن تاريخه، وهو ما لا يتناسب مع صينى

محلى. تكلم لغتهم بصعوبة، لكنه اختار ألا يهجر والديه، أو زوجته فيما بعد، وهى التى أصبحت حلقة اتصاله بالمجتمع والتى لن يتركها أبداً. حينما رحلوا جميعاً، هى صغيرة جداً، والداه كبار جداً، وجد نفسه وحيداً، دكتوراً مع تضاؤل يليه. تحدث عن توقه إلى الاختراع، يستطيع أن يضع كلمات قليلة عن التعاطف بالفرنسية، على الرغم من أن "فرانسوا" طلب أن يتكلم الإنجليزية - لغة عالم المستقبل، كما قد سمع. بدا المنزل نوعاً ما مثل عزبة إنجليزية، خارجة للتو من وسط المدينة فى مشهد ممتد. عاش "إدواردو" فى طابق تحت الأرض. كان له أسقف منخفضة ونوافذ تشبه نوافذ الأكواخ، وقد استأجره من المرأة فى الطابق العلوى التى كانت تؤجره. كان كل هذا الذى سمعه "فرانسوا" عنهما هو ذهابهما ومجيئهما ينقران على أرضية الحجرة.

إن المشكلة الوحيدة التى أبلغه بها "إدواردو" وهى السبب فى أن هذا المكان رخيص، هو أنه لا يوجد حمام بالأسفل هناك. كان لديها الحمام الوحيد. وأشار إلى الطابق العلوى بأن رفع عينيه. ومن الباب الخلفى أوضح لـ"فرانسوا" أين يقود الممر من خلال الحشائش إلى تجمع الأشجار عند مرتفع. ويوجد مبنى خارجى قديم، على الرغم من أن الأشجار القوية بقيت من عصر آخر. لم يحببها "فرانسوا"، وأقر "إدواردو" أنه لم يحببها أيضاً، وخصوصاً ليس فى الشتاء. ولكونه مخترع غير محترف، حاول أن يصنع

حارقًا للقمامة والذى سوف يعمل مثل المرحاض، لكنه يحرق المنزل تقريباً.

قال، كما لو كان يواجه معضلة العصر الحرجة، لو أمكن فقط استئصال الفضلات البشرية.

وفى هذه الأسابيع عكف "فرانسوا" على العمل. ارتدى السترات الرياضية مع رقع من القماش المبطن عند المرفقين والجينز والقميص الرياضى وأحذية التنس. ملاحظة البنات. تاق إلى إطلاق مخططه بزيارات يومية لنادى اللياقة البدنية، حيث النساء فى الأثواب الضيقة المخططة وأربطة المفاصل وعصابات الرأس يؤدين تمرينات "الإيروبكس" من خلف جدار زجاجى. إن الأوزان أضفت على "إنسان الغابة" سحر حديث، ومع هذا فقد اشترك للاستحمام كما من أجل الجمانزيوم. ومشى فى إحدى المرات إلى "إدواردو" يقف عارياً فى الحوض الخزفى، يصب الماء فوق رأسه.

لقد خطط "فرانسوا" الجوانب العملية لاكتساب ثروة. ذهب إلى مطبعة وطلب تنفيذ سبعمائة من الملصقات عن أغطية السيارات. أتى معهم فى الموقع. كان لديه حس باطنى. كان هو الوقت الصحيح للسحر والغموض. نصب مكاناً فى الشارع فى تلك الليلة، فى منطقة "جاستاون"، الزوجان يتناولان العشاء، الموسيقيون يعزفون موسيقى الجاز، وموسيقى مقدمات المسلسلات الطويلة فى الأركان. وفى غضون يومين، كان قد صنع ألفاً أخرى منها. إنها تقول أشياءً

مثل، "أقف من أجل الجليد"، "أحب حمامتى"، "زهرة إلى قوتى"، وخليط من الأصوات استطاع أن يعلو بها، وغالباً مع عكسها. وكان الناس يضحكون من السطور التى لا تنتزع منه بسمة. غالباً ما كان يأخذ عناوين الصحف كلمة بكلمة، وكان العابرون يشترونها، لما يبدو أنهم يجدونه فيها من بعض الإشارات أو التعبيرات التى تفوق الوصف. وظهرت صورته فى الصحف مرة أخرى. كانت الملصقات تطير حول المدن. الشباب والمتزوجون كانوا يشترونها. رفع الأسعار، واشترى لنفسه سيارة مقفولة مستعملة. وفقط حينما خمد الغضب، استأجر بعض الطلبة. حدد لكل واحد منهم مكاناً، وكان يعطيهم عمولة، وأخبرهم أنه يوليهم ثقته، لكن إذا خنتها سأكسر ركبتيك.

مازال برغم كل جهده ليس لديه رأس المال سواء للحصول على منزل أو مكان تجارى. وفى هذه الأمسيات الباردة حينما كان يعبر الساحة، يحتفظ بلفة ورق مراحيض قريبة من كمه، فالحياة التى شجبها وتبرأ منها لم تكن تبتعد عنه كثيراً. وحينما كان يجلس فى المبنى الخارجى على هضبة فوق الخليج، لم يكن هناك أى طموحات، فقط أرض ممتدة ومياه عميقة، تأملها الهنود منذ زمن طويل، الجبال ضخمة وغير مرئية فوق المساء.

وطوال هذا الشتاء وخلال السنوات الأربع التالية، تعلم. كان لديه مكتبة متواضعة، ودرس الضريبة والمناطق والثغرات. قرأ كتباً فى مجال

الأعمال، واشترى مجلات عن النقود. ولعب فى كل شىء معقول من الناحية القانونية ويحتاج إلى أقل قدر من النفقات. لقد عقد صداقات ومول رحلات شراء إلى جواتيمالا من أجل القطن المبهرج. كان لديه أناس يبيعون الألعاب النارية، وعصائر طازجة مضغوطة،وأنواع غريبة من الحلوى فى وسط المدينة، والكمثرى والموز. ولقد ساند شاب ماهر الذى وجد طريقه لشراء ملصقات الملابس المصممة، والآن يبيعها فى الشارع، ويربح منها نظراً إلى أن الكثير من الأثواب العامة يمكن أن تصبح أنيقة متماشية مع المودة. لقد استأجر "فرانسوا" حتى أطفال المدارس الثانوية للبيع. فلا توجد علامات مغرية أو ملصقات عند الجيران المقيمين. إن الناس يعجبون بالسخرية. لقد كانت لديه شبكة أعمال للتوزيع والتجميع.

لكن فى الأيام السيئة، خشى من أنه لن يكون على أحسن حال عند هذا. زحفت الوحدة إليه واستقرت عميقة جداً إلى درجة أنه يشم عفونة رئتيه حينما يزفر. إن المعنى والسعادة اللذين يتخيلهما يبدوان بعيدين جداً، وتتذكر هذه الطبيعة الرقيقة القديمة، أو النزهة الخلوية مع "إرنستين" بالقرب من النهر، ناطحات السحاب تضىء مثل البتلات عند انكسار الضوء فى غروب الشمس، والطريقة التى ستنظر بها إلى السماء وتبتسم من بين أسنانها الأمامية. لكنه لم يكن يريد أن يعانى من أجل مومس قبيحة. وبدلاً من ذلك فسخ صفقات لمجرد أن يرى ما

إذا كان يستطيع. لقد مارس رفع الأوزان لجسده. حتى أنه اشترى حزامًا عريضًا موصلاً بأطراف كهربائية تعطى صدمات محتملة تمرن عضلات البطن، ينتج عنها سطح تنظيف مدهش. وكاختبار للإرادة كتبها اليوم ليل نهار، وهو يمارس المحافظة على ثبات نفسه. وذات مساء لاحظ "إدواردو" أن يتذبذب من المنتصف. قال، لو كنت مكانك، ما استخدمت هذا. فالجسم له الكهرباء الخاصة به، بالأحرى هشاشته أيضاً.

أتى يناير بالضباب والعواصف الممطرة، أيام من الأمطار الباردة التى لا تصير جليداً تماماً. كانت أعمال الشارع سيئة، وفى طريقه عائداً من التجميع، شعر "فرانسوا" مرة أخرى قلبه يخرج من مكانه قليلاً. أراد أن يحصل على الدفء والجفاف، فدلف إلى الداخل من أجل الشراب، لكنه أخطأ تقدير المدخل. كان بالداخل طاولات زجاجية رشيقة قوية ومقاعد خفيضة وحانة معتمة، وندال يرتدون المعاطف، وامرأة استدارت لتدخله، وحدها تمسك بأصابعها كأس مارتينى.

قالت، يبدو أنك تشعر بالبرد. أجلس. سأشترى لك واحدة.

كان نوع من الأمكنة حيث يستطيع أن يتخيل نفسه فى مستقبل ما منفصل حينما ينحدر النجاح إلى تدهور مقيت. إنه يجعله الآن تماماً خجولاً قليلاً. لقد كان يتجنب المواعيد، كان لديه أولوية، كما تقول

كتبه فى مجال الأعمال، ولا يريد لأى فرد أن يرى تحوله. لكن هذه المرأة على الرغم من أنها جميلة وكبيرة الصدر سحبت سيجارتها كما لو كانت قد بُعِثت من الشوارع الغامضة لبعض من باريس مُتَخَيَّلة. لقد كان فصلاً من مسرحية لا شك فى ذلك، لكن كان لديه تقدير عظيم للمسرحيات.

سألت، هل تنتظر شخصاً ما؟

قال، لا، وهو يضغط على لهجته.

إذًا دعنا نمضى من هذا الملهى الردىء، ونذهب إلى مكان جيد.

استقلا سيارة أجرة إلى مطعم مُسَعر بالطاولة، حيث قالت، لا تقلق، أنا سوف أدفع. وفقط فيما بعد قدمت نفسها على أنها "إليان" فى جناحها بشقتها الصغيرة التى تطل على الخليج، فى حانة أفضل من أية حانة دفع ليجلس فيها، حيث وجد نفسه فيها فى الكثير من الليالى التالية. لقد كان لديها اكتمال دائم بالشباب، زاوية فكها والنصل الحاد لعظمتى وجنتيها، وعينيها اللامعتين كثمرتى يوسفى. إن الحافتين المشدودتين لشفتيها جعلاها تبدو وكأنما تبتسم. لقد كان هناك شىء هش يتعلق بشهوتها الحسية، خطواتها البطيئة. إنها تميل فى مشيتها، كما لو كانت مجذوبة برغبتها، دائما تجاه اليسار.

وأخيراً، قالت، رجل حجمى، بينما تميل فتنزلق الشرائط من على كتفها. لكن من فضلك كن رقيقاً.

كانت حلمتا ثديها صغيرتين وقاتمتين وخشنتين. همست حينما انفعل، لا تمسكهما بقوة. على مهلك.

وفى هذه الشهور التالية، كان يراها مرة أو مرتين فى الأسبوع. كان يلهو بفكرة جعلها تمول مشروعاً، على الرغم من أن هذا قد يكون خيانة للرجل الذى يعتمد على نفسه الذى كان يدفع به إلى الأمام. لم تكن تتكلم عن وسائلها. فضلت الصمت، ألبسته أفضل الثياب وهو فى ذراعها فى الأماكن التى تصاحب فيها الموسيقى الطعام كنوع من المشهيات، وهى نوادى "الجاز" فى معظمها. عرف أنها كانت أرملة، يهودية تزوجت شابة من رجل عجوز، وترملت شابة. خمن أن عمرها فى أواخر الثلاثينيات.

قالت إنها جاءت إلى "فانكوفر" من "نيويورك" هرباً من المجتمع الراقى، حيث يعرفك كل فرد ويحكم عليك. أضافت بصورة عرضية، معتوهون. إن أى شىء فيما عدا ذلك لا يثير اهتمامها. قالت بحسرة بعد أخذ نفس عميق من خلال سيجارة طويلة، أوه، دع الماضى يكون.

فقط بمجرد أن توقفت الموسيقى وقفة ممتدة، حتى بات واضحاً الحاجة إلى الحديث، فى البداية بوضوح، ثم حرجاً، وفى النهاية مهذباً. غادرت المعرفة عينيها. رفرف الخوف هناك. مست السخونة خديها. زمت شفتيها كما لو كانت على وشك أن تبصق لكنها ابتلعتها.

سألت، ألم تفكر فى الدخول فى الاستثمار؟

لأننى أحبك، هذا ما أضافته فى وقت متأخر من هذا المساء بهذه الطريقة الخاصة التى جعلته يشعر أنها تستطيع الاستمرار فى المناقشة، كلمة كل ساعة، جملتان فى اليوم. نعم بسبب أننى أحبك، لن تكون هناك خيوط معلقة. ما المبلغ الذى تريده؟

وحركت من على الجدار لوحة لفتاة "جيشا"، فكت مقدمة ملابسها. فى الخزنة أكداس من الرزم الكبيرة.

كان أسف "فرانسوا" الوحيد هو أن خطته لم تكن رشيقة، مثل نوادى الجاز بنخيل الزينة، بمنصة وبيانو وأحواض سمك من الأرض إلى السقف. اشترى مرقاباً مهجوراً للسيارات مبنياً بالطوب الأحمر عند حافة "جاستاون" وحوله إلى متحف سيارات وساندويتشات هامبورجر متصلة به حيث يأكل العملاء فى طاسات إطارات السيارات، ويجلسون فى كبائن لهياكل السيارات المصقولة والمجددة. كانت له رفوف من أدوات السيارات القديمة، وموسيقى راقصة مرحة، ونادلات طويلات السيقان. وتدفق رجال الأعمال مع زملائهم، ويعودون مع الأبناء. كانت البيئة المحيطة هى الحنين إلى الوطن والطعام الجيد الوفير والرخيص. ويوحى التصميم الداخلى بأن أمريكا فى ذروتها هى المكان الموجود ويجتذب الطبقة الوسطى من الكنديين الذين كانت مشاعرهم بالطريقة نفسها.

وفى أول يوم واضح للربيع، نشرت جريدة "فانكوفر صن". أسرع إلى شقة "إليان". أجر شقته الخاصة، احتفظ بخزانة ملابس حديثة، فى النهاية أكثر من بائع شوارع متجول. والمرة الأخيرة التى رأى فيها "إليان"، حينما تعين عليه أن يخبرها بالضربة التى تلقاها المطعم، كانت بطيئة فى إظهار اهتمامها. الآن مع الأزهار الأولى تساءل ما إذا كانت تهتم. ليس مهماً. فى المصعد همهم بغضبه الأخير، ووجد فى الشقة الصغيرة امرأة مضجرة إلى حد الملل تشبه "إليان".

قالت، ليس شخصاً آخر، وصغير جداً.

آخر ماذا؟

ألقت عليه نظرة ثابتة. كان جباها ونظرتها القاسية مألوفين جداً.

قالت، حسناً، هناك وقت لأخبرك. اجلس، اجلس. يا غفلة أمى. يبدو أنها كانت غافلة عن علاجها. تشعر بالشباب ثانية بدون شك.

أمك؟ أين "إليان"؟

قالت كما لو أنها تتألم، أوه، أجلس. أجلى من فضلك.

وهكذا عرف "فرانسوا" كل شىء. شاهد فى الحقيقة "إليان" ممددة على الفراش، ملامحها مسالمة، تتنفس ببطء نوعاً ما. كانت المرأة "مارجريت

ميـر"، كـانت ابنـة "إليـان". جـلس "فـرانـسـوا". كـانت "مـارجـريت" تومئ حينمـا تتكلم، ثم تـعـقـد يـديهـا فى حضنهـا، عن وعى بذاتهـا. بدأت القصـة مع الميراث، الجزء الخـاص بـالزواج صـغيرة والـزوج العجـوز حقيقى، على الـرغم من أنه حينمـا استسلم للموت، كانت "إليان" فى الخمسين. على الرغم من أن "مـارجريت" أوضـحت أنهـا كانت جـميلة حينـئذ. كانت شـابـة بصـورة غـريبـة بالنسبـة لعمـرهـا، ولم تكن بحـاجة إلـى أن تفعل كل... حسناً، سوف أشرح...

مازلنا، نحن جميعاً لدينا نظرية أنهـا لم تعش أبداً شبـابهـا، ولـذلك فهى لم تكبـر. على كل حـال. مثلمـا قلت، فسوف أشرح.

فى عمر الخامسة والخمسين.

كرر "فرانسوا"، الخامسة والخمسين.

قالت "مـارجريت"، إنهـا الآن فى الثـامنـة والستين، ثم مـضت لـتـحكى كيف أنه، فى هـذا الـعـمـر الـوقـور، بدأت "إليـان" تـدرس وسـائل أن تنمـو صـغيـراً. صـامت، واستخـدمت الـعـلاج بأشـعـة الشـمس، لجـأت إلـى الكهنـة وحـمـامـات الطـين، التـآخى مع العـراة والليـبـراليـين، أخـضـعت نفـسـهـا لـلـنـظم الصـارمـة لـلـفـواكه والـثـمـار، وعـاشت فى عـزلـة فـى "الهيمـالايـا"، استهـلكت نسبـاً لا تُـذكـر من الـعـقـارات الموصـوفـة لـلـتـجـديـد، ومـارست التنفس الـعميق على المنحـدرات الجليـديـة، حتى قررت أخيراً أن الشبـاب كمـا ربمـا أصبـحت كان حيـاة مملـة.

ثم وهى على حافة الاستسلام - والاقتراب من الستين - سمعت عن مجموعة من الأطباء الطليعيين الذين زعموا أن المثابرة للمستقبل تعيد الشباب. إن التقنيات الأولية لإزالة التجاعيد وشفط الدهون وعلاج التشوهات كانت تجرى فى معامل التمويل الخاص. وأن التقنيات المستخدمة فى الحروب العالمية للجنود المشوهين، تُستَخدم بصورة متقنة مع العجائز أو الأغنياء المشوهين. كانت "إليان" فى التقاطع ما بين خنزير التجارب الغينى (أدرك "فرانسوا" الرابطة بينهما الآن) وراعى العلوم. لقد شد الأطباء وجهها، نقشوا عينيها وشفتيها، حشوا ثدييها ورفعوهما، امتصوا الأوردة المتورمة من الدوالى، وأزالو طيات من الجلد غير المرغوب فيه. نظفوا فكها من الشعيرات البيضاء وأعادوا تقويم أسنانها بأنواع من المثقاب. كانت النتيجة مذهلة. استطاعت أن تجعل خدود الأحفاد تحمر وتتحرك رغبتهم الجنسية، حتى اكتشفوا بالطبع أن هذا أخذ الكثير من ميراثهم، وأن الباقى كان بسبيله إلى الملابس والتبذير على هذا الجسد النقى.

قالت "مارجريت"، إن هذا شئ غير طبيعى. ما كان يجب أن يفعل هذا. بعد ذلك، تركت عائلتها وجاءت إلى هنا لأنها... وحصلت على هذا... لأن بعض الأطباء قالوا إن البرد يقوى اللحم، وأن هذا المكان بارد بالقدر الذى تستطيع تحمله. بالطبع من الواضح أنها أرادت مجرد أن تعيش حيث لا يعرفها

أحد. الآن هى تبعثر ثروتنا فى الرياح، طيش واستهتار. لا تظن أننا لم نحاول إيقافها. لكن تخيل المفاجأة الكبرى التى ارتكبتها. لقد نامت مع القاضى.

وبينما كان "فرانسوا" ينصت، شرحت "مارجريت" رحلاتها إلى الخارج، كيف أن "إليان" سقطت وكُسِر فخذها، وهو ما ألقى الضوء على حركاتها الهشة.

سأل، الفخذ الأيسر؟

قالت، الأيسر بالفعل. هل لك أن تتخيل ما تكلفه تغطية أثر الجرح من العملية؟ لكنهم أدوا المهمة على أكمل وجه؟ أنت من ينبغى أن تخبرنى عن ذلك.

حاول "فرانسوا" أن يجد العذر لنفسه. فـ"مارجريت" تتشدق الآن بصورة مفتعلة. نحت الجسد، المستقبل، ها! حسناً سأقول. وأبنائى فى الكلية، فقط أنا و"هيربرت" نتحمل مصاريف التعليم وندفعهم فى مسارهم المهنى. وهى لديها كل هذا. لكنها لا تفكر للحظة أننى أحسدها.

أخبرته عن نوبات أمها من الخرف المبكر، المفارقة العظيمة فى حياتها التى جعلتها تنفق بحماقة، بجنون من خلال التليفون فى وقت متأخر من المساء، والآن تعانى النسيان وتعاقر الدواء على فراشها.

قالت له "مارجريت"، أوه، لا. إنك لا تستطيع أن تصلح المخ.

وقف، وغادر. تتغير أضواء لوحة المصعد مع كل طابق يهبطه من خلال العمود الفقرى للمبنى الذى بدا

مكاناً ممتازاً للوحدة. لم يستطع أن يقول إنه يشعر بأى ندم. نظر إلى نفسه فى مرايا المصعد. الأبواب مغلقة. مضى إلى الخارج. الوقت مازال مبكراً. زوجان يمشيان باتجاه الشاطئ. فتاتان صينيتان على الزلاجات ذات العجل تسرعان عبر الممر المخصص للدراجات. يقف كوخ مبنى بالطوب بالقرب من الحديقة، لا يبدو أنه ينتمى إلى المدينة، وردات متسلقة على التعريشة. امرأة تدفع عجلة أطفال، طفل ينام تحت مظلتها. مضى إلى سيارته عائداً إلى البيت.

كان على الطريق العام "ترانس كندا". المغنيان البريطانيان "يوريثميكس" يغنيان "أحلام سعيدة"، وهو يعتبر أن هذا هو عمر التغيير وسحره. فإذا كان "جون واين" الممثل الأمريكى من الدرجة الثانية مع قرد قد استطاع أن يدير أقوى بلد فى العالم، ألا يحق إذاً للآخرين أن يحلموا لأنفسهم أحلاماً أكثر تواضعاً. كانت امرأة تسافر عن طريق إغراء قائدى المركبات العابرة، وعندما رآها شعر بالعجلة القديمة تلف، تتجه، رائحة سهول "مانيتوبا" المحروثة، أو الظل البارد فى أول مرة مشى فيها مع "إيرنستين" على الجانب الظليل من شارع مونتريال. كانت المرأة معتدلة الطول، ترتدى "الجينز" وقميصاً بدون أكمام، وتعلق حقيبة بلاستيكية منتفخة، وقميصاً بأكمام طويلة مربوط على خصرها. نثرت الرياح مع حركة المركبة بشعرها على كتفيها وذراعيها المغمورين بأشعة الشمس.

فقط عند إحدى نقاط التفتيش، لاحظ قلقها. لهجتها أمريكية. اسمها "مارجريت". قال لها، يا لها من مصادفة، لكن لهجة هذه الفتاة جنوبية، ولا تُنطق كل حروف "مارجريت"، ولكن "مارجيت". قالت، نادني "بيجي"، ثم أضافت، أنت تعرف. ترددت. أنت تعرف، أقصد أنني سوف. وترددت مرة أخرى. وشعر "فرانسوا بالعرض يأتي. اندفعت تقول، إن أغراضها قد سُرِقت. كنت مع هذا الرجل، وأقصد... وتجعد ذقنها. كان لها أنف جميل دقيق وشعر كستنائي. عضت على شفتها السفلى. قالت، إنها، وسحبتها بهدوء. ظننت أن هذا المكان المفترض.

أخبرها "فرانسوا" ليس لدى مكان بعيد لأذهب إليه.

نظرت إليه عبر هذا الحيز الضيق كما لو كانت تنظر إليه عبر حجرة. سوف ألعق قضيبك مقابل أربعين دولاراً. قالت سريعاً جداً، سوف أفعل مقابل عشرين، كان صوتها خالياً من العاطفة. سوف ألعق قضيبك مقابل شيء ما آكله، خراء، حتى "هامبورجر".

لم يعثر له على مخرج على الطريق، واعتبر أنه يستطيع أن يواصل إلى مابعد المدينة، إلى أعلى نحو "سكواميش" أو "ويسلر"، أو فقط يستدير ويقود لساعات. لكن الأمور لم تجر أبداً على هذا النحو.

أخبرها، سوف آخذك لتأكلى شيئاً. على حسابى. وعرج على المخرج التالى، وعثر على مطعم. وراقبها وهى تستخدم المنديل. عضت لسانها. تورمت شفتاها. صرخت. فكر، إنها فتاة أمريكية.

قالت، إننى دائماً أعض لسانى، يا إلهى، ما الخطأ الذى ارتكبته؟

أخبرها أن كل شىء على ما يرام، لا تندفعى. كان حزيناً. وإذا احتجت مكاناً تبقى فيه حتى تنظمى...

فيما بعد أخذها إلى بيته الجديد. هواء بارد عبر الستائر، رياح ضعيفة مستمرة تحمل روائح المساء والشواء. كان هناك الإحساس بأن كل شىء جديد، سرعة مختلفة وإيقاع مغاير. لكنه كان مخطئاً. فالعجلة دائماً هى نفسها حينما تدور.

كولومبيا البريطانية
١٩٨٦ ـ ١٩٨٧

على الرغم من أنها خائفة ووحيدة وضائعة، إلا أن "بيجى" لم تكن خانعة. إنها تتكلم ببطء وتضغط على بعض الحروف، لهجتها ليست جنوبية لكنها منخفضة وملفوفة، صوت رجالى ومناسب للتجمعات. توقع "فرانسوا" أن تسحبه إلى الحمام وتُعَمِدَه، لكنها فضلت أن تنطلق فى المطبخ، تعجن الخبز من طحين الحبوب، تنقع البذور والجوز والبقول وسيقان النباتات الخضراء السميكة بما يكفى لأن تصنع شهية بقرة لأمعاء خامسة. حكت له عن عائلتها التى نشأت فى "ألاباما" قبل الحركات الكبرى فى السبعينيات إلى "فيرجينيا" من أجل النقود. وبدأت بعد المدرسة الثانوية فى السفر، وأخيراً استقرت فى كندا، الشمال غير المستكشف، طبيعى وحُر. لكن كانت هناك أشياء لمحها فقط فى صمتها، الطريقة التى تستغرق فيها فى التفكير وتتنفس بصعوبة، أو حينما تقول، كن

قاسياً معى، وهو قد فعل، وكانت تبكى كما لم يشاهد من قبل. إنه لن يفعل هذا ثانية حتى لو طلبت منه.

وفيما يتعلق بشقته، أخبرته أنها حلمت ببيت ريفى. فسخ عقد إيجاره. بمفرده فى السيارة تحدث مع السماسرة بصوت مثل تلك الأصوات التى سمعها وهو يشاهد تليفزيون الساحة مع "إدواردو". قال، هل تحاول أن تجز فروتى؟ وفى "مابل ريدج" وجد مستوً منفصلاً فى حى إقامة ريفى، له فرش أرضية معقول، سجاد بوبر كثيف يتجعد تحت أصابع الأقدام، وسقف من طيات الجص، ورق حائط عليه أزهار صفراء بنية غامضة. تعامل السمسار بوجه خالٍ من التعبير، والشاب الذى أثار توتره، مربع الوجه عند الأذنين والرقبة، بقع من التسلخات الوردية. لم يسأل "فرانسوا" عن رأى "بيجى". لقد استقر. مذاق جيد، أخبرها هذه الليلة أن المفاتيح هى بالفعل فى يده، محرك سريع، حصل على الضمان. كانت رائحة كل حجرة مثل رائحة سجادة لم تُفرَد حديثاً، طلاء على خشب مضغوط. وفى الفناء كانت هناك شجرتان، حيث شُذبِتا فيما بعد. كانت المروج المجاورة منفصلة عن طريق أسوار من الأوتاد، مرتبة بدقة.

قالت، أظن أنها ستفعل، على الرغم من أنه بالأحرى لا يوجد جيران.

واندهش من أنها لم تكن تريد غسالة كهربائية. اشترت حوضًا قديمًا للغسيل اليدوى، وغسلت الملابس

باليد. واستحمت فى حوض من البلوط من أجل بعض الخصائص المقدسة للخشب. وسرعان ما تعلمت أن تصنع الجبن، تدفع اللبن المتخثر بقوة من خلال القماش، وتنتشر الرائحة الكريهة فى المنزل. قال لها، أنت تعرفين أنه بإمكاننا أن نشترى ذلك. غرست النبتات فى الحديقة، صنعت الحبوب، وضعت أصص السيقان عند كل باب ونافذة. اكتشف أن اسمها الأخير قد غيرته منذ عدة سنوات قبل الازدهار.

رأى "فرانسوا" نفسه كشخصية قديس. حينما يستجديه المشردون، يعرض عليهم وظائف التنظيف، وكان يبرر لهم ويدافع عنهم عندما يرفضون. لقد طلبت منه "بيجى" وجبة، فحصلت منه على حياة، كان الرجل الذى استطاع أن يلتقطها، يعتنى بها، يفعل الشىء الصواب. لقد عرف أنه أراد أكثر من العمل. أراد عائلة وأطفالاً وخطة من أجل مستقبل مستقر. لكن "بيجى" أزعجته. فى بعض الأيام لم تكن تستيقظ حتى ما بعد الظهيرة، خاملة متسخة الملابس، تطلب منه أن يتركها بمفردها حينما يسأل ما الذى حدث. أحياناً كانت تستيقظ فى الخامسة صباحاً، ويبدو أنها تصلى إلى الشمس التى تشرق. أحياناً، كان يعود إلى البيت، حيث يكون وجهها أحمر غاضبة وربما تتغطرس عليه. هل أنا الفتاة الوحيدة التى التقطها؟ الأولى، هاه؟ فقط التقطتنى وجئت بى إلى هنا؟ ربما لديك منازل مثل هذا فى كل مكان. نفايات تافهة رخيصة مع فتيات تعيسات من الطريق العام.

وفى اليوم التالى، سوف تتحسن، تغسل الخضراوات، تفك شرائح الجبن المصنفة. كان يتسامح مع هواجسها، يشترى ما تريد، كتب تصور مخلوقات زرقاء لها أربعة أذرع، نساء عاريات تشرق الشمس من بين أفخاذهن. أصرت أن يأخذها إلى معارض لتشاهد الأسياد الروحيين، كل الغامضين من المشردين، لكن من أجل أثوابهم وإيماءاتهم المتناغمة وأتباعهم الذين يحتشدون حولهم فى صبر.

وبعد إعلان أنها حامل، دللت "بيجى" نفسها، حرصت فى أول ثلاثة أشهر أن تأكل أطباقًا من قشور النباتات التى كانت تشعر بها على لسانها مثل قصاصات أظافر. واعتبر "فرانسوا" نفسه كما لو أنه محارب حَذِر من الثقة الزائدة. لقد شعر مع "بيجى" مثل "إليان" نعومة قديمة، إمكانية ضعف، أنه كانت هناك أشياء لم يكن حكيماً بما يكفى حتى يدركها. توارد عليه الكثير جداً على الطريق السريع، جدته والآن زوجته. ربما لم يكن لديه وقت للحكمة فى وحدته الحائمة - فلا يهودى يعبر الأربعين سنة فى البرية مع وطنه. متذكراً ماضيه، خاف من البراءة للنفس الضئيلة السعيدة التى محاها.

لكن العمل، ومن أجل أنه أب، قرر أنه سيكون هناك ما يكفى. سوف يضع الأمور فى نصابها، يشترى منزلاً أكبر، يتوسع فى أعماله. لقد فتح بالفعل محلاً صغيرًا للملصقات الورقية لحماية السيارات من الشمس. فى الليلة الأولى مع "بيجى" قد عرف أن

الأشياء لن تكون على ما هى عليه. هناك ابن قادم.
لقد قرأ هذا فى النجوم، السخاء فى توهج أوراق
أواخر الصيف، حتى فى الانتشار السماوى أسفل
سطح الملاحظة المتحولة فى مركز الميناء حينما أخذها
لتأكل. بالنسبة له كانت النجوم مجرد طريقة للحديث.

وخلال ساعات الاكتئاب فى المدينة، صنع قوائم
عقلية ليخبر ابنه: الانتصارات، النضالات، كيف صنع
نفسه. سوف يكون بطلاً لهذا الولد، رجل الأعمال
القوى الذى يقسم وقته بمنتهى الدقة ما بين العمل
واللهو. وكلما كبُر بطن "بيجى"، دفع نفسه. لقد عرف
أن هذا الوقت هو فرصته ليكون له أسرة، وبالشكل
الصحيح، أن يكون أباً أفضل من أبيه. إن مجرد
التفكير فى هذا، أعطاه إحساساً بالعدالة، كما لو كان
رجلاً عظيماً. تخيل ابنه يقرأ عن رحلة ما بين النجوم،
يذهب إلى الجامعة، مجانية مضاعفة، رياضة وعلوم،
أو حتى إدارة أعمال. ربما لم يكن هناك خطأ فى
حكايات جدة "فرانسوا" على الإطلاق، القوة،
الإحساس بالانتماء إلى ذرية قوية، "هيرفى" حقيقى.
سوف يطلق "فرانسوا" على الولد اسم "هيرفى" على
أمل فى هذه العائلة السحرية، على الرغم من أنه لم
يكن متأكداً من أن اللغة الإنجليزية سوف تحتفظ بقوة
الاسم. لكن ربما لن يتكلم مع ابنه بالفرنسية، وعلى
الرغم من أنه قرر فيما يتعلق بهذا بغرابة، متصوراً
كيف سيكون كأب، ممسكاً نفسه عن تسمية الأشياء
كما لو كان يعلم الكلمات. قال، الشبكة العنكبوتية،

تحدث عن الشبكة العنكبوتية التى تمددت خيوطها حديثاً عبر الغرفة الخلفية لمحله، ومحملة بالتراب بالفعل. أو فى المساء، القمر، الجسم الشاحب الذى يبرق مثل بللورات الثلج فى سماء الشتاء، بينما يتقلب فى ملاءته، غير قادر على النوم، لكنه ظل هناك على أية حال.

الجزء الثانى
فانكوفر ـ فيرجينيا
١٩٨٧ ـ ٢٠٠٣

أرادت "بيجى" فى ليلة عيد الميلاد أن يولد الطفل فى اليوم المقدس، بدأت تنفخ الهواء خلال المنزل لتستحث المخاض. ارتدت ملابس الأعمال الشاقة، تسلقت درجات السُلَّم. طافت بالغرف، جلست على السرير ووثبت، خطت إلى وخارج حوض الحمام الجاف، وغامرت بالدخول إلى البرودة المتعفنة للقبو، كما لو أن الاقتراب من الأرض ربما يقربها من قوة الجاذبية. أسرعت من عدد أنفاسها وفقاً لتقنية "لاماذ" للتنفس إلى الضعف، أخذت إلى الشارع فتحتى أنفها المتوهجتين، جسدها كميكانيكية لسرعة المشى، حتى أنه بمجرد أن عاد "فرانسوا" إلى البيت فى الظلام، اعتقد أنه رأى جنديًا سوفيتيًا يمشى وهو يطوح ذراعيه بقوة فى الثلج الخفيف الذى أعلن مذيع الراديو أنه سوف يجلب معه أول لون أبيض لعيد الميلاد. عيد ميلاد لم يستطع "فرانسوا" أن يعتنى به

أقل، على الرغم من أنه من قبل أن تصبح السنة الجديدة لطيفة. استطاع أن يدرج الطفل فى قائمة ضرائبه، ليترك "بيجى" هكذا إلى وسائلها.

وفى هذا اليوم، حملت الصفحة الأولى من الصحف قصة مشهد ميلاد المسيح بالحجم الطبيعى محفورة فى الجليد. ففى أثناء مهمة فى وسط المدينة، توقف "فرانسوا" خارج حلبة للتزلج على الجليد ليراها. ولم تبهره البراعة فيها. شعر بدلاً من ذلك بالترفع عن هذه العائلة من العالم الآخر، متزناً فى سعادة، "العذراء" بيديها المفتوحتين، الطفل محفور بدقة، تفاصيل غريبة، أيضاً تفاصيل متقنة للحياة. لقد استدعت الذكريات لشبابه فى الكنيسة، اللوحات الجدارية الملونة للكتاب المقدس للمسيح التى حلمت جدته أنه سيضاهيها. لقد أحب أن يفكر فى نفسه على أنه الرجل المثابر الذى قرأ المقالات والأبحاث وسبر غور الأشياء، كانت له كلمة أو اثنتان فى الموضوع الذى فعله. مازال يتحسر على الوقت الذى استغرقه ليأتى إلى هنا. لم يكن لديه مكان للتكهن، والموسم الذى أحبه كان هو نفقات الإجازة. لكن الصورة مازالت مطبوعة فى العين الداخلية الشبحية، باردة مثل بداية الصداع، طفل زجاجى، صغير جداً، مُعبِر بطريقة قاطعة عن إتقانه. وحينما رأى فى تلك الليلة ابنه بالطريقة نفسها، شاحباً، هزيلاً، كما تُشكِل وثناً بدقة فائقة، كانت غصاته من وخزات الذنب فى العصور الوسطى.

إن الطفل اللؤلؤى ملأه بشعور بقَدَر الموت. عجرفة "بيجى"، طمعه. الاعتقاد البدائى البسيط فى المسئولية، أنه عن طريق ازدراء المسيح الطفل المسجى فى الجليد، سيحضره إلى الحياة. بالإمساك بهذا المخلوق المصقول بكفى يديه، حاول "فرانسوا" أن يصدق "إدواردو" الذى قال، إنه سينمو. كلهم يفعلون. لكن السنوات لم تبدد أجواء التحدى. وعلى الرغم من أنه دقيق، إلا أنه لم يكن ضئيلاً، ولم تكن لديه القوة التى يحملها قزم. وإذا كان نما على الإطلاق، فقد كانت زيادة لها علاقة بشهيته الغائبة تقريباً. لقد ظل منحوتاً، لامعاً، بارداً.

لذلك، استنتج "فرانسوا" أنه ربما سوف يكون عبقرياً، على الرغم من أنه مع السنين، بدا "هيرفى" أنه غير مهتم بشىء أكثر من المشاهدة، وأصبحت الكتب تصيبه سريعاً بالملل. وسوف يسمع "فرانسوا"، وهو يقرأ مقالة، وقع أقدام، وينظر من فوق كتفيه ليرى، يحملق من الظل خلف مقعده الوثير، عينيه الواسعتين المبتلتين. تعرف على النموذج، "بيجى" مصممة على صنع رجل مقدس، تحضر إلى البيت كتب التسامى لـ"بوذا" والكهنة الهندوسيين، تعاليم "هارفى" للتأمل أو لقول "شانتى"، "شانتى" عند كل وجبة. هل "فرانسوا" بفقدانه لنداء السماء الذى تخيلته جدته، قد مرر الثقل إلى ابنه؟ لقد حاول أن يجعل "هارفى" يأكل الرخويات، المحارات، طعام الرجال. رفض "هارفى". فى المطاعم طلب "فرانسوا"

شرائح اللحم، لكن "هارفى" قشر القليل من الأنسجة البنية وقضمها قبل أن يحول اهتمامه إلى أعواد الخس التى تزين الأطباق. وعلى الرغم من أن "فرانسوا" و"بيجى" لم يكونا يأكلان على الطريقة الأوروبية، إلا أن "هارفى" كان يفعل، الشوكة فى يده اليسرى، رقيقاً منذ الميلاد. وحينما تتسخ أصابعه، كان يهزهم مثل كلب صغير وضع مخالبه فى وعاء به ماء.

وفى هذه السنوات، انغمست بنفسها فى العصر الجديد: البلورات، التأمل، رحيق الزهور، تنفس الأرض لموازنة التيارات الكوكبية. أخذت "هارفى" لزيارة أحد المعلمين البدناء للديانة الهندوسية، والذى كانت صورته حينذاك معلقة فوق فراشه، الصورة اللامعة التى عرف "فرانسوا" أنها لصاحب مطعم يونانى، رجل له غدة درقية متضخمة وأسنان من نوعية رديئة كأسنان البغل، يُلجم وجهه بنظارة سوداء. كانت "بيجى" تنضم إلى المحافل حيث يحاضر الزوار عن مزج الأطعمة، وانحسار الحياة الماضية، ونظم الشعائر الجنسية عند المسيح. وبسبب قابلية "هارفى" للمرض، بدأت تغلى لعبه، حتى أنه كَبُر مع مجموعة من الدمى المتسلخة، والتماثيل الصغيرة التى انصهر نصفها، والقضبان الساخنة ذات العجلات المنبسطة.

وعلى مر السنين، بددت مخاوف "فرانسوا"، وليس قبل أن يبلغ "هارفى" الثامنة، حتى تأكد "فرانسوا" إلى أى حد تمادت الأشياء. وفى هذا الأسبوع دعا رجل أعمال مقرب من واشنطن

"فرانسوا" على الشراب. وبعد قليل، شاركه "فرانسوا" فى ورطته. كانت جلسة الأمريكى ثقيلة، له يدان سميكتان لا تتحركان حينما يتكلم، ياقة مدبوغة وجبهة شاحبة. كان قد اقترح فى وقت سابق أفكاراً قليلة للمصقات الحماية، كلها قائمة على الصيد. الآن جلس، ثنى يديه على الخشب الخشن، بينما هو يشرح ما اسماه (علاج الولد اللعوب). قال، إن ولده كان هزيلاً وأن الحل لديه أن يرشى الولد بمجلة "البلاى بوى". سيريه الآن صفحتى المنتصف، ثم يعده أنه لكل شهر يؤدى عشرين مرة تمرين الضغط يومياً سيحصل على هذا الإصدار.

جعل الرجل هذا يغوص بداخله، يدان مثل الطيور الميتة على الطاولة، لا تصلان حتى إلى الجعة.

قال، حسناً، لقد فعلها. إنه نجم ساطع فى كرة القدم.

حينما رجع "فرانسوا" إلى البيت، كانت "بيجى" فى فراشها تقرأ عن علاج الأمراض الشائعة بنبات الهندباء البرى. مضى إلى حجرة "هارفى". جلس على الفراش وقال، يا بنى، أعتقد أنك كبير بما فيه الكفاية. لاحظ "هارفى" هذا الصوت الجديد، أكبر من صوت أبيه. نظر إلى المجلة، السيقان بالجوارب الطويلة وبهجة الشفاه. شعر بسر قوة الأجساد العارية، استشعر الوحدة فى الطريقة التى ظهرت بها الفتيات، كما لو كن قد وقعن فى فخ. بالنسبة إلى "فرانسوا" جرى الحديث بصورة جيدة. كان "هارفى"

متقبلاً، حتى وإن كان متعجباً. وعد بأن يؤدى تمارين الضغط، وألا يخبر "بيجى"، على الرغم من أنه عندما عاد "فرانسوا" إلى البيت فى المساء التالى، كانت تحشو أكياس البقالة بالملابس، وقد تلون جلد وجهها وذراعيها بالغضب.

فيما يتعلق بـ"هارفى" ظلت السنوات قبل انفصال والديه صافية ورائقة. حلم بأن يكون قوياً نفسياً، يجعل صفحات الورق تسبح فى الهواء أو ينفخ فى المصابيح بعقله. لقد تعلم أن الله كان روحاً واحدة، كان كل فرد، غير مقيد بزمن، عاش كل حيواتهم. أخبرته أمه أن هذه الطاقة الإلهية كانت مثل الشمس، وأنه يجب أن يتخيل نفسه مثل نورها الذى أحبه. قالت، إنه من المقدر له أن يكون رجلاً مقدساً، وستساعده دائماً، وحولت غرفته إلى مركز قراءة لـ"العهد الجديد"، وجدرانها إلى معرض لصور القديسين. ورسما معاً صوراً له يتعبد على قمم الجبال، فى المعابد. سوف تكون رجلاً مقدساً من نوع خاص، أصلياً بصورة تامة، هكذا كتبت على بطاقات عيد ميلاده، مع أجزاء متنوعة من الحكمة تشبه كثيراً الخطوات الاثنتى عشرة التى سمعتهم فى المساء على مائدة العشاء من أبيها حينما كانت تكبر.

لكن مع كل هذه الأحلام الغامضة، البغض الشديد الذى تمكن منه: الطين، المطر، رائحة السماد العضوى المتحلل، والجبن المصنوع بالمنزل، وأوانى اللبن الرائب المتخمر المكشوفة على المناشف، أو كسر الخبز

وبراعم الفجل التى ترسله أمه إلى المدرسة بها، والتى كان ينزعج منها. إن سقوط قطرة من السوائل المتبلة على قميصه كانت تجعله على وشك البكاء. وعندما يتَبَرَّز طائر على كتفه أو عندما يطأ بحذائه فى غائط، يتجمد متشنجاً من الغضب. لقد كره حتى اسمه. بدا اسماً غامضاً. كره الرياضة والحشرات، الفتاة جارته التى تجمع العناكب فى البرطمانات الزجاجية. تجنب أمه حينما كانت ترعى الحديقة، أو حينما "تظرط"، وتضرب على يدها وتقول، سامحنى يارب. حينما يكور الأولاد فى المدرسة البصاق فى فمهم ويطلقونه لأبعد مسافة، أو ينخعون المخاط ويدعونه يتدلى من شفاههم، أو ينفخونه فقاعات مثل مضغ العلكة، كان يتقيأ. فقط فيما وراء سور الفناء كان المشى، وأثناء رجوع العجائز، يتوقفون ويلوحون. كان خائفاً من المشاة فيه وملابسهم القبيحة، رءوسهم المجعدة مثل حبات الجوز البنية.

على الرغم من أن حب أمه المشفر فى الذاكرة المبكرة، كان هو المعرفة بأنه قد جعل أباه حزيناً. وعلى مر السنين، فإن هذا الانطباع عثر على الكلمات، الشعور بالذنب. إن نظرات أبيه الذاهلة تجعله يفور ويغلى. كان مجبراً على تأدية تمارين "التايكوندو" حيث يؤرجح الأطفال أرجلهم مستقيمة مثل العصى، والذهاب إلى نادى الملاكمة حيث ينصت الهنود الشرقيون إلى صوت الضربات العنيفة ويرتدون معاطف القراصنة. وينظرون إليه كما لو إنه يطفو فى

سلة باتجاه التيار. خلع القفازات على حقيبة الملاكمة وبكى.

وفى النهاية اشترى له أبوه معملاً مختلطاً. كان "هارفى" متشككاً أن يرى فى نظرة الكلب المحدقة المصوبة جحيماً من السلب، كلباً مطبوعاً على السراويل، الغائط ليكشط من الحذاء. إن فأراً صغيراً أبيض سيكون أفضل من الكلب الذى يحفر بمخالبه ويطأ، يهز رأسه بانتباه غير ملحوظ مفاجئ، قالت أمه، "اختلال عصبى" كلى فى درجات التنبه. وبعد مزيد من البحث فى الأنشطة الرجولية، أخذ "فرانسوا" حينئذ "هارفى" لصيد "السالمون"، لكنه أخطأ فى المواعيد، الأسراب قد انتهت تقريباً، فالسالمون المتعفن على الضفاف الحصباء اصطبغ باللون الأرجوانى بظهور محدبة وفكوك معقوفة، يطلق الغضب المكبوت من الحيوات القصيرة. لم يصطادا شيئاً يُذكر فى خضم الرائحة الكريهة المنبعثة، والمعاناة الحالية مع الخوض. التهم الكلب نفسه اللحم الفاسد فى الصندوق المظلم للشاحنة، وركض إلى وجهيهما، وهما عائدان على الطريق الطويل إلى البيت.

كان الانفصال حينما حدث متنفساً مريحاً من العجز، وخصوصاً الآن حيث إنه خان أباه. لقد عَلِم منذ وقت طويل أن كل شىء قاله "فرانسوا" كان موضع اهتمام أمه. فهى قد شاركت فى أجزاء كثيرة من الحكمة على مر الوقت، وأن "هارفى" قد ألف قائمة، بدءاً بشرور الرجال، وانتهاءً بكون أبيه رجلاً مثل غيره

من الرجال. أخبرته غالباً بأنهما فقط غير قادرين على التطور. ومع الوقت، أتى "فرانسوا" ليقول وداعاً، وكانت "بيجى" بالفعل تنتظر فى سيارة أجرة سوف تأخذهما إلى المطار. أراد "هارفى" فقط أن يرحل، ليكون بعيداً على قدر الممكن عن كل هذا الذى فشل فيه.

قال "فرانسوا"، سوف تزورنى، وسوف أرسل لك نقوداً. إذا اشترت هى لك أشياءً، يكون هذا من نقودى، لذلك عليك أن تعرف فقط أننى هنا أدفع لكل شىء، وهو كذلك. وتذكر تمرينات الضغط. سوف نحصى هذا. وحينما تزورنى، سوف أشترى هذه المجلات، لكن لا تخبرها مرة أخرى.

وفى السيارة الأجرة، سأل "هارفى" ما إذا كانا يرحلان بسبب المجلات.

ضحكت بطريقة جافة وقالت، لا.

لقد كان انطباع "هارفى" عن البلد جنوب الحدود محبطاً. وبعد سنين، حينما كان يتساءل ما إذا كانت كندا مختلفة، لم يستطع أن يحكم بشكل صحيح. فبينما كانت كندا مفتوحة وعاصفة، إلا أن الولايات، الجنوب على الأقل، بدا منغلقاً، رطباً، تكتنفه الأخطار السرية، رجل سمين مترهل يهزهز حزامه عندما يخرج من إحدى الحارات، يبصق التبغ ثم يقول، أهلاً ياصديق، أو ولد أسود متأنق يتفقد شارعًا وسط المدينة الهادئ مثل جنرال، ويخبر "هارفى" بدون سبب واضح أن يذهب بعيداً عن هنا.

وفى هذه الأيام الأولى، عاشا مع جديه اللذين كان لهما كرشان ضخمان وأشياء منتفخة، عانقاه وربتا عليه، وأعطياه قطع الحلوى، وشعرا حينئذ أنهما قد أديا واجبهما. وبعد أسبوع أقرضا "بيجى" ما يكفى لشراء سيارة مستعملة، وأجرا بيتاً فى عربة مقطورة فى حديقة، وقالا، مع السلامة الآن، وفى كل مرة كان يأخذ حقيبة ليحملها إلى صندوق السيارة.

عملت أمه فى وظائف مختلفة، وكونت صداقات فى مكتبة الجماعة الروحية السنسكريتية "العصر الجديد"، وبدأت تعمل فى دائرة ترتيب المواعيد الروحانية. وفى أسابيعها التى تكون بمفردها تستعيد تجعيدة مستديرة محكمة بأهداب من الأحاسيس المؤلمة المفاجئة، تشارك فى تمارين "الإيروبيكس" للمحافظة على شكلها، وتتحدث فى التليفون، غالباً وهى ترتدى الثوب المبهرج بالأصفر والأزرق.

قالت، "جاكلين"، عرفت أنك اتصلت، عرفت فقط قبل أن أُلتَقط.

تحدثت عن "نقاط قوتها"، "الشاكرات" الروحانية، كمون الطاقة الذى خبرته فى إبحارها، ومضت يستحثها شىء ما قيل عبر التليفون، لتناقش كيف أن ما جعل "هتلر" مثل هذا الرجل الشرير هو الطاقة المحتجزة فى "الشاكرا"، نقطة القوة فى حنجرته. قالت، إن كل هذا قد احتجز الطاقة. لابد وأن هذا دفع به إلى الجنون. تستطيع أن ترى ذلك حينما يتحدث، حديثاً متقطعاً كلياً، كما تعرف فى الأفلام.

جلس "هارفى"، يتحسس حلقه للحرارة أو السكون، يتساءل ما الذى كانت تفعله طاقته ويفسح لها طريقاً بالسعال الخفيف ليرى ما إذا كان هذا يحدث فرقاً.

لقد قرأ عن الخيمياء وتحول النفس إلى كائن إلهى، ذهبٌ الاكتمال. وفى روايات "العصر الجديد"، دخل الناس عوالم الحلم، أو أصبحوا طاقة نقية، وإنه يستطيع أن يتخيل هذا، حجمه الساكن دخل إلى مرحلة الضوء، الآن يسرى بعيداً. لقد كان تفكيراً مفرحاً. لكن كيف؟ فى الخرافات الدينية يلقى الرجال المقدسون الضوء فقط على المجرمين. شعر بالضجر ومشى خلال الحديقة حيث عرية المقطورة. نظر من أعلى، جمرات لامعة فى الغسق حيث الصغار يدخنون وهم يجوبون الشوارع فى كسل على الدراجات.

وفى هذه السنوات، تنقلت "بيجى" و"هارفى" من جهة إلى أخرى، تبحث دائماً عن مكان أرخص. تدرجت معه من كتب صور القديسين إلى السيَّر الذاتية القاسية للرجال القديسين. قرأ كيف أن صيام "غاندى" قد أوقف أعمال الشغب وحرر الهند، ومسيرته إلى البحر من أجل الملح. لقد عرف عن تصميم "بوذا" على إنهاء المعاناة، السنين التى قضاها بمفرده، وازدراه هؤلاء الذين كان يأمل فى أن يعلمهم. حتى "المسيح" قاسى من أوقات صعبة، وقام ببعض الأعمال الجيدة. لكن "بوذا" قد حقق أفضل صفقة،

حيث إن أباه عزله عن ألم الوجود والشيخوخة والموت، حتى رحل ذات يوم، وشاهد المعاناة المتعددة للعالم.

وبينما كانت سنوات المراهقة تورِق من حول "هارفى" مثل الأعشاب الضارة، ظل على الروح الدقيقة نفسها، على الرغم من أنه لم يحب بشكل أفضل. لقد خفف الوحدة عن طريق القراءة أو ممارسة التنفس الخاص البطىء من خلال الكتيبات التى أحضرتها أمه إلى البيت. لقد آمنت به وأخبرته بهذا دائماً. لقد ازدادت فى الوزن، تضخم صدرها وأردافها، وحتى حينما كان فى أوائل سنوات المراهقة، مازالت ترفعه إلى حضنها وتقول، أخبرنى عن أفكارك المتألقة تلك. وتكلم، وعظ من علٍ مثل دمية تتكلم من بطنها، لكنه لم يُعَبِر أبداً عن وحدته، عن شعوره بأنه مُحاصر.

وقرأ ذات يوم فى كتاب العلوم أن الترويض ينجم عنه المزيد من التكوين العظمى الرقيق، وأن الكلاب والقطط والخيول وحتى الطيور أصبحت أصغر حينما استُأنست. فى هذه الليلة وضع يده فوق مصدر ضوء متقطع، وتأمل فى شفافية جلده، عظامه الرقيقة مثل عظام الطيور. ربما كان هو الذروة، الإنسان المتطور بالكامل. وحده من استطاع أن يصدق ذلك تقريباً. كانت لديه جاذبية طبيعية للنقاء. نشأ محاطاً بالصور المباركة والتنوير، كان مقدراً له أن يتعلم. لكن أين كان الواقع؟ لقد تمنى لو إنه نشأ يهودياً، لاستطاع أن يتهاوى إلى الخلف على جوهر الصخرة الصلبة

للتقاليد التى قد تمنحه الشجاعة لأن يلبس مثل غريبى الأطوار، ويصلى علناً.

وقف عند النافذة، قد يبحث إلى ما لا نهاية، ربما سينتهى من مضغ حبوب "الكولا"، متجعداً كلياً وهزيلاً، فى ملابس بدائية، على جانب الطريق الغامض. ما الذى يضمن أنه سيلقى الحب، أنه سيحقق بعض الأهداف؟ إن الحارة فى الضاحية لا تعكس شيئاً. فقط أعشاب خضراء تزين الأرصفة. علامات التوقف تلقى بأشكال ثمانية ممتدة، مثلما تنحدر الشمس فى مكان ما بعيداً. استطاع أن يرى فى الظلام القريب كل شىء، صف فوق صف من المنازل مثل أرتال سيارات قد تنطلق عند المساء، تحتل حقلاً آخر بدون أن يعرف النائمين أبداً، حقل يقف المرء أقرب إلى دمارهم.

فى الخامسة عشرة، عقد أول صداقة، أحد الأحداث الجانحين من قبيلة "موهوك" الهندية ضخم، قادم من "دى سى" ليساعد فى البيت. طلب الولد أن يغش منه، وحينما وافق "هارفى" متردداً، لأنه كان يعرف أن إجاباته بدون شك خرقاء، أصبح الاثنان حليفين. كان من المثير أن يسعى إليه أحد ويُعجب به، القاصر الآن يحصل على درجة النجاح فى حدها الأدنى بعد أن كان يرسب. لكن بعد بضعة أسابيع، حصل كلاهما على عقوبة الاحتجاز، وحينما قرر أنه سوف يهرب، لم يستطع "هارفى" أن يتخيل خسارة صديقه، ومن ثَمَّ ذهب معه. طلب الولد نصيحته، وهو

غير متأكد من المكان الذى يذهبان إليه، وانتهى بهما الأمر إلى الاختفاء فى سقيفة بحديقة "بيجى".

وخلال اليومين التاليين، اعترف الولد بجرائمه. سرقة، عنف، اعتداء جنسى. سامحه "هارفى". لقد أخذا غفوة قصيرة، يريان بعضهما البعض من خلال صولجانيهما المضيئتين من خلال الجدران الصفيحية. انصرم النهار. سمعا أصواتاً هيستيرية فى الخارج. وسرعان ما رغب الحدث الجانح فى أن يستسلم. إنه لم يقض طوال حياته يسعى إلى السعادة القصوى للنيرفانا ويعيش فى وحدة يتأمل فى الكهوف. بالنسبة إلى "هارفى" كان الأمر سهلاً. أراد أن يؤثر فى هذا الشاب الذى لا يصلح أبداً لأى شىء أكثر مما فعل، والذى كانت غضباته النارية تجعله يصدم الأنداد، ينقر للمدرسين، يمزق الكتب المدرسية من المنتصف. كان "هارفى" مرعوباً، لكن الصداقة قد أذابت كل الحواجز إلى قلبه. وعند إصرار الحدث كان يتسلل إلى البيت من أجل الطعام.

سأل الحدث، ما الذى سنفعله؟

أخبره "هارفى" أنه ذاهب ليعيش مع أبيه فى كندا.

قال الحدث بدون تفكير، فى كانساس؟

لا، فى كندا.

أين تقع؟ هل أنت متأكد أنك لا تقصد كانساس؟

كرر "هارفى"، كندا، وهو يدرك مرارة أن يشرح كذبته.

أخبره الحدث، ربما كانت طريقة أخرى لقول كانساس، بهدوء لا يرغب فى أن يتنازل عن موقفه، إحساسه الحقيقى الوحيد بالمكان من رواية الأطفال المصورة "سحر أوز العجيب" الذى شاهده فى جناح الاحتجاز الذى سرعان ما سيعود إليه. التنوير لم يكن من أجل كل فرد. جلسا فى الظلام، آلة جز الحشائش فيما بينهما، جواريف لجمع العشب ومقصات تشذيب وأدوات البساتين على الجدران. كلها كريهة الرائحة من الحشائش المتعفنة. ومازالا ينتظران شيئًا ما أن يحدث.

فيرجينيا - نيو مكسيكو
٢٠٠٥-٢٠٠٦

فى عمر السابعة عشرة، قبل عدة شهور من تخرجه، بدأ "هارفى" تقدمه الأول فى النمو. كان يقرأ عن التلوث والحمية الغذائية الحديثة وتسمم القولون، وتأثيراته الكثيرة التى من بينها وقف النمو. كان واحد وخمسون، ستة وتسعون رطلاً، ويحدوه الأمل فى دفقة النمو الأخير. اثنان وخمسون، سوف تحدث فرقاً كبيراً، عَالماً بعيداً عن واحد وخمسين ودلالته المشكوك فيها فى التنبؤ بعلم الأرقام. وحينما عادت "بيجى" إلى البيت ووجدته يضع ساقيه متقاطعتين على غطاء الفراش، وعَلِمت بمخططاته، أفلتت منها الكلمات، لكنك لا تأكل أى شىء فى المقام الأول.

لم يكن "هارفى" ليقتنع. فهو قد قرأ أيضاً أن الصيام يُمَكِّنَه من أن يستعيد الشهية التى فقدها بالتسمم. كانت بدايات الربيع، وبينما كان زملاؤه يسحبون قماش سيارات الجيب ويتسابقون نحو

الشاطئ أو يقيمون الحفلات التى يتلمسون فيها الطريق إلى البنات اللواتى عرفوهن من الحضانة المدرسية ويتقيأون فى الأحواض، كان "هارفى يغدو أنحف. لقد أحب الإحساس بالخيالات والنقاء. لقد كان نباتياً منذ أكثر من سنة، لكن هذا كان نظاماً آخر. فقد الحاجة إلى النوم، إلا أنه لم يشعر أبداً باليقظة. لقد تحول بوله إلى اللون البرتقالى اللامع. بدأ فى اليوم الثالث يشعر بالحمى تنتابه. وبعد ذلك انتهى الأمر.

أخبر أمه حينما انتهى، أنا لن أمرض ثانية أبداً.

بعد دقائق من أول زجاجة من عصير التفاح البارد اندفع نحو الحمام. وفيما بعد جعله ساندويتش من خلطة فول الصويا واللبن المتخثر، يشعر بآلام مرعبة فى معدته حتى تقيأ ما فى جوفه. وعندما عاد إلى المدرسة فى غضون يومين، كانت لوزتاه متضخمتين، وهناك التهابات فى إليتيه من الجلوس على أسطح ساخنة. أخذ كتبه إلى المنزل حتى يشفى، ربما ليبقى إلى الأبد، فبعد أن جالت أمه فى محل البقالة الكبير أحضرت له اثنتى عشرة علبة من غذاء الأطفال.

قال لها، المشمش جيد.

قالت، أنت تحتاج فقط أن تبدأ ببطء.

ربما كان هو الصيام الذى دمر إيمانه. فلسنوات كان يلاحظ أمه وهى تنتقل من صرعة إلى أخرى،

تنصت إلى الشرائط المسجلة عن العودة إلى الشباب من خلال التفكير الإيجابى، مراجعة بطاقات الملائكة، أو الوقوف أمام المرآه والصراخ كما لو أنها تواجه مقتحماً، اذهبى يا تجاعيد! فعلت الشىء نفسه مع البروزات العظمية وتقلصات الطمث. لكن شيئاً لم يجد. لقد نشأ فى إرهاصات طبيعية تتحدث عن التنوير، لكن لم يشعر به يقترب. لقد حان الوقت لاختبار المسيحية.

فى هذا الأسبوع نفسه، أصبح "هارفى" مولوداً مرة أخرى. وفى كل مساء بعد المدرسة، كان يقفز إلى السيارة المقفولة البيضاء الطويلة فوق العادة، ويركب من أجل اجتماعات الصلاة، والمشاركة فى إعداد الوجبات الجماعية، والتجمعات السياسية. تقدم شيئاً فشيئاً إلى الجماعات، لكنه عندما شارك فى الأحاديث عن الرياضيات أو الكليات المتوقعة أو تأثير الشيطان فى الشرق الأوسط، صمت الآخرون تدريجياً وحملقوا فى وجهه اللامع، فزعوا من صوته المزمارى. لقد كان أقرب شىء إلى الأقلية فى حشد ضخم، هذا الولد صاحب الاسم الغريب المزدوج وأبعاد الحرمان الشرقية. كان هؤلاء الشباب كبار الحجم متأنقين فى ملابس متواضعة. وفى هذا الأسبوع الأول، نقل مقتنياته الأساسية السحرية إلى محل بيع الكتب المستعملة، وحرر العناصر الوثنية لمذبحه ليعيدها إلى الطبيعة. عمل على القراءة من الكتاب المقدس، لكنه لم يستطع أن يقرر ماذا يفعله

بشأن كتاب مُحَمَّل بالكثير جداً من الجنس والوحل والعنف. كان مازال يجرفه التيار ولم يهتد إلى مرسى. إن الدموع التى أغرورقت بها عيناه لم تكن متوهجة. لقد اندمج مختلف الحنين والتوق بصورة مشوشة: مستودع الأسرار، فتاة، الحب أو قبس من الله. طوى القسيس تلميحات الكتاب المقدس إلى نكات عن البطل العظيم المرابض فى اللباس الداخلى. أخذ المغنون جيتاراتهم الكهربائية وآلات العزف الإلكترونية، وغنوا الترانيم الأبدية.

وحينما أنزلته الشاحنة، مشى إلى الفناء الخلفى. فقد انتقل هو و"بيجى" مؤخراً مرة أخرى، فى هذه المرة فى قسم من المنازل النمطية المتماثلة المبنية حديثاً فوق مزرعة مهجورة، حتى أن آلات جز الحشائش معلقة متفرقة وقد صدأت أنصالها مثل السلوك الشائكة. وكانت حقنة البقر الضخمة بإبرتها التى مازالت سليمة، انتزعت منها تربة الحشائش بنت عمرها ثلاث سنوات. وليس بعيداً فيما وراء المدخل الخلفى لـ"هارفى" أعطى اللون الأخضر على الشعر الوبرى للمراعى غير المقصوصة، وبعد هذا مازال هيكل الحظيرة يقف مثل هيكل مدينة عمورة التى دمرها الطوفان. لم يكن هناك سور، لا مصرف ولا قناة للأوتاد المرصوصة لتحديد الحقل، مجرد تجميعات غير متساوية من التربة. أسقط دراسة الكتاب المقدس وهو سائر، ثم رقد فى تابوت من الحشائش الطويلة برائحة الأبقار، نقشت السماء فوقه

المظهر الرث لشكله. ومع الريح، لوح سائب من الحظيرة يلطم أحد الأعمدة، محدثاً سلسلة من الضربات، تعوى الكلاب فى الشارع هنا وهناك. تصدر صراصير الليل من حوله صفيرها الذى يشبه صوت المنشار يروح ويجىء قريباً جداً حتى أنه شعر أنها ستلتهمه فى نومه مثل سمك "السلور" المفترس. ضغطت البرودة على ظهره وملأت رئتيه.

وبعد فترة قصيرة من احتفالات التخرج التى تخلف عنها بسبب الالتهاب الرئوى، رحل "هارفى" فى زيارته السنوية إلى أبيه. سافر فى رحلة آخر الليل. كان "فرانسوا" منتظراً فى المطار، يبدو فى صحة جيدة، يرتدى ملابسه على أحدث مودة، معطف جلدى له ياقة من ألياف الصوف الصناعى.

كانت السماء صافية زرقاء، ولأنه كان مجهداً، تحدثا بهدوء على الإفطار. كان "هارفى" مؤخراً يفكر فى "كيبيك"، فهو باعتباره كاثوليكيًا ربما يكون مثل واحد من هؤلاء الذين يواسون القساوسة الإيطاليين فى نيويورك فى الأفلام. لقد خطر على باله أنه كانت له عائلة فى مكان ما، فى المكان الذى قد يشعر فيه أنه فى الوطن، حيث كان هناك آخرون مثله. سأل عن اسمه، وعما إذا كان "فرانسوا" لم يتحدث الفرنسية.

توقف "فرانسوا" ونظر على "هارفى"، كما لو إنه لاحظ وجوده حينئذ. قال، حسناً، وأخذ نفساً عميقاً. كان الحماس المفاجئ فى نظرته مخيفاً.

بدأ يحكى قصصاً، كان "هارفى" قد سمع منها نتفاً من قبل، ولم يهتم بها أبداً، على الرغم من أنه فى هذه المرة أجبر نفسه على الإنصات. وصف "فرانسوا" رجال "هيرفى" الذين كانوا أقوى الرجال فيما حولهم الذين قاتلوا وأزعجوا الريف بعجرفتهم غير المشروعة. وصف مثابرة ذريتهم الذين كانوا فيما بين الأوائل ممن استعمروا أمريكا الشمالية، وكيف أن جدته فى بحثها عنه قد طافت القارة لسبع سنوات، يدفعها الحب والإيمان. لقد كرر الحكايات التى قصتها مرة إثر أخرى، عن العائلة والتاريخ ورؤاها، يزخرفها هو نفسه، يطورها من أجل استغلالها فى مجال الأعمال، وتطويعها من أجل العلم.

قال "فرانسوا" وهو ينبش بأظافره، أتذكر تقريباً قولها بأن أحد أجدادنا قد اخترع نوعاً معيناً من الأشرعة. وعموماً، هم كانوا بحارة.

سأل "هارفى"، أين هم الآن؟ جلس على حافة المقعد فى أنهم ربما كانوا فى مكان ما يمكن أن يزوره فى النهاية، بضعة من أبناء العمومة الذين كانوا ضئيلى الحجم لم يرد ذكرهم.

رد "فرانسوا"، المفترض أنهم رحلوا جميعاً، وبدا حينئذ أنه يراجع نفسه. لكن هل تعرف أننى عشت حياتى بهذه الطريقة أيضاً. ومضى يصف زلات الطريق، المغامرات عبر البلد التى لم يكملها أبداً تماماً، حتى أنه ربما فى المكان الذى حكى شيئاً ما

أكثر، ربما قد أنهاها، طافت فى عينيه نظرة كئيبة، حزن أراد "هارفى" أن يفهمه، أن يجد التعزية فيه.

بدا "فرانسوا" غير قادر على أن يربط النهايات المفتوحة مع بعضها البعض. لقد تراجع، متحدثاً عن أن رجال "هيرفى" قد عشقوا النساء، كانوا انفعاليين تتملكهم العاطفة والغضب. وأخبر "هارفى" بصوت الزوج أنه قد عاش مع مومس. استحضر رؤى الصدر البض لامرأة كان جسدها يتحرك ببرودة غير مبالية بالاكتمال. فجأة تحقق "هارفى" من أن هذه العائلة كانت تكرهه، من أنهم يخجلون من واحد من سلالتهم، واحد وستون بوصة، سيصيبه الإغماء بالتأكيد فى حضور مومس، أو حينما يخرج فى البحر المفتوح من أجل هذه المسألة.

لاحظ "فرانسوا" صمته. ماذا بك؟

أوه، فقط كنت أفكر فى أن كل هذا لا معنى له، إنه هراء. حاول "هارفى" أن يسترجع فى ذهنه ما الذى أزعجه. شرح اهتماماته الخاصة، أهمية المواقف الصادقة، الاكتشافات الحديثة للعلاج الغذائى. تردد، فجأة خجل من أن يسمع نفسه.

مد "فرانسوا" لسانه فى خده ونظر بعيداً.

وبعد بضعة أسابيع، حينما حان وقت رحيل "هارفى"، رأى إحباط أبيه فى أغلب الأحوال. تنهد "فرانسوا" عند الوداع. وعلى الطائرة، بعد أن أقلعت، أنزل "هارفى" ظهر المقعد الأمامى. وضع رأسه على

ذراعيه المتقاطعين. لقد قرأ فى بعض التقاليد القديمة أن كل باحث يعتقد أنه يكمل الرحلة التى بدأها أسلافه، مهتماً بالرغبة التى انقطعت بالموت. لكن من مات اشتياقاً إلى النور والسلام والسعادة البسيطة، هل يستطيع أن يحلم بالرجوع إليها؟

وبينما الطائرة تتخلل السماء المتقطعة، بكى. مرت المضيفة، ساندته ووقفت عنده. قالت، هل أنت مسافر بدون والديك يا حبيبى؟

وضعت له مصاصة على شكل قلب.

لقد أثبتت الكلية أنها بديل هزيل من أجل بدايات الاستهلال لنبى. فى هذا الخريف، التحق بفصول قريبة، وعاش فى البيت. لم تطلب أمه منه أن يعمل، بل أعطته بطاقة ائتمان، دفعتها هى. واشترت له سيارة "تيوتا" مستعملة كان يقودها وهو يجلس على وسادة. كانت تهينه وتشعره بالخزى رغبتها فى وضع افتراضها بأنه لن يقدر أن يفعل هذا بنفسه. كان لديها الآن علاقة على البريد الإلكترونى مع رجل إنجليزى قابلته من خلال موقع على الإنترنت للتعارف. وأحياناً، حينما تثرثر لفترات طويلة حول أصدقائها الروحانيين وعن جمال "العصر الجديد"، كان "هارفى" يتوارى بعيداً، ويخفى نفسه، يخشى أن يعترف بأنها ربما تكون حمقاء، لأن الكثير جداً منه كان لها. وما الذى عرفه؟ ربما كان العالم بسيطاً أكثر مما استطاع أن يتعامل معه. كانت درجاته ضعيفة. التكليف الدراسى الوحيد الذى وجده مثيراً قليلاً كان هو أن

يبحث فى اسمه، وعلى الرغم أنه لم يجد أملاً من ناحية علم الأنساب، إلا أنه قد قرأ عن القديس "هارفى" الويلزى والبريطانى، أو "هيرفى" الرجل الأعمى الذى أحبته الحيوانات، ويقوده ذئب على الطريق، وكان حضوره يجعل الضفادع تغنى. لكن كل هذا أيضاً انتهى إلى سؤال كبير، ثم ماذا؟ إنه لم يكن أعمى، ولا يهتم كثيراً بالضفادع التى تعيش فى الطين، ولا بالحيوانات وخصوصاً الكلاب. المدهش هو أن أستاذه كتب بالقلم الأحمر "مقبول".

وفى إحدى المرات بعد الفصل الدراسى، سأل "هارفى" مدرسه الأحدب فى مادة التاريخ عن "كيبيك". كان الرجل يجمع مذكرات "جون كينيدى". كانت لديه كل وثيقة عن الموضوع، الموديل المطابق للكاميرا التى صورت فيلم اغتياله، ونوع البندقية نفسها التى استعملها "أوزوالد"، والتى كان يحضرها أحياناً إلى الفصل، على الرغم من أنه التزم بإزالة إبرة ضرب النار منها حتى يفعل ذلك.

قال وأومأ برأسه، "كيبيك"، ويداه فى جيبيه ليشدد على تحدبه. فى الأساس، كلهم يتحدثون الإنجليزية، لكنهم يَدَّعون أنهم لا يفعلون من أجل أن يكونوا مزعجين للسياح. من الأفضل أن تذهب إلى فرنسا إذا أردت أن تتعلم اللغة والطريقة التى تكون عليها.

وفيما بعد ظهيرة أحد الأيام الأخيرة من ديسمبر، حينما كان "هارفى" عائداً إلى البيت، كانت هناك رسالة من الكلية فى صندوق البريد. تشرح أنه

سيكون فى فترة اختبار أكاديمى. قرأ الرسالة مرتين، ثم مشى إلى الحقل الذابل وحملق فى الإطار المكشوف من الحظيرة. سقطت رقاقات مفردة من السماء المعتمة، أقل كثيراً من أن تثير اضطراباً، وأكثر كثيراً فى إدراكها عن أن تُكوِّن ثلوجاً. البرد جعل عينيه نهراً. "هارفى هيرفى" لم يكن أكثر من اسم عشوائى، "فانكوفر" أو "فيرجينيا" أماكن عشوائية. إذا بقى لن يرتقى أبداً إلى مراتب القديسين. فلن يقبل أحد إذا تغير، ولا حتى أمه. لم يكن يريد أن يصبح جزءاً من هذا العالم.

ذهب إلى حجرته، وألقى بكل شىء على ملاءة سريره، ثم طواها من الأركان، ونقلها إلى سيارته. عقله أكثر سلاماً من أى تأمل، وقاد سيارته خلال الليل. كان هذا أول اختيار له. فى مكان ما على الطريق تذكر قصص أبيه. شعر بألق، شجاعة، من أن "فرانسوا" فى النهاية ربما كان فخوراً. جلس على عجلة القيادة متزمتاً جامداً، سكبت مرآة المشهد الخلفى إلى عينيه مشهد الفجر وهو يندفع فوق السهول من خلفه.

كانت الشجاعة شيئاً جديداً. الأرض اللامبالية بدت قديمة، بدائية، بعيدة عن تشوهات الإنسان، التحويلات والمتنزهات الصناعية. طفرت الدموع على الفراغ من أمامه.

وفى وقت انهمار المطر شبه الثلجى، توقف عند فندق صغير رخيص. كان الموقف الممتد يعج بالضجيج

من عـدد كبـيـر من المـتـذمـرين مع مـا يـشـبه جـذوع الأشجـار، وعلـى مـسافـة تلمع عـلامـة "بيـرة بودفـايزر" فـى نـافـذة الحـانـة. تـخيل عـمـلات الـدولار الـورقـيـة فـى الحمـام، يفض سـائقـو الـشـاحـنـات طـيـاتـهـا، الـنـادلات بأسنانهن البنية، ورموشهن مثل سنانير السمك. ربما كان الـرجل عـلى المكتب أخـبـرهـن أنه هـنـا. ينهض فـى الغالب ويجذب ستاره، ويحملق على الأسفلت المروع.

وعند محلات "وول مارت" فى "أماريلو" نظر على عـروض الـتـخـفـيـضـات. تحـركت الـنـسـاء بمؤخـراتـهن الـثـقـيـلـة يتـمـايلن بـأجـسـادهـن من أسـفل ديـنـاصـورات التلفزيون. طلب أمه تليفونياً. وحينـمـا مـرت نـوبتـهـا الـهـيـسـتـيـرية، كان تعليقها الوحيد الـذى كررته، أنت لا تحتاج إلى السفر بعيداً لتكون مقدساً. وفيما بعد، وجد قـائـمـة بصوامع الـتـنـسك للـشـعـائر الـهـنـدوسـيـة فـى واحـد من كتـبه. كـان الـكثـيـر منـهـا فـى نيـومـكسـيـكو. واستـمـر بـاتجـاه غـروب الـشـمـس، الـطـاقـة الـذرية فـوق السهول المهجورة.

ارتـفـعـت الـطـرق بـين الـولايـات إلـى الأحـواض الـصـحـراوية المتجـعـدة. هـمهم الصمت بداخله كـمـا لو إنه قد مسه الـتـنـوير بـالـفـعل، على الـرغم من أنه عَلِم أنه يكون من المخيف الإنصات المتزن لأحد الحيوانات. اكتسب الارتـفـاع فـوق سـطح الـبـحـر، يـبـدو مـحـرك سيارته ضعيفاً، مثل آلات جز الحشائش. خلت السماء الـزرقـاء الـهـائـلـة من الـنـور. نـام فـى إحدى استـراحـات المـواقـف. فـكر فـى أن الأسـمـاء الـتـى سـمـعـهـا يمكن أن

تتلاقى مع الأشياء نفسها: "ساجوارو" نباتات الصبار العملاقة، و"ساجبراش" الأعشاب الهائلة، و"بالوفيرد" الأشجار الصفراء، و"بينون" شجر الصنوبر الأمريكى. اندفعت السحب إلى الوراء، قطرات قليلة متجمعة من الأمطار على سقف السيارة.

وفى الصباح، اتصل بصومعة التنسك. كانت على بعد ساعتين، لكنه ليس لديه أوقات فراغ. أعطته المرأة رقماً لرجل يؤجر غرف فى موقف عربات المقطورات. وطلب "هارفى" الرقم، تحدث قليلاً، فكر فى أن السعر مناسب. وبعد أمطار أوكلاهوما الثلجية، رياح تكساس، كان مسروراً بأن ينهى رحلته أعلى ضوء الشمس فى نيومكسيكو.

كانت اللافتة على المدخل مكتوب عليها، "موقف عربات المقطورة الفرع الجاف". سرعان ما عرف أنها فى الأصل حلقة اتصال فيما بين الاختلافات الدينية، لقد بُنّيت بالقرب من غدير رملى صغير يعتمد على مياه الأمطار فى منتصف مشهد طبيعى من كوكب المريخ الأحمر لتلال تشبه الكثبان الرملية والمنحدرات. كان هناك منذ السبعينيات، والآن أكثر من أربعين عائلة وعدد لا حصر له من غير المتزوجين قد ضخموا من مكانته. أشارت النوافذ إلى التعددية مع "بوذا" وصائدات الأحلام، وخرزات "شيفا" الزرقاء والمعلمين الهندوس وأعلام الصلاة. لقد أضفت الحدائق الأصلية الازدهار على بقع قليلة فيما بين عربات

المقطورات على الرغم من الغبار الذى تمرره الشياطين مثل الأرواح من خلال الطريق الرئيس.

كان صاحب الفندق، "بريندان هاورد" يعَلِم الدين فى مجتمع المحتشدين. كان رجلاً أبيض نحيفًا بنظارة إطارها من الصلب، على كتفيه غالباً سترة من الصوف كما لو أنها لم تكن صحراء عليا ملتهبة، بل هو نادى لليخوت. قدم نفسه دائماً باسمه الكامل، حتى أنه بدا كعنوان، لكون التأثير بالأحرى دينياً. لقد عاش فيما بدا أنه مكتبة الإسكندرية تكدست فى عربة مقطورة، لا جدران بل رفوف كتب عن "التانترية" و"العلاج بالأعشاب" و"السحر والشعوذة". وبالرغم من ذلك فقد أخبر "هارفى" فى هذا اليوم الأول، إنه هو الجسد الذى يتضمن كل الحقائق.

لقد مر بالسيارة خلال ساعة بأكثر من خمس وعشرين صومعة شعائرية للتنسك ومعبدًا وديرًا وملجأ مقدسًا، وفى هذه الشهور الأولى كان "هارفى" يتأمل ويصوم ويمارس "اليوجا" عند الفجر، ورأى بزوغ أول شروق الشمس وهو يتنفس عميقاً فى المعبد المطلى باللون الأخضر. لكن سرعان ما تبين أنه لم يتغير سوى القليل. فالروحانيات كانت فى معظمها صحية ليست أفضل من التغذية الحيوية لأمه. لقد ناقش الأتباع كيف يبدو ممارسو "اليوجا" شباباً مشهورين. لم يُضِف أى منهم له إضافة عقلية. رغب لو كانت لديه الشجاعة أن يمشى على الطريق عارياً

تماماً أو شبه عارٍ، يختفى فى النهر ويعود فى أغنية، ينام فى جذور الأشجار.

عاشت عائلات قليلة من "السيخ" الغربيين فى "الفرع الجاف" لكنهم ظلوا متصلين بإحدى صومعات التنسك، حيث كان الأمريكان البيض حاولوا لمدة ثلاثين سنة أن يعيشوا كما يعيش "البنجابيين" اتباع "جورو جوبيند سينج" الزعيم الروحى للسيخ. لقد دعوا "هارفى" إلى محاضرة تحدث فيها الشيخ "السيخى" العجوز الحزين عن الصفاء لمائة تلميذ يرتدون الأثواب البيضاء والعمامات. قال لهم، إن كل خطوة نخطوها بعيداً عن الروح ينبغى أن نعود إليها ثانية. لقد أنشدوا التراتيل لمدة ساعة تقريباً وهم يرفعون أياديهم فى الهواء، يتصبب العرق من تحت إبطيهم، يرتعشون ويبكون.

قال "بريندان هاورد"، بعد أن وصف "هارفى" قوة خبرته وأمن المجتمع، لا تكن متأثراً إلى هذه الدرجة. لم تكن نغمة صوت "بريندان هاورد" تختلف عن طريقة المستشارين التعليميين الذين يجوبون المدارس الثانوية. وسمى الاعتزال فرع من طائفة "السيخ". وواصل قوله، وبغض النظر، فالديانة مرتبطة بممارسات قديمة غير محددة النشأة. فعمامة السيخ لها فى الحقيقة أصول بدائية، وكان المقصود منها هو جعل الرجل المقدس يشبه العضو الذكرى المخصب عند دخوله إلى رحم المعبد.

وسمع "هارفى" عند صومعة السيخ حججًا أخرى، من أن أى شىء بعيد عن الطريق القديم مصدره "العصر الجديد". حتى "اليوجا" قد أُنقِص قدرها، على الرغم من أن المعتكف السيخى ظل متمسكاً بقوة بالممارسات التقليدية. فهناك عدد ليس بقليل من الأعضاء الجدد واصلوا التعليم الأعلى، وأصبحوا أساتذة ومتخصصين فى علم النفس، لكنهم رأوا أنه لا شىء مؤكد أو ثابت فى الحضارة الأمريكية.

ظن "هارفى" فى البداية أن الاعتكاف كان ارتداداً أو نكوصاً، لكنه عَلِم أنه حتى حينما خفتت النزعات الروحانية فى الستينيات والسبعينيات، استمر تأسيس الصوامع الدينية وبدأت فى دخول مجال الأعمال وتصميم برامج التدريب على "اليوجا"، ومازال أعضاؤها يتزايدون. إن العالم الآن يتمركز حول عدة شركات، وأن العائدات صاروخية من خلال زعم الحالة غير الربحية، وإعطاء المؤمنين بها الفتات. إن الخبراء فى كل شىء من الغذاء الصحى إلى المراقبين ومديرى الإدارة التنفيذية العليا وكاتبى المواد الإعلانية والسكرتارية، يحولون مسارهم كل صباح، يضعون العمائم والجلابيب، ليحتلوا المبانى المزخرفة على حافة دير التنسك. فسروا أن نجاحهم جاء من كونهم أرباب منازل روحية، منذورين للارتقاء بالأسر والعيش فى العالم، وليس السعى إلى الزهد. كان وضوحهم مغرياً.

وبعد عملية تقديم طلب مختصرة، حصل "هارفى" لنفسه على عمل فى خدمة الأرض وتنظيفها

بعد الشباب المكسيكى الذين يتولون وظائف جز الحشائش ورفع أكياس القمامة المقلوبة والمتناثرة. وكان أيضاً ينشد النقود فى جولاته. وقد حرص الأعضاء على تقييد كلابهم بالسلاسل عندما يكون لديها الميل للركض مع زمرة من الكلاب البرية، تجنباً لإصابتها بداء الكلب. لكن على الرغم من أنه مال بنفسه إلى هذه الحياة الجديدة، إلا أن فتيات الدير، السمينات من السمن والفطائر الدسمة، ضحكن حينما رأينه. كان الزواج مقلقاً لأغلب الشباب. قال المدرس، إنه أعلى درجات "اليوجا"، نقاء حقيقى. لقد آمن "هارفى" أنه فى النهاية سوف تدرك إحدى الفتيات الإخلاص الشديد فى قلبه. سوف تكون ضئيلة الحجم، روحانية، أبدية الشباب مثل جنية صغيرة.

وفى غرفته فى عربة مقطورة "بريندان هاورد"، مارس مواقف أكثر تشدداً. فانهمك فى التأمل العميق لساعات فى المرة الواحدة، واضعاً كفيه على رأسه ويتنفس من خلال لسانه المقوس. سرعان ما اكتشف أن تنفسه لم يكن متقطعاً بسبب الطول. قرأ كتباً عن "اليوجا" والتشريح وتعلم أن يتكلم من جسده بالشروط العلمية. وشعر وهو يتصبب عرقاً متمسكاً بمواقفه بالبدائية، لم يعد الشىء المستأنس الذى كان عليه. كان فخوراً حينما ينهض فى أوقات الفجر من أجل خدمة الغير، يُسخن سيارته فى الثالثة صباحاً. حتى معاناته منحته شعوراً بالفخر، وعلى الرغم من أن

المعلم قال إن الزاهد فقط، الحكيم المقدس، يشعر بالفخر من المعاناة ويمتنع عن مسئوليات العالم، إلا أن "هارفى" كان يعمل من أجل خير صومعة النساك. فهو قد أحب الممارسات القديمة والرداءات والمعانى التقليدية، سلطة القديم. وفى إحدى المرات، متأثراً بوجوده الجديد المكتشف، تشجع على أن يطلب موعداً من فتاة بالخارج، فتاة صغيرة، تصغره قليلاً، تعلو خديها بقع زرقاء من البثور.

قالت له، آسفة، فأنا سأنشد مع أصدقائى الليلة.

قال، أوه، وانتظر، لكن ليس هناك دعوة. ومارس لدى عودته إلى البيت تمرين التنفس، أغلق إحدى فتحتى أنفه وزفر من الأخرى، محدثاً صوتاً مثل إطار سيارة مثقوب.

أخبرهم المعلم فى محاضرته الأسبوعية، ينبغى أن تقاوموا تفكيركم فى أنفسكم خلال معاناة الحياة. عوت رياح الربيع فوق التلال. تحدث كل فرد عن الشحنات الأيونية فى الهواء، وكيف تحكم المجتمعات التقليدية على الجرائم بانفعال حماسى عندما تُرتَكب فى الرياح الموسمية. كان الغبار الذى نشره المعلم وحساسيات شجر "العرعر" تثير الهياج. كانت لحيته الرثة تمتد إلى صدره، وكان يكرر النفخ من أنفه.

قال، انصت إلى الريح، إن خواءها يخيفك. خواؤك أنت يخيفك. انظر إلى العالم. العرى تنفصم.

المستقبل غائم. لا شيء يربطنا. لقد تبعثرنا فى الخواء من قبل، لكن لا شيء مثل هذا. فقط التعاليم يمكنها أن تحملنا لنجتازه.

سمع "هارفى" المعلم يقول غالباً، إن التاريخ عبء ثقيل، وبأن الأمريكيين كانوا مباركين لأنهم خالون من الأوزار. إن الحكمة القديمة لم يكن لها زمن، وسوف تحولهم. لكن ماذا سيصبحون؟ نظام جديد - فرسان حرب النجوم، الأسلاف المطليون بالأبيض من نمط الرجل الخارق الذين تستطيع عقولهم أن تحرك البللورات الزجاجية؟ ماذا عن "هارفى هيرفى"؟ عن "هيرفى فرانسوا هيرفى"؟ فكر فى هذه القصص، الرجال القساة، الجدة المثابرة.

قال المعلم، اترك ماضيك، وجحظت عيناه إلى الخارج، وكانت عمامته متسخة.

وبعد ظهيرة اليوم التالى، قاد "هارفى" إلى "سانتافى"، وذهب إلى السوق التجارى. كان يحتاج إلى ملابس داخلية، لكن انتهى به الأمر يمشى لمدة ساعة، من محل إلى آخر، يتوقف لمشاهدة أفلام الفيديو الموسيقية فى محل الملابس الرياضية "فوت لوكر" والأفلام فى محل الأدوات الإلكترونية "راديو شاك". مرت فتاة "أمريكية مكسيكية"، ربما فى الثالثة عشرة، ترتدى قميصاً شبكياً يظهر من أسفله مشد صدر لونه أسود. ود لو أن كل هذا يتبدد. إنه لا يريد أن يصبح مثل أبيه.

وحينما بدأ فى العودة، كانت هناك عاصفة تهب. السيارات تتأرجح فى الأضواء الحمراء. الرياح تفرك زجاج السيارة الأمامى بالحصى الرملى، أعشاب صغيرة منفصلة عن سيقانها تعبر الطريق مثل القطط المذعورة. البرق يضىء أفق الجبل تجاه الجنوب.

التاريخ، الخواء، المعاناة؟ هل تعنى الكلمات أى شىء فى إطار الطبيعة؟ ربما كان دير الاعتكاف كثيراً جداً، حياة الزهد المفضلة - كهف أو صومعة لتحميه من مقاضاة العيون. لكن هل هو لديه قلب ناسك؟ قال المعلم، إنه ينبغى أن تعيش فى العالم. بدأت الرحلة بأخذ الاسم، لكن ماذا بعد ذلك؟

حينما وصل لحضور المحاضرة المسائية، كان الأعضاء متجمعين بالخارج. القليل منهم وضعوا نظارات لحماية أعينهم من الرمال. لقد فُقِد "سيرى رام" الذى يبلغ من العمر ست سنوات، فغالباً ما تتلاشى كرات الثلج. لقد ظنوا أن الولد قد مضى يبحث عن كرة الثلج. وعندما تجمع فريق البحث، ارتجف "هارفى" فى ليل الصحراء المرتفعة.

تقدموا إلى التلال، ينفخون فى الصافرات، يصيحون، الأضواء المتقطعة تمسح الظلام. تلطمهم الرياح كما لو كانوا يسيرون فى الأمواج. انتظرتهم أشجار "العرعر" وكل أنواع الصبار ونباتات الصحراء لتعيقهم. رسم ضوء القمر الخافت امتدادات لأشكال تشبه القوارب الغارقة.

أتى صوت نباح كلب من أسفل أحد المنحدرات. يعوى ثم ينبح، كما لو كان يريد أن يبول. فتقدموا فى مواجهة الصخرة حتى استقرت أضواؤهم المتقطعة على كرة ثلج وسط سحابة من التراب. لقد محت الرياح تقريباً أثر الصراع الذى دار. بدت آثار مخلب دام على الحجر. شجرة جافة مائلة مكسورة على جانب التل، استقرت تحتها كرة ثلج، رأس منخفضة، لهاث، كمامة دامية على التراب.

(طفل يلتهمه كلبه)

(نيومكسيكو). الليلة الماضية فى أسوأ عاصفة للرياح منذ عقود، طفل قتله كلبه...

تعتقد السلطات أن الكلب ركض مع زمرة من الكلاب الضالة، وحينما مضى الولد يبحث عنه، شارك الكلب فى مطاردته...

زعزعت الرياح عربات المقطورة ودمرت حدائق التأمل. قال، هل ستمنحنى يا معلم اسماً روحياً؟ سوف تكون "سات بوجا". إنه نداء مقدس بالغ القوة. ومن أجل الحقيقة، سوف تكون أنت الباحث عنها بصدق، المُخْلِص العظيم لها.

وعند كل فجر، كان يتأمل فى اسمه ويردده.

قالت أمه عبر التليفون، "هارفى".

إنه أنا "سات بوجا" يا "ماتا".

فكرت، بمثل هذا التعصب، ينادينى بالكلمة الهندية للأم "ماتا"، وهو قد فكر بالطريقة نفسها بمزيج من الفخر والقلق والفضول فيما يتعلق بالآليات الغريبة للنفس.

سألت، لماذا تفعل ذلك؟

أراد أن يقول لها إننا نعيش وهماً، لكن هل ستكون راغبة فى التغير، أم إن هذا سيسبب معاناتها؟

ظلا صامتين على التليفون. فى النهاية قالت بصوت خافت، أنا فخورة بك، مهماً فعلت إننى فخورة بك.

نيومكسيكو
٢٠٠٦

وبعد أن تلقى اسمه بأسبوع، أخذ "سات بوجا" عهداً غير محدد بالصمت. أخبر الآخرين لقد كان من السهل جداً أن يخصص المرء وقته لمجموعة من الأعمال المستمرة، هكذا أخبر الآخرين قبل أن يبدأ، وفى الأيام التى جعل فيها كل فرد يعرف لم يكن يتكلم وأجرى بضع مكالمات تليفونية حتى لا يقلق عليه أحد فى حالة ما إذا اختار أن يمتنع عن الاتصال تماماً. وفى فجر أحد الأيام حينما استيقظ، أخذ نفساً عميقاً، وأخرجه من فمه كما لو أنه ينظف سقف حلقه من كل الهُراء الذى تفوه به. لقد قرأ أن هذه كانت البداية الصحيحة.

كان كل فعل الآن هو تأمل. كان الوقت شهر يونية، والشمس قائظة. لقد بدأ ينحنى إلى الكتاب المقدس، ويؤدى شعائر الفجر فى المطبخ الذى تفوح منه رائحة البصل والثوم والسمن الطبيعى المغلى، وقد

تدرج من العمامة الخفيفة مثل العمامة الهندية إلى العمامة الضخمة التى تشبه خلية النحل. وفى الحقيقة هو كان يعقد عمامته عالية جداً حتى أنه يحتاج فى بعض الأوقات أن يثبتها، ويبدو مثل سيدة مجتمع متوترة تربت على شعرها. لقد اشترى الأثواب والحلى الصغيرة المرتبطة بالحياة الدينية، وعمل حتى على أن تنمو لحيته. كان له أهداب من الزغب الأشقر مثل تلك التى للمرأة العجوز جداً.

استمر فى ممارسته لليوجا، يظل ثابتاً على الأوضاع المؤلمة، متحرراً من قلق الحيوات الماضية. ضغط بأصابعه فوق عينيه، فأزهرت الأشكال الفسفورية المبهرة بداخل رأسه: الولد المُفتَرَس، الخيوط المضيئة فى المعطف. لم يكن متأكداً كيف يتخلى عن العالم، وهو مازال يعيش فى إطاره بأى يقين، وبدا أنه من العبث الجمع بين الاثنين. كما أنه لم يكن مهتماً كثيراً بتنسيق البساتين. كل ثانية يتوقف ليحرك مضخة الرش، كانت كافية لأن تجعل قفاه يحترق. كان يجلس فقط فى معظم الأحوال يتصبب عرقاً فى الظل كلما امتدت خضرة الصومعة الدينية لتعود إلى الرقعة المحمصة من القشرة الأرضية للصحراء.

ربما ذهب الصمت إلى الأبد، وأصبح واحداً من هؤلاء من أعضاء الصومعة الدينية غير الظاهرين الذين يرسون الدعائم بينما الآخرون يلعبون، لكن بعد أسبوعين من الوقت الذى بدأ فيه، وصل شاب فى

سيارة "بى أم دبليو" مكشوفة. وعلى الرغم من أن "سات بوجا" صامت لا يتكلم إلا أنه ليس أطرش. كان "دونالد" فى كل مكان فى وقت واحد، لكن لا يطيل فى مكان واحد بما يكفى لأن يرتبط به. نشأ فى غياب الوالدين فى "كارميل" على نظام غذائى من معلبات الأغذية العضوية، مع خادمة مكسيكية تتولى فتحها وتلقى بالعلب، وكان دارساً قديماً لفن جذب الانتباه، واستطاع بالحيلة أن يصبح بمفرده القلب النابض للصومعة. لونه أسمر معتدل بأنف رومانى، لم يشك أحد فى أنه سوف يمتلك البدايات الخشنة للفك الداكن، كان له تكوين بدنى مدرب على تمرينات "اليوجا" الشائعة التى يترفع عنها أعضاء صومعة التنسك. وسرعان ما عرف الجميع قصته التى أعاد سردها كثيراً، كما لو كان وصوله إلى صومعة الاعتزال بعد سنتين من التحضير المزدوج للمشروع فى العلوم السياسية والفلسفة فى جامعة "يال" كان عملاً مدهشاً يضارع فتوحات "كورتيس" أو رحلات "ماجلان". وُلِد فى عالم "المال" باستخدام التعبير المخفف - يتاجر، يدير، يلاحظ - نادراً ما رأى أباه الذى كان من بين الصفوة الذين يسيطرون على المادة الأولية للعالم الرأسمالى، وهو من كان يستطيع أن يفعل ذلك بسهولة من خلال الحاسب الشخصى المنزلى. ومثل "سات بوجا"، كانت هناك عند "دونالد" نقطة ضعف فى سيرة حياته، ولاحظ أن الحياة الجديرة تكمن فى التناقض. وبصورة جانبية مثل

العملة النقدية اكتشف أنه من الصعب أن يدير ظهره للنقود، لكنه عرف أن الشباب يتطلب التمرد، وإلا فإنه سيمر دون أن يدرك إلى منتصف العمر الإسفنجى. وفى اليوم الذى وصل فيه إلى "يال"، صمم رسماً لسرير متأرجح ومكتب من نوافذ غرفة إقامته، بقليل من التباهى بأن مكتب التمويل أضاف إلى حساب أبيه. مارس غالباً التأمل وبحث فى وضع الساق متقاطعة فوق الساق، ونام على حصيرة اشتراها من سوق العاديات. واستقبل زيارات مسائية من مدخنى "الماريجوانا" الذين يبحثون عن الترفيه أو يسعون إلى الله. كان هو حكيم المؤسسة. ومنفصلاً، عبر سالماً من خلال الحرم الجامعى الذى يعج بالفسوق، واقتبس نصوصاً مقدسة وضعها نصب عينيه طوال الوقت الذى كان يتحرك فيه سريعاً فى دراسته الأكاديمية.

ولم يمر وقت طويل على وصوله صومعة التنسك حتى توسل إلى المعلم من أجل اسم. وفى كل مرة يحضر فيها شخص، تنتظر الطائفة أن تعرف ما الاسم، ومن ثَمَّ أى مصير سوف يتكهن به المعلم. وحينما حصل "هارفى" على اسمه، سمع المساعدين يناقشون ما إذا كانت "بيجا" تعنى العبادة أو التبجيل، وأنه فى الحقيقة اسم يناسب أكثر لفتاة. كان "دونالد"، مع كل البهجة التى عبر عنها شباب الصومعة عند وصوله، يتوقع شيئاً نبوئياً. دمدم المعلم وبصق فى منديل ورقى وقال، "جامجوتى". وسجله كتابة أحد المساعدين. كان اسم "جامجوتى" يتداوله الحاضرون فى الحجرة همساً. لم يسمع أحد به من قبل.

سأل "دونالد"، ماذا يعنى؟

ضحك المعلم بقسوة، وقال، "جونلة".

وقرر أعضاء المعتكف سريعاً أن ذلك يعكس عدم الاستحقاق الذى وحده المعلم هو من يستطيع أن يدركه. اتفق الكثيرون على أن الأكثر احتمالاً هو عدم الإخلاص، ولذلك فحينما تقدم "دونالد" للوظائف، رُفِض منها كلها فيما عدا المؤقتة وانتهت إلى جانب "سات بوجا". إن هؤلاء الذين امتعضوا من شعبيته وذكائه الحاد وتعليمه الشامل افترضوا أنه لن يستخدم الاسم. وأخبرته الفتيات أنه سوف تُعاد تسميته بمجرد أن يثبت إخلاصه. ولكن بالحس الفكاهى للساسة، بدأ يقدم نفسه على أنه "جامجوتى". وأوضح أنه يعنى "الجونلة" حتى إلى هؤلاء الذين عرفوا . أنت لا تستطيع أن تغادر المنزل بدونها.

وفى اليوم الأول للخدمة الأساسية ألقى نظرة خاطفة وضرب بيده على صدره فى سخرية من صمت "سات بوجا"، ثم تقدم ليتحدث إلى ما بعد انقضاء الظهيرة. كان يحلل بسلاسة ما اسماه مدخل المشى للمعتكف للروحانية. فقال، إنه مع الكثير من التركيز على كونك رب بيت، فلا يوجد الكثير من الوقت للتنوير. أليس كذلك؟

حاول "سات بوجا" أن يبدو مستغرقاً فى التأمل الصامت، لكن بعد أن حاضر "جامجوتى" فى الروحانية المبكرة ومعاناة شباب الإنترنت مع التكهن

بورق "التاروت"، والتأمل مقابل المال للاطلاع على ما خفى، والمواقع المباشرة على الإنترنت لطوائف "ثنى الملاعق" والأدوات المعدنية بدون استخدام القوة المادية والتى حاولت أن تعلمه أن يبدل جزيئات السكاكين والمعالق والشوك بذهنه، تنحنح "سات بوجا"، قدم نفسه وتحدث عن محاولاته، مخاوفه وتوقه وألمه، ويسترسل ويتمادى ليعود فى الغالب إلى الموضوع الأساسى، وهو كيف أنهما متشابهان، واستمر حتى حان موعد مغادرة المكان. وفى هذه الأسابيع الأخيرة أعاد التفكير فى مشروعه. تحدث بأعمق صوت استطاع أن يستخرجه من أعمق طبقة من بطنه كما تعلم أن يفعل فى مسرح المدرسة. لم يخف شيئاً لم يقله، وكان مصدوماً نوعاً ما من أنه استطاع أن يعرض لحياة بأكملها فى فترة ما بعد الظهيرة.

قال، إلى جانب أن هذه الوظيفة تجعلك ملوثاً.

كانوا الآن جالسين تحت شجرة خشب الحور فى بقع الظل المنثورة. يمضغ "جامجوتى" ورقة حشائش خضراء خشنة التى ربما يشبه مذاقها زيت الشعر وهى الحشائش التى زرعاها على أية حال. وحك سمانة ساقه بأصبع قدمه، وأعلن أنهما يحتاجان إلى أن يقوما بعمل أو ينجرفا إلى الأبد إلى ما دون الوسطية. قال، ينبغى أن نخطط، لا يوجد مبرر للانتظار.

وعلى بعد، بدأت الموسيقى الشعبية تُعزف على مصاطب الفندق فى التلال فوق الصومعة كما يحدث فى هذا الوقت من السنة مع كل حفلات الزفاف

المحلية. وبعد فترة دعا "سات بوجا" "جامجوتى" إلى مقطورته، ولم يقدر أن يصدق قبول دعوته.

أصر "جامجوتى" أن يأخذا سيارته المكشوفة. ركباها فى المساء الدافئ، سقفها مفتوح، تحاول الرياح تبسط عمامة "سات بوجا". بدأ "جامجوتى" التأسيس أن لمنهج أكثر تركيزًا من أجل فهم السماء. لكن "سات بوجا" أبكم، لمسة غير مرئية تزدهر فى الصدر، عاطفة لم يستطع تسميتها، مثل نضارة غريبة فى صحراء شاسعة.

وعلى الرغم من الاسم المشكوك فيه، إلا أن "جامجوتى" حافظ على الاحتفال بحاشيته. وكيَّف عمامة خفيفة تتماشى مع المودة، على الرغم من أنه كان يفضل من أجل اليوجا البنطلون القصير والقمصان ذات الأكمام ويفضلها عن الجلباب، وكانت ساقاه منحوتتين مثل نجم من نجوم أفلام الجنس. لكن شيئاً فشيئاً، بدأ يرفض الدعاوى، حتى حينما كانوا يقولون إنه يستطيع أن يحضر "سات بوجا".

قال، لو إننى أردت الاحتفالات لبقيت فى "يال". بالإضافة إلى أنك الشخص الوحيد المجنون بما يكفى لأن تواظب على البقاء معى، وفى الحال يطفئ شعور الغيرة لدى "سات باجو"، ويثير فيه شعوراً من القلق.

كانت محاضرات "جامجوتى" كثيرة. شرح كيف اعتاد المعلمون أن يتركوا تلاميذهم فى وسط لا مكان

مع لا شىء مطلقاً، ويخبرونهم أنه ينبغى عليهم أن يجدوا طريق عودتهم. قال، إن الطبيب يترك تلميذه فى منتصف "لاس فيجاس" بدون "بنس" واحد.

شعر "سات بوجا" بنفسه يتوهج.

أخبره "جامجوتى"، إنه الفشل حتى النهاية، هذا حقيقى. أو تقريباً، حتى النهاية. إنه هو الحب الذى يحفظك من التنوير ويقدم لك المعنى الحقيقى فى هذا العالم.

لكن جاء يوم، لم يظهر فيه "جامجوتى" حتى انقضى بعد الظهر الذى أعلن فيه الحل الخاص به.

وازن "سات بوجا" عمامته وتطلع.

قال "جامجوتى"، الزهد. سوف نصبح زاهدين.

إذا كان هناك شىء واحد محرم على المقيمين فى المعتكف، فهو هذا، هكذا أخبره "سات بوجا". فالمعلم يلقى محاضرات قاسية ضد هؤلاء الذين اختاروا أن يتنكروا للعالم ليقتربوا من الله من خلال الحرمان والمعاناة، بل إن المعلم حددهم مباشرة. قال، إن الزاهد لا يتزوج. أسماهم السائحين فى حياة الألم.

قال "جامجوتى" إلى "سات بوجا"، أنا متأكد أن الناس يقولون العكس فى مكان ما آخر. أنا متأكد أن الآخرين سوف يتهمون المعتكفين بالتشبث بالأمن الدنيوى. قال، فقط تصور قوة الالتزام بالتنوير وحده.

لكن "سات بوجا" لم يكن مقتنعاً.

لا أعتقد أنك تصدق كل هذا، هكذا أخبره "جامجوتى" وهو يُضَيّق عينيه مفكراً، مما جعل "سات بيجا" يشعر ليس فقط بأنه باحث دقيق جدير بالاستحقاق لكنه كان أيضاً جسوراً. فأنت تعرف، أننى أظن أن معظم الشباب الذين يأتون هنا يحاولون أن يضيفوا شيئاً من الإثارة على وجودهم فى الطبقة المتوسطة. ربما تكون أنت بسبيلك أن تهرب.

فكر "سات بوجا" فى هذه المناقشة ألف مرة. فمن الناحية العقلية، عاقب نفسه على الحوافز الروحانية التى لم تكن نقية. وعلى الرغم من إمكانية أن الانتماء قد أغراه، إلا أنه قد استطاع أن يرى كل ذلك من خلال عيون "جامجوتى" - أن "السيخ" يمكن أن يربطوه فقط بنظام، بقواعد كانت دنيوية ببساطة تامة. لقد قرأ عمل "البوذى" الذى قال إن القسوة تأتى عندما تفشل قاعدة شخص ما فى الحياة، وأن الحب الدنيوى أو الرغبة فى الحب انتهى إلى الكراهية والألم.

مال "سات بوجا" جانباً وأخذ ينصت. مضخات الرش تقاقى وتبقبق. تتشوش الرؤية عن بعد. السماء تتأرجح. تساءل، ما هذا المكان؟ هذه الصحراء؟ هذه الغرائب فى المشهد الأمريكى التى تبحث عن التقاليد؟ هل سيختفون مثل رعاة البقر والحانات؟ لقد كان هذا أيضاً فى منتصف اللامكان. بدا أن الشمس تقترب من الأرض، من الصومعة نفسها. هل سوف تقفز مثل كرة من المطاط تترك صوت احتراق خفيف، هذه الصحراء الاصطناعية الخضراء مرة أخرى؟

كانت استعداداتهم تتكون من شعائر مرتجلة، مقاطعة بطاقات الائتمان، التخلى عن أكداس الكتب الغريبة عن إيقاف المقطورات مثل أكوام الحجارة البدائية. أخذ "هارفى" سيارته "التيوتا" إلى مجمع للسيارات المستعملة. قال الرجل السمين، ثلاثمائة، بينما أجزاء من بطنه تظهر فى المسافات بين أزرار قميصه. حاول "سات بوجا" أن يصر على قيمتها النسبية، لكن "جامجوتى" وضع يداً على كتفه.

وبالنسبة للسيارة "بى إم دبليو"، اعترف "جامجوتى" أنها تخص أمه، وأنه لا يقدر على بيعها قانوناً. تخيل "سات بوجا" الإلقاء بها من فوق تل أو تركها فى أحد الأحياء المزرية أو بيعها مقابل مبالغ زهيدة لأحد محلات الخردة المكسيكية. وبدلاً من ذلك استدعى "جامجوتى" خدمة النقل لتوصيلها إلى البيت.

كان كل ما اتفقا عليه هو صرة للأمتعة وبطانية وعمامات وزوج من ملابس "اليوجا" الفضفاضة، إلى جانب ما لديهم من نقود، أقلها لنفسيهما، مما أشار إليها "جامجوتى" على أنها لمواجهة الحاجة الماسة التى ربما يواجهونها. أخذا أقل القليل من أدوات التجميل، قصافات للأظافر وفرشات الأسنان وأدوات الخياطة، إبرة وخيط لرتق الرقع على العباءة، مثل الجوالة البوذيين. وراودت "سات بوجا" الرغبة فى أن يخفى

بطاقة ائتمان أو حتى يسحب مبلغاً أساسياً من النقود ويخفيه. وقد فعل عموماً، وأخفى رخصة القيادة وجواز السفر، واندهش من قوة غريزة البقاء لديه.

وجلسا فى ساعة التأمل ما قبل الفجر. كان ذلك حينما تمضى الروحانية إلى مدىٍ أعمق فى البرد والهواء المفتوح. تغطيا بالبطاطين وتتبعا النهر الصغير مع الآثار الطينية لعجلات إحدى القوافل. سأل "جامجوتى" ألسنا بالقرب من "لوس آلموس" حيث صنعوا أول قنبلة ذرية؟ لقد صعد القمر. كانت النجوم ممراً ذائباً عبر السماء.

وبعد فترة توقفا على أحد التلال للتأمل، تحكما فى أنفاسهما مثلما يفعل الغواصون، أغمضا أعينهما كما لو كانا سيغوصان فى الماء. تحولت ملاءتاهما وثوباهما إلى اللون الأحمر من الغبار. شعر "سات بوجا" بضيق فى صدره، وحاول أن يهدئ من اندفاعات عقله. وعادت كلمات "جامجوتى" إليه . الحب الذى يحفظك من التنوير. صور نفسه على أنه عازف عن الارتباطات المستسلمة، ويستشعر المرارة من العالم. أى حب، أى شخصية مرنة سوف تنقذه من برودة الأبدية؟

وفيما بعد، حينما حاولا أن يستريحا، كانا كلاهما فى حالة بالغة من الاستثارة. توجها عشوائياً إلى أسفل التل، اندهشا حينما وجدا مجموعة من الطرق. ومع الصباح المبكر أعادت الشمس إلى

الظلال قوتها. وبفحص المسافة من إحدى الصخور البارزة، بدا "جامجوتى" ليس فقط يشبه "لورنس العرب"(*)، بل إنه بدا كما لو إنه يشعر بمثل مشاعره أيضاً. وأخيراً بعد أن لم يقدرا على تحمل الحرارة، جلسا تحت صخرة معلقة، قاطعى طريق فى الانتظار.

قال "سات بوجا"، أنا ظمآن. كان يفكر فى نقود جيبه، وأين يمكنهما أن يشتريا شيئاً. رأى ""جامجوتى" أنه مجرد توتر عصبى وسوف يمضى لحاله. تضافر الغبار مع الحرارة فى جعل عينى "سات بوجا" تدمعان. شعر بضيق فى تنفسه، ندم على أنهما لم يحضرا مشروبات. بدأ عند الأرض المتصدعة، لغز معقد ذلك الذى تمدد أمامهما إلى ما لا نهاية. لقد تخيل التوسل فى طلب الأرز فى الأكواخ، التأمل تحت الأشجار، عبور المسافات غير المأهولة. كان من المفترض أن تكون حياة الزهد نقية من كل الأشياء، لكن كان هذا هو العالم ثم ما لا نهاية. كان قلقاً من أنهما يبدوان مثل المشردين.

ومع اقتراب حلول الظلام، كانت أقدامهما غير ثابتة. لقد تأملا وغفيا. وفى مرات قليلة عندما مرت نسمات الهواء فوق الأرض المحمصة بحرارتها، الساخنة، تيار رقيق من الهواء يجفف العرق تحت ملابسه. شعر "سات بوجا" بروحه المعنوية ترتفع، لكن

(*) تى إى لورنس (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥) جندى، وكاتب وبريطانى قام بدور بارز فى حروب استقلال الدول العربية.

فقط لفترة قصيرة. كانت هناك أحاسيس أرضية، تتصارع وتتلاشى، ليس ما كان يأمله. وحينما برد اليوم بما يكفى واصلا سيرهما. وعندما صعدا إلى مرتفع رأيا على الطريق العام إشارة إلى شركة بترول. واتجها إلى أسفل يترنحان ويجران قدميهما. راقبهما الرجل خلف طاولة البيع، التليفون جاهز، أصبع على الخطاف. اشتريا أطعمة سريعة وقطع شيكولاتة. كرر "جامجوتى"، الاعتدال، الاعتدال، وهما يمزقان الأغلفة بأسنانهما. وسجل الرجل مشترياتهما بيد واحدة. وفى الخارج مرة ثانية أكلا وتجشئا. وشعر "سات بوجا" فى الحال بالغثيان، لكنه كان سعيداً جداً أن تركه يظهر. وعادا إلى الخلف من محطة البنزين عبر السهول القمرية التى لا لون لها ليختاروا طريقهم فوق الطرق الساحلية المنسية للأسلاك الشائكة. وسرعان ما أطبق الصمت الغريب لليل الصحراء، لا تقطعه إلا خطوط الأساس البعيدة أو تبديل عربات الجرارات.

لقد مشيا طويلاً بما يكفى لأن يفقدا كل اتصالهما بالزمن، وأتيا إلى مشهد برج مفرد فوق هضبة مستوية عبر مدىً من أشجار العرعر، وورود متوهجة كما لو إنها الأرض. أخذت تنحدر لتختفى سريعاً، وورود مرة أخرى تفصلها الأضواء الساطعة. أبطأت شاحنة صغيرة على الطريق الموحل الذى لم يكونا قد لاحظاه بعد.

سأل الرجل بلهجة مكسيكية مرحة خفيفة، هل أنتما تائهان؟ ومن شكل الأضواء الأمامية ولمعانها

ونعومة عجلاتها، كان واضحاً أن الشاحنة جديدة. هدأ هذا من روع "سات بوجا". وأضاءت أنوار سيارة أجرة. كان للرجل وجه أسود مستدير ووجنتان بارزتان. ومال بشدة فوق الباب.

عاد الأمل. سوف أوصلكما إلى المكان المتجه إليه، وتستطيعا أن تستخدما التليفون من هناك.

كان "سات بوجا" على وشك أن يرفض بأدب، حينما شكر "جامجوتى" الرجل وقفز فوق الباب الخلفى. جذب "سات بوجا" مثل طفل إلى أعلى، وهمس، مغامرة. وفى بداية تحركهما، شرح له أنهما عليهما أن يدعا العالم يأخذهما إلى حيث يريد.

إن الطريق الآن على الرغم من الهواء الساكن، ثقيل الوطأة وبارد على جسديهما. وليس بعيداً عن المكان الذى ركبا منه، كان المشهد ينحدر. مرا إلى جانب شجرة بمفردها، حشائش طويلة غير مشذبة، وعلى الجانب إلى أسفل، شجيرات متشابكة ونهر ضيق. واتجهت الشاحنة ناحية ما كان فى وقت من الأوقات مزرعة، سقائف وحظيرة منخفضة، ومنزل متكوم فى الخلف فى وسط المزيد من الملحقات المهدمة.

كان السائق فى الثلاثين على الأكثر، وحجمه ربما كان مهيباً لولا المعطف "الجينز" الذى جعله يبدو ضئيل الكتفين، وحذاء رعاة البقر الرشيق ذو الكعب العالى أسفل هيكله الضخم. قدم نفسه باسم "دانى".

كان عائداً إلى البيت مع ستة من ألعاب الفيديو الجديدة المؤجرة.

وقابلهم رجل آخر أصغر قليلاً عند الباب، ولم يفعل "دانى" أكثر من تقديمهما كضيفين. قال، هذا أخى "آندى".

سأل آندى وهو يجذب شاربه القصير، هل أنتما نبيان أو شيء من هذا القبيل؟ وإذا كان أى من الأخوين مندهشاً من الشابين القذرين اللذين يرتديان العمامة، إلا أن أياً منهما لم يظهر ذلك.

وقد أثار "جامجوتى" فيما بينهما ضحكة مكتومة بتلخيص مغامرتهما بقوله إنهما تجرءا على أن يعيشا مثل رجلين مقدسين.

جاء صوت سعال من الحجرة الخلفية، وحينما تفحص "سات بوجا" فى هذا الاتجاه، شرح "دانى" أنه "أبيلو" - جده - المريض. لا تقلق، فأختى تعتنى بأى شيء يحتاج إليه.

أخبرهما حينئذ "دانى" أن باستطاعتهما أن يقضيا الليلة على الأرائك، وهو ما قبلاه بعد جولات قليلة مع ألعاب الفيديو التى ظهر أن "جامجوتى" بارع فيها تماماً.

وجاء الصباح سريعاً جداً مع ضوء أصفر متقاطع. وشعر "سات بوجا" برئتيه ثقيلتين وعينيه

ملتهبتين ومتقرحتين. بحث عن الحمام حتى يستطيع أن ينظف أنفه.

جاء "دانى" إلى المطبخ ومعه بندقية. قال، القهوة جاهزة، ثم مضى إلى الخارج. لاحظه "سات بوجا" يمضى على الطريق الجانبى فيما وراء المبانى المتناثرة المختفية جزئياً خلف الحشائش البرية المتصاعدة.

فى الليلة السابقة قبل أن يشرح "دانى" أنه كان يزور فى الشهور السبعة الماضية الجيران الذين حملت أخته "جوانيتا" من ابن عمهم الذى اختفى فى أعقاب ذلك. ومع أن "دانى" اعترف أنه سيكون ليناً، إلا أنه ظل متطيراً بخصوص أخته، يشرح أن أباهم قد هجرهما من قبل أن تُولد، وأنها أُرسِلت إليهم منذ سنوات طويلة. وبعد بضعة أسئلة من "جامجوتى"، حكى "دانى" القصة من أن جَدَّه، الرجل القاسى فى شبابه، كان شرطياً فى المدينة لما يزيد عن ثلاثة عقود، وأنه قد كره المشردين والمجرمين. وفى أحد الأيام سمع الجد أن أبا "دانى" و"آندى" يتاجر فى المخدرات، وقاد الشاحنة إلى حيث يعيش الشاب مع صديقته والأولاد. ظهر الشرطى العجوز وهو يمسك بحزام جلدى قديم لشد الخيول، يضرب به ابنه بيد واحدة حيث طرحه أرضاً من شدة الضرب. ورفعه على عتبات شاحنة نقل الأحجار التى كان على المالك القادم أن يطليها باللون الأسود، واستيقظ بعد أسبوع فى المساء ليجد "دانى" و"آندى" اللذين يبلغان من العمر ثلاث سنوات وسنة فى المطبخ مع كيس القمامة

للملابس وصندوق نصف فارغ للحفاضات. وبعد ذلك بتسع سنوات، وصل غريب فى شاحنة وأحضر إلى المنزل طفلة. كانت عارية ملفوفة فى قماش جينز مقطوع من رداء امرأة، ومعزولة بكرات من القطن ومنديل مثبت فى القماش الجينز مكتوب عليه ""جوانيتا". تكلم الغريب مع الجد، وصف الرجل الذى على وجهه آثار جروح، وأكد تماماً أن هذا هو أبو "دانى" و"آندى". تناول الإفطار، وجرب يده فى عدة أدوار مع الأولاد فى لعبة "غزاة الفضاء"، ثم ارتدى قبعته ورحل. لماذا أخذت البنت اسماً مكسيكياً سيظل لغزاً، إلا إذا كان يعنى طعنة لـ"جوان"، الجد. كان "دانى" و"آندى" هما أول من فى العائلة يُطلق عليهم أسماء غريبة، فأمهما كانت متكبرة. أيضاً كان المنديل المطبوع من مطاعم "دينى" التى رآها "دانى" على أنها شىء ما كبشير لقرب الله يمكن أن يأتى بمرسوم على هيئة كلمات.

أخبرهم "دانى"، والآن هى حامل. لقد كان الشخص الذى فعل ذلك ضئيل الحجم مثلك. أشار إلى "سات بوجا". لا أعرف ما الذى سأفعله إذا أمسكت به. لكن لا أحد سوف يريدها الآن فيما عدانا نحن، وهو ينبغى عليه أن يدفع.

كان "جامجوتى" مازال نائماً على الأريكة، ويمدد أحد ذراعيه فى ضوء الشمس. وتذمر الجد بإصدار صوت من فمه الذى كان لا أسنان به، ومضى "سات بوجا" إلى الباب. وأغلقه بهدوء خلفه. أخبره "دانى"

أن جده فى يوم من الأيام قد استيقظ وأنامله مخدرة، وأن هذا الخدر بدأ ينتشر بالتدريج خلال جسده. رقد الرجل العجوز متخشباً على الفرش ورأسه محنياً على الوسادة. كانت عيناه متسعتين. أعاد "سات بوجا" ربط عمامته هذا الصباح، وعكس الملابس ليخفى القذارة، وحملق الرجل العجوز كما لو كانت هى بالفعل النهاية، ملاك من الشرق جاء يقبض روحه على أنغام موسيقى "الراجا". كوب من الماء على الطاولة المتهالكة فى المساء، ناور بذراع عظمى تجاهها، وتعلقت اليد فى فم عظمى. جلست الفتاة على الفراش على جانب الحجرة محنية نصف انحناءة. كان هناك شعر خفيف داكن فوق شفتها العليا وقطرات عرق على طول أنفها. أشرق وجهها، دفعت ضفيرة شعرها بعيداً عن رقبتها. وحملق كلاهما، الرجل العجوز بعينين كاريكارتيريتين، والفتاة بنظرة سجينة مغلفة بالشغف.

وإلى أن أغلق "سات بوجا" الباب لم تباغته اللحظة. لم يستطع أن يتذكر كم من الوقت توقفا يلاحظ كل منهما الآخر فى الغرفة المعتمة التى لها رائحة المستشفيات، بستائرها المسدلة والرنات المكتومة لروافد الأرضية المتهالكة. استعاد كلمات "دانى"، بأنها قد أحبت فتى ضعيف البنية مثله، وأنه لا أحد سوف يريدها الآن.

ومن أجل أن يهدئ من عاطفته المفاجئة، استغرق "سات بوجا" فى التأمل فى حجرة المعيشة، بينما هو ينتظر "جامجوتى" لكى ينهض. لقد كانت المرة الأولى

التى يتخلف فيها عن تأملات ما قبل الفجر منذ أن التحق بالمعتكف.

وحينما استيقظ "جامجوتى" أخيراً، كانت "جوانيتا" جالسة فى المطبخ، تغرف رقاقات الذرة فى إناء الحليب. كانت محنية إلى الأمام على مقعدها وهى ترتدى ملابس بيضاء فضفاضة، وساقاها يغطيهما الشعر. تلف ساقيها على السُلَّم، وتمسك السلم بتقويسة ساقيها وتبتسم فى خجل وقد تورم خداها من النوم.

جلس "جامجوتى" فى مقابلها. قال، نحن لم نتقابل، وقدم نفسه. هل تمانعين إذا شاركت فى أكل الحبوب؟

تمتمت، لا، واصطبغ وجهها بحمرة الخجل. كان "دانى" و"آندى" فى الحجرة الأخرى، وأخذ "جامجوتى" يوجه أسئلة خفيفة. هل تذهبين إلى المدرسة؟ آه، لا، هل انتهيت منها؟ هل فكرت فى التعليم الجامعى؟ بالطبع هو ليس متاحاً لكل شخص.

قالت "جوانيتا"، أنا أعرف، سأكون سعيدة تماماً بتربية طفلى.

لقد اعتقد "سات بوجا" أنها قالت ما قالته كما لو كان نوعاً من الأشياء التى فكرت دائماً فى أن تقولها، كما لو أنها توقعت أنواع الأسئلة التى كان يسألها "جامجوتى".

أخبرته، أنا لدى استشارى مرشد يواظب على النداء. لدى درجات جيدة، لكنها حقيقة - لم تكن من أجلى.

قال "جامجوتى"، هل تعرفين، ثم ابتسم، أن هذه كانت هى خبرتى أيضاً؟ كلنا نأمل فى أن نكون سعداء مع الأشياء نفسها التى يكون عليها الآخرون.

وتنحنح "سات بوجا". كان واقفاً عند الباب. كان لديه انطباع بأن "جامجوتى" قد قال كل شىء ربما أحب أن يقوله فى المحادثة التى قدما فيها نفسيهما. كان متأكداً من أنه لن تكون هناك محادثة تقديمية أصلية مرة أخرى، إن لم يكن على الأرض، فعلى الأقل ليس هنا. شعر بأحشائه مثل الإسفنج لكونها تُعتَصَر بعنف.

وفيما بعد حينما مشيا للخارج من خلال الحشائش الجافة، أخبره "جامجوتى" أنه باستطاعتهما أن يناما هناك ثانية هذه الليلة. لقد قال "دانى" ذلك.

لم يكن هذا ما أراده "سات بوجا". وفكر وهما يعبران النهر الضحل فوق الحجارة، ما الذى كانت عليه رحلتهما: خيال مختصر واضح للاستحمام فى مياه منعشة، غسيل ثيابهما ونشرها لتجف. لكن ربما أخذهما شخص ما مثل الجد، على أنهما متشردان، وطردهما من المدينة، أو اعتقلهما وربطهما فى أعمدة السياج، وجلدهما بالأسلاك المجدولة. والغريب هو أن

عادة فقدان الطريق فى أمريكا بدت أمراً صحيحاً. لقد كان أمراً قديماً بل يستوجب حتى التقدير وجعله فخوراً، حينما فكر فى تاريخ عائلته. ربما كان أبوه لن يُقَدِر التفاصيل، لكن "سات بوجا" كان من زمن آخر. وربما كان هو قد تعثر هنا فوق حقيقة ما. لقد فكر فى "جوانيتا".

بدا الآن "جامجوتى" مجهداً حينما كانا يسيران خلال الأعشاب الحادة. وشعر "سات بوجا" بشىء ما فى "جامجوتى" لم يلحظه حتى ذلك الحين. ما بدا أنه كسل أو فقدان الحنين الحقيقى إلى أى شىء فيما وراء الإعجاب. ولأول مرة رأى ومضة من الحقيقة فى غمرة يأسه. لقد هدأت أحشاؤه. سأل وهو ينظم الخطوة، هل أنت مريض؟ لعق "جامجوتى" شفاهه وحك قفاه. قال، إن الشمس حارة.

لقد مارسا التأمل فى ظل تل منحدر. وعلى الرغم من أن مأواهم لم يكن جيداً مثل اليوم السابق إلا أنهما استطاعا أن ينظرا من فوق الأرض الجافة على النهر، وحتى على مزرعة الأخوة، وربما أبعد إلى الجبال التى تشبه زعانف هائلة. وكان الظل أحياناً يسقط وراءهم، تُكَوِّنه الأجنحة الممزقة للطيور الجارحة الحائمة. ومدد "جامجوتى" ظهره ولف رأسه. تنهد. وحدق "سات بوجا" أسفل عينيه المشقوقتين. أبطأ من سرعة تنفسه، عكس عقله إطاراً من السكون. ودار المشهد حول محور الشمس، صخور شامخة وهضاب منحدرة مثل معابد متهدمة. وعن بعد، رفرف سطح رقيق من الأجنحة الفضية فى

سراب من الحرارة. ذهب "جامجوتى" لينام. شعر "سات بوجا" بالسلام.

وقرب المساء، حينما كانا عائدين، قال "جامجوتى" إنه ينبغى الحرص من الجفاف. وعند حافة النهر، وموقد بناه أحد المزارعين به أخشاب جافة ونفايات، ونسائم لطيفة برائحة البلاستيك المحترق. وتوقفت جرافة يعلوها الصدأ على مرتفع، علامات تجارية تلف الأرض وأكوام من الأشجار المقطوعة بالقرب من المياه.

أصبح "جامجوتى" متنبهاً، يوجه الأسئلة إلى "سات بوجا" ليختبر مزاجه، يسأله كيف كانت تأملاته، أو ما إذا رغب فى التوقف. بدا أن "جامجوتى" يفكر، ثم بدأ يمهد الأرض للمناقشة ضد العمامات. لقد توقف حتى يضطر "سات بوجا" أن يتنازل عن مواقفه الثابتة ويتراجع. قال "جامجوتى"، إن الزاهدين المقدسين لا يرتدون العمائم. وخلع عمامته، ثم عرض ما ينبغى عمله للشعر، يحلقه أو يلمه، وقرر فى النهاية أنه يشعر أنه أقرب إلى الديانة الجامايكية "الراستيفارية" التى تنادى بتحرير السود ومساواتهم فى ظل المسيح، أكثر مما يميل إلى الرءوس الحليقة.

قال "سات بوجا"، سأحتفظ بعمامتى.

أنت تعلم أنها عكاز.

ومع رائحة البلاستيك، أتت الرائحة الخانقة للأرض المضطربة حملتها الرياح. كان على "سات بوجا" أن يبطئ من سرعة أنفاسه.

تعجب "جامجوتى"، الحنين. هل هذا هو السبب وراء ما نفعله؟ لأننا غير قادرين على أن نجعل العالم يتماشى مع مثالياتنا. نحن خائفون من حصتنا فى الحياة. إن عالمنا يقاسى من حنيننا.

قرر "سات بوجا" حينئذ أنه بصرف النظر عن المدى الذى وصلت إليه بلاغة "جامجوتى" وفلسفته، فإنه غير مقتنع.

كرر "جامجوتى"، الحنين، وأشار إلى الأرض فيما وراء النهر والجرافة والرجل الذى يضرب قفازاته المتربة فى ردائه الجينز. لا أحد من هؤلاء ما نحلم به. يمكن فى الحقيقة أن تكون الفكرة عاطفية، الحلاوة المرة للبقاء هنا. أنت تعرف أن الكتب المقدسة تسمى حياتنا على الأرض وحل الزمان، لكن ربما كان الناس الذين كتبوها قد فروا هم أنفسهم. أنا أعنى، بالنسبة إلى على الأقل، أن العالم لا يبدو سيئاً إلى هذه الدرجة.

لم يعد "سات بوجا" يعرف أين بدأت المناقشة، أو كيف ترتبط العمائم بالمقدسين الزاهدين وبنصيبهم من كعكة المعاناة. هو لم يعد متأكداً ما إذا كان قد أُبلِغ بالعودة إلى العالم أو بخلع عمامته ليصبح زاهداً صالحاً. بدا أنها الأولى حتى وصل "جامجوتى" وخلع عمامته ورمى بها إلى الطين بدقة قاطع طريق يرسل بورقة مرحاض على الشجر. وخفق القماش بضع مرات حتى صار ثقيلاً من التراب واستقر ساكناً.

وانطلق "جامجوتى" حينئذ إلى الدغل على طول النهر، وأسرع "سات بوجا" وراءه، ترتد الفروع إلى وجهه.

وبعد فترة طويلة حينما نام كل شخص، بقى "سات بوجا" مستيقظاً، غاضباً. شعر بأمعائه ساخنة وسائبة واستمرت تقرقر. توهجت الحرارة بطول جلده، وعلى الرغم من جفاف شفتيه وفمه، لم يرد أن يضيف الماء إلى الخواء بداخله. وفى كل وقت كان يهدأ ذهنه بما يكفى لينام، طنت بعوضة فى أذنه أسلمته إلى التفكير مرة أخرى فى قصة "دانى" عن جده. شعر بالبغض لهذا الماضى القاسى بحبه المدمر وقوانينه القاسية. لم تكن لديه أية فكرة عن العنف أو القوة، أو أين يمكنها أن تسكن. هدأ أنفاسه وأنصت إلى الصمت فى جسده، المساحات الفارغة مثل المادة المظلمة حول الإيقاع البرمائى لقلبه. اقتربت البعوضة مرة أخرى فضربها بعنف.

هناك صوت تشويش المذياع، وجاءت نغمة خافتة من أقصى المنزل. نهض من على الأريكة. ظهر الضوء من خلال شق فى الباب. كان لصوت المذيع نوعية رصينة كما فى بكرات التسجيل فى أوقات الحروب القديمة، موسيقى غريبة. طنين مشوش فيما بين القنوات. ضرب بعنف.

قال "آندى"، تعال. اجلس. كان يعبث دون اهتمام فى مذياع مكعب له شكل معدة عسكرية. جلس "سات بوجا" وشاهد حركة قرص الراديو عبر واجهته. وهمهم صوت كمبيوتر فى الركن، وانتشرت الأشكال

على شاشته. امتدت منضدة عمل بطول الحائط، تغطيها قنينات صغيرة وأنابيب ماصة وأوانى زجاجية مختلفة مدببة ومقعرة خاصة بالكيمياء القديمة.

عبث "آندى" بشاربه. شرح قائلاً، إنه جهاز موجة قصيرة لديه منذ أن كان فى السادسة عشرة، فقد التحق "دانى" بالجيش وعاد بعد أربعة أشهر بركبة مصابة، وقد سُرِح، واشترى الراديو كهدية من محل رهونات. قال "آندى" إنه أحب الإنصات إليه فى المساء لأنه بدا مختلفاً حينئذ. شعر "سات بوجا" بهذا، الطريقة التى تميزت بها الموسيقى، تحولت بشكل حاد فالأصوات بالرغم من الشوشرة غنية مشحونة تأتى متفردة من مسافات بعيدة. وشرح "آندى" بخجل أنه قد أعطاه الأمل نوعاً ما. فهو يبحث فى القنوات، الأحاديث بلغات غير معروفة، الأنباء الإنجليزية والإسبانية من حول العالم. هبت الريح عبر الظلام، الرمال تصطك بزجاج النوافذ، ووجد "سات بوجا" أن الشوشرة الخافتة كانت مهدئة مثل الأصوات، العواصف الثلجية والفيضانات والنيران، روايات جديدة، محصول الأفيون غير القانونى، الفرق الراقصة.

لماذا لم تلتحق بالجيش؟

أبداً. فبعد أن رأيت "دانى" بركبته الممزقة الهزيلة، لم أرغب أبداً فى الذهاب إليه.

شئ ما من ملاحظات "آندى" مست "سات بوجا". فكر فى عفوية "جامجوتى"، الطريقة التى

كشف بها قلوب الآخرين كما لو أنها لم تكن شيئاً جديداً. هل كان "سات بوجا" مجرد صديق حميم، العنصر الضرورى فى كل مغامرة؟ الفرصة أمام "جامجوتى" ليسمع حكمته الخاصة ويتأثر بها؟ عثر "آندى" على بث موسيقى آسيوية، آلة غنائية وترية يشبه صوتها صوت امرأة حزينة. شعر "سات بوجا" بالتعب. أراد أن يغفر بنفسه كل هذا، أن يكون طيباً ونقياً، وأشار بيده ببضع علامات للسلام، كتفان مسترخيان، ووجه مضىء. هذا لم يكن أبداً يتعلق بالمغامرة.

قال "آندى" إنك تبحث عن الله، عليك أن تجرب بعضاً من هذا. أشار إلى قنينة مسدودة بسدادة مملوءة بسائل.

فكر "سات بوجا" فى قراءاته فى خيمياء الكيمياء القديمة منذ سنين مضت، صياغة المعادلات من أجل تخليق الذهب، لكن ذلك كان فى الحقيقة هو أن يحول الروح الأساسية إلى جوهر أخلاقى. والآن كان هنا فى محل مخدرات فى عالم متضخم غريب. جلس مع "آندى" إلى وقت متأخر، يستمع إلى إيقاعات اللغات الأخرى، الضحكات الأجنبية. ربما قد أصبحت اللحظة ببساطة جرعة أخرى من ألم هذا العالم، "حنينه"، رغبته فى أن تكون الأشياء أفضل قليلاً، توقاً عذباً - الرياح عند النوافذ، ليل الصيف البارد فى الصحراء. لكنه كان يفكر الآن، ينصت كثيراً، ليس أقل وعياً من إدراك "آندى" الهادئ.

هل تعتقد أنه لا يوجد شيء فى كل هذا على الإطلاق؟ هكذا سأل "سات بوجا" فى اليوم التالى "جامجوتى" وهو يقصد المخدرات، عقار الهلوسة. احتمالية، الخبرات الروحانية. لقد غلف صوته بنغمة عدم الشعور بالأمان، بالترفع والازدراء والحنين إلى سماع صديقه الحميم يتكلم.

فى الحقيقة، قال "جامجوتى"، فى الحقيقة أعتقد أنه ربما يوجد شيء ما لنتعلمه.

وبعد فترة قصيرة، أخبرهما "آندى"، إنه فى المنزل يا أولاد. أخذ أنبوب من صندوق وغمسه فى السائل. مص هذا. يوجد منه ما يكفى ليأخذك خلال الغد.

وفعل "جامجوتى". قال، "سات بوجا" إنه دورك، وتلمظ بشفتيه.

لكن العصبية كانت قد ذهبت عن "سات بوجا". بدا بشعره الملبد المتسخ وذقنه غير الواضحة، مثل لص من العالم القديم، مخادع، عينان ماكرتان، لا يهدأ أكثر من أى طفل.

قال بصوت لم يتعرف عليه، آسف. أنت فى هذه المرة بمفردك.

فانكوفر - نيومكسيكو
٢٠٠٦

كانت هناك طريقة الحياة التى صارت قائمة. حاول "فرانسوا" أن يجعل لها معنى. حاول أن يراها مسلسلاً أو دليل عمل. كان فقط فى التاسعة والأربعين، لكنه شعر أنه عجوز. وبينما كان العمل فى وقت من الأوقات الضرورة الوحيدة، بدا الآن أنه انغماس. تهاوت سنين إلى شكل يوم عادى. جاءت الشيخوخة على شكل إشارات، خفوت ملامحه، الحديث غير المعتاد عن التواريخ. وانزلق من الإجهاد إلى أخطاء النطق القديمة. فاللهجة التى تعلمها بكل جهده، لن يتسنى حقيقة محوها أبداً. وبينما هو قد سعى فى وقت من الأوقات إلى أن ينسى، وجد نفسه الآن يحاول أن يتذكر، أن يفهم كيف أتى إلى هذا المكان. كره تناول طعامه بمفرده فى الأطباق المعدنية فى مطاعم خالية فى معظمها، يحملق فى ملصقات "جيمس دين" و"مارلين مونرو".

بدأ يتصبب عرقاً فى المساء. ينهض وهو يشعر بالاختناق، الحرارة الدوار، مسحوق أبيض باهت على شفتيه، ربما من الجز على أسنانه. ذهب إلى الطبيب. اكتشف أنه فى كل مرة من المرات الكثيرة التى ذهب فيها إلى العيادة، أعطوه تشخيصات مختلفة، أخذ كل علاجاتها. استيقظ فى إحدى الليالى ووقف فى النافذة. غطت الثلوج السقف والفناء. كان الشتاء قوياً فوق المروج، نقطة تلاشى للحقول الشاحبة، الرياح الهوجاء تهب من مسافات بعيدة. ومن ثَمَّ، تأكد أنه يستطيع أن يقتلع الأعشاب الضارة من خلال الثلوج. كان يونية. وكان ضوء القمر. تعين عليه أن يمضى إلى الخارج ليتفهم موقعه، ليستشعر دفء الهواء.

وسرعان ما خضع بعد ذلك للفحوصات وأشعة "إكس". نظر الطبيب إليه فى العين. استمع "فرانسوا"، لكن الكلمات لم تتجمع معاً ليكون لها معنى.

قال الطبيب عند نقطة معينة، أنت من ناحية أخرى سليم، لكن كل هذا يتعلق بالمكان.

أخذ "فرانسوا" أشعة "إكس" من الشاشة ورحل. وفى سيارته أعاد حساباته تقريباً ورجع، وهو يشعر أنه فقد شيئاً ما، لقد كان هناك احتمال بأن الطبيب قد نسى. وبدلاً من ذلك زار "إدواردو".

كانت أشعة "إكس" مفرودة أمام ضوء المطبخ، فحصها "إدواردو" وقال، صحيحة بما يكفى.

وفى طريق العودة إلى المنزل، كان يتعين على "فرانسوا" أن ينحرف عن الشارع من أجل الدخول

الحمام. كان قذراً والإضاءة معدومة، وموضع المقبض مثقوب فى الباب المعدنى. وانسحق تحت حذائه زجاج حقنة. وبغض النظر عما كان يحترق من خلاله، فإن الخوف أو السرطان، كان يحترق من خلاله الآن. لقد رأى تشعبات أمعائه كما لو كانت قوته تغلى، تفور. هل الموت الآن يستحق كل هذه السنوات من الأحكام المطلقة التامة؟ لا شك أنه كان هذا الحزام الكهربائى الملعون، بمثل هذه الخطورة التى حذر منها "إدواردو". يمكن أن يكون هذا هو وقته مثل خنزير التجارب الغينى. ربما كان يتحلل من الداخل. فقط هذا الصباح، شعر بالتجويف فى كتلته. كان متأكداً أن رائحة أنفاسه كريهة. إنه مازال شاباً. شعر بالقوة فى عظامه مثل المعدن الساخن فى أحد الأفران. لقد كسب نقوداً، شاهد أصدقاءً ينجرفون ويصبحون جدوداً. كان ابنه يبحث عن حياة من الاكتمال الممل. أخبرته "بيجى" أن "هارفى" أصابه مس من الجنون، التحق بطائفة من الجنوب الغربى. طائفة حتى بمقاييسها نفسها، مجنونة بالفعل.

ما الذى سيكون عليه العمل الأخير الذى له معنى؟ قبل بضعة أيام من قراءة الصحيفة فى الحانة، سارع بقراءة المقالة عن فيزياء الحرارة المنخفضة. لقد أعطته رقماً تقريبياً عن الأسعار، وفى عالم مثل هذه الأشياء الذى لم يكسب منه شيئاً على الإطلاق، كان مجرد فريسة صغيرة. لكن الآن عند التفكير فى المستقبل الذى لن يكون جزءاً منه، فهم الرغبة فى

المحافظة. إن "والت ديزني" و"تيد وليامز" في شكهم في فيزياء الحرارة المنخفضة، وغيرهما كثيرون، الرءوس المقطوعة والمجمدة محفوظة بإحكام في هواء القطب الشمالي، حتى يمكن زرع أجساد جديدة من الطين المتوهج وترقيعها. لقد أراد أن يصدق معظم الأحلام العبثية للمدنية، لكنه لم يكن غنياً بالقدر الكافي. شعر بقنواته الواهنة مسدودة وعينيه ملتهبتين، ومجرد التفكير في ذلك شعر بأنفاسه في فتحتي أنفه أصبحت ضعيفة من البرودة. لقد انتشر السرطان خلال جسده، كانت النجاة مشكوكاً فيها، وقال الطبيب، إن إطالة الحياة على الرغم من أنها ممكنة في مثل عمره، إلا أنها ستكون غير سارة. إن الوسائل الوحيدة التي استطاع "فرانسوا" أن يتخيلها للاستمرارية هي أن يجد "هارفي" ويضعه على طريق أفضل. فهو نفسه قد احتاج إلى سنين ليكتشف قوته.

جلس ما يزيد عن الساعة في عبق نشادر الأمونيا للبول. لقد غضب من الإحباط بشأن جسده. ظهرت طبقة باهتة تلو أخرى من الرسومات على الجدران في الظلام مثل تعريشة العناقيد. لقد أراد ولداً على صورته، ولعل الوقت ليس متأخراً بعد. لكن حينما نظر على نفسه الآن، الوجه متجمد قاسٍ غير متسامح.

في هذه الأسابيع التالية باع كل شيء، حتى بيته وأعماله. لم يرغب في أن يغامر بكل ما بناه أن يصبح عديم القيمة في غيابه. لكن لم تكن الأكوام من

الأصول التى يملكها هى ما فكر فيها، وخصوصاً عندما بيعت سريعاً. كتب وصيته، تاركاً كل شىء إلى "هارفى" مع تعليمات، وأخذ أربعين ألف دولار أمريكى من الأوراق النقدية الكبيرة فى تجويف حزام نايلون للنقود. ونام فى أغلب هذه الأيام الباقية. شاهد التلفزيون فى وقت متأخر من المساء، شاهد فيلماً حربياً لأول مرة. القائد السكير، بديل الانتقام، المحارب العظيم يترك صومعة الصمت. محاضرات فى التركيز، الحكمة والشكل. تنين، نمر، غراب. والطريقة التى ترحل بها هذه الأجسام ذكرته كيف أنه كان من الطبيعى أن يحلم. فجأة كان مرهقاً. أغلق التليفزيون. ولمدة اليومين الأخيرين اللذين ظل المنزل فى ملكيته قانوناً، بقى فى الفراش. بعد ذلك، حان الوقت. كانت السيارات تُحمَّل من على الطرق الجانبية وأسفل الشارع، تُغادر للعمل. وفى مطلع الصباح وضوء الشمس بين بيتين، مرقوا مثل ومضات الكاميرا. لم يعد بعد جزءاً من كل هذا.

قاد فى هذا اليوم فى صمت. مر الوقت بطريقة البدايات السريعة، التقاطعات والتجهيزات التى أعطتها التضخمات، لم تكن الأرقام والأسماء تعنى شيئاً، لم تكن أكثر من مؤشرات عبر تمدد لا نهائى: "آى - ـ ٨ (٢) إلى "ياكيما" عبر زواية "أوريجون"، وما وراء "إيجل كاب" و"ريد ماونتاين"، وماوراء "لا جرناد" و"باكر سيتى"، ومكان يسمى "أونتاريو"، ثم "بويس"، نهر "سناك" وإلى "أوتا". ليس مجرد ضخامة ناطحات

السحاب وامتدادها، بل إن الضوء نفسه قاده إلى مقارنة "مونتريال"، الضوء الناحل للشرق، بمثل هذا الضوء الهاطل مثل الأمطار، ممتلئ كما لو إنه محمل من البلد التى عبرها، ضوء الرعى. فر النهار، وحتى الظلام كان إحساساً بالانفتاح، الفراغ الخاوى. فى هبات ما يشبه الرياح العابرة على العلامات الأرضية المضيئة على الطريق السريع عند منتصف الليل، فى الظلال التى تكتسحها أضواء السيارة الأمامية على جانبى الطريق، تذكر الرحلات القديمة. كان يغمره الإحساس بالكم الذى أعطاه للحياة التى عاشها، واستغرق فى التفكير فى هذه النفس البريئة التى أحبت السفر مع السيارات العابرة، فيمن أحب الحقول واشتاق إليها، وفيمن لم يعد أبداً إلى البيت فى المدينة. لسنوات عديدة، وجد جدته فى مقعدها، هزيلة وقد شاب شعرها وانهارت الشرايين على ساعديها، عيون الموت باللون الأزرق الباهت مثل كلب أعمى. هل كانت هناك حكمة فى كل ذلك، أم هل كانت الأرض ببساطة على ما هى عليه، تنمو وتتوحش فى مواسمها؟ أمسك عجلة القيادة ليقاوم الإجهاد والذكريات والندم.

قضى الليلة فى فندق صغير على الطريق، وبدأ ثانية فى الصباح التالى، وقاد مرة أخرى خلال النهار عبر "كانيونلاندز" و"روكيز"، الطريق البطىء فيما بين الولايات، التوقفات المظلمة فى الممرات التى تكتسحها الرياح من أجل القهوة. بعد ذلك جنوباً إلى "لاس

فيجاس" و"نيومكسيكو"، وأخيراً قوس السنارة المنقوش على الخريطة: عائداً إلى الغرب إلى "سانتافى"، شمالاً على ٨ (٤) عبر الأراضى الجافة الحمراء المشققة.

كان فى وقت متأخر من بعد الظهيرة حينما توقف عند "كازينو" تحيط به أماكن انتظار أغلبها فارغ فى فناء قديم يكسوه الغبار. استأجر غرفة فى الفندق. وبعد ذلك عثر على التليفون بالعملة وطلب "بيجى". كان على مر السنين يتحدث فقط حينما يتعلق الأمر بـ"هارفى". سألها على عنوانه، لكنه لم يخبرها عن المكان الذى يوجد به. قالت إنها اتصلت لترى ما إذا كان "هارفى" مازال فى حالة الصمت، لكن الرجل الذى يعيش معه قد قال لها إنه قد رحل. لم يرغب "فرانسوا" فى أن يخفف من قلقه، لكنه لم يسمع أبداً عن الزاهدين والحكم وفقاً لوصف "بيجى" المتملق لما أخبرها به الرجل بما لا تعرفه أيضاً.

تنهدت. أنا لا أعرف ما الذى يفعله، لكنه لا يجيب حتى على رسائلها الإلكترونية.

أخذ "فرانسوا" العنوان وقال لها مع السلامة. ذهب إلى مكتب الإدارة. مدخل بدون باب يفضى إلى اجتماع للأعضاء. عشرات من الشابات الفاتنات فى ثياب السهرة، وأقدامهن تأخذ أماكنهن على الطاولات، بينما كانت امرأة أكبر تتحدث بلهجة فرنسية. أخبر ساقى الحانة "فرانسوا"، حينما وضع مرفقيه على

طاولة الحانة وسأل، إن اليوم كان ورشة عمل فى آداب التعامل والفضائل الاجتماعية للمتنافسات على ملكة جمال "نيومكسيكو".

بالخارج هنا؟

قال ساقى الحانة، المكان مشهده جيد وليس غالى السعر. لم يرغب "فرانسوا" أن يشغل ذهنه، لكنه حينما عبر المدخل، داهم صدره انقطاع بارد فى أنفاسه. وعندما نظر على الأكتاف النحيلة والصدور الاصطناعية، تساءل ما إذا كان قد تمادى إلى ما وراء الرغبة فى ذلك. وابتسمت الفتيات بدون سبب ظاهر، كان جلدهن مشدودًا بعنفوان الشباب. مازل اتساع البلد يطن بداخله مثل استرجاع عكسى خلف عينيه، وكان من المستحيل أن يصدق أنه يحتضر. كيف يمكن أن يضع كل شىء بشكل صحيح فى حياة واحدة؟ إنه يحتفظ بالكثير من الصور من هؤلاء الذين أحبهم، لنفسه حينما كان للحب مثل هذا البريق، "إيرنستين" أو آماله من أجل "هارفى".

وفى غمرة شعوره بالقلق مضى إلى السيارة. كان أسفلت الموقف يبث حرارة النهار.

لم يكن موقف عربات المقطورة بعيداً. هناك، دعاه الرجل الذابل الغريب إلى الدخول وقدم له شاياً مثل ذلك الذى أخذه مع "بيجى". لكن جدران الكتب أثرت فيه، الكثير جداً من التعليم، وبمعنى الأمل. ربما كانت هناك إجابات هنا حتى عن مرضه.

أخبره "بريندان هاورد"، رحل "هارفى". لقد حل الظلام بالخارج. كان سطح عربة المقطورة يتكتك كما لو كان يعانى من البرد. حظ سعيد لتجده، وبالمناسبة هو يُسمى "سات بوجا" الآن.

بعد ذلك كان "فرانسوا" يقود بدون هدف. سلك الطرق الضيقة مع حراس القطعان، تجمعات المقطورات الماضية أو مواقف السيارات العرضية، بالسيارات المفككة وقوافل السيارات البطيئة. كانت تلك أرض أخرى وحقيقة مختلفة. تأكد بالقدوم إلى هنا من أنه فقط الطريق العام هو المألوف، مثل نهر نعتمد عليه فى الحياة. كم قطع من مسافات منذ رحلاته الأولى؟ ما الذى يمكن أن يكون عليه التلقين؟ ماذا لو أحاط بك التماثل من كل جانب مثل الغبار، ولم تعثر أبداً على الأسرار، لم تصبح أبداً حكيماً فى أى شىء بل تنتظر؟ ربما هو قد عانى من فقر الروح تجاه "هارفى". لم يمنحه أحلاماً على الأرض. فكر لسنوات فى أنه قد فقد قوة العائلة فى الترجمة. لكن ذلك، أو حتى إلقاء اللوم على "بيجى" كان يمكن أن يمضى به إلى بعيد جداً. لقد كانت هناك رقة حاول "فرانسوا" أن يستأصلها من داخله، ومن ثَمَّ ربما كان "هارفى" يعيش خارج الدائرة. فماذا عرف "فرانسوا" عن أمه عموماً؟ أبيه؟ إنه يتذكر المشهد فقط. كان متأثراً من أن ابنه قد حضر إلى مثل هذا المكان. قاد ببطء يتحول مع المنحنيات، الأرض الحمراء ترتفع إلى الأمام، كما لوكانت الأضواء الأمامية للسيارة تنثر الدماء على التلال.

وفى اليوم التالى مكث "سات بوجا" حتى الفجر، تباطأت عواطف الليل. ليس فقط المذياع، لكن أيضاً حديث "آندى" قد حمله إلى عالم آخر. وفى مرات قليلة سأل "سات بوجا" عن "جوانيتا"، وقص عليه "آندى" الحكايات، متردداً بحزن ويتوقف غالباً ليجذب فى عصبية شعيرات من شاربه. شرح أنها حينما وجدت نفسها حاملاً تعقبت صديقها.

ظننت أنها تستطيع أن تمشى إلى الطريق العام وتجده. ربما أرادت فقط أن تمضى بعيداً. أنا لن ألومها.

وشرح فيما بعد خطته أن يذهب إلى المدرسة من أجل الكمبيوترات، فتح محلاً لإصلاح الكمبيوتر، يمكن حتى أن يصبح مبرمجاً. أخبر "سات بوجا" أنه سوف يمول ذلك من خلال بيع عقار الهلوسة "إل أس دى". وبسبب أن سوق "إل أس دى" قد تراجع، فلم يكن هناك الكثير من المنافسة، حيث إن المبيعات اتجهت إلى "الهروين" الذى استولى على المجال. قال، إن الأمر يشبه صاحب عمل صغير. النقود هى الأهم.

فهم "سات بوجا" حكمة "آندى"، نبل رغبته فى أن ينقذ عائلته. تحدث "آندى" عن إعادة بناء البيت، حتى يمكن أن تربى "جوانيتا" طفلها فى مكان ما جيد. لقد أثارت المناقشة الكثير من العواطف لدى "سات بوجا". أراد أن ينتزع حياته بأكملها، أن يستيقظ ويصبح شخصاً أقوى. فهو قد فكر فى أن "جوانيتا" ربما تحب هدوء "الزاهد".

وفى الصباح التالى بعد أن أخذ "جامجوتى" الـ"إل أس دى"، كانت "جوانيتا" فى المطبخ مرة أخرى. ابتسمت له، لكنها لم تتلق انتباهاً. مشى إلى الخارج بتثاقل، وبالرغم من أن "سات بوجا" أراد أن يتخلف ويتحدث، إلا أنه كان لديه الإحساس بأنه قد بدأ شيئاً يحتاج أن ينتهى. نظرت "جوانيتا" عليه نظرة ساخرة وهو يسرع بالخروج.

أخبره "جامجوتى" بمجرد أن لحق به، أنت تعرف. إننى بالفعل لم أقارب الله بالطريقة التى يفعل بها الآخرون، ولكن ولا أنت أيضاً. إنها الحقيقة التى قلتها فى هذا الوقت. أنت اقتربت من الهروب. فأنت ليست لديك الشجاعة على التبصر والفهم العميق الذى هو ما أملكه، حتى لو لم يكن متعلقاً بالله أو الدين أو أى شىء، كل ما هو بالأحرى همجى.

أومأ "سات بوجا". شعر بغضب "جامجوتى"، كما لو كان عن طريق "رادار"، وتجنب نظرته المتفحصة، يحاول طوال الوقت ألا يبدد "جوانيتا" من ذاكرته.

شرح "جامجوتى" مطولاً أفكاره بعقلانية غاضبة: الشعبية المتجددة للفلسفات الشرقية التى تعالج الكثير من التوتر أكثر من أية رغبة فى الحكمة. فعواطفه وأهواءه لا تتضمن أبداً الإرهاق اليومى لحياة الأتباع والمريدين، العلاج بعزق الحديقة حتى يمنحك المعلم كلمة أو اثنتين. قال، العاطفة والرغبة هما مصدر قوة الإنسان. حتى المعلم يعرف ذلك. متى حدث آخر مرة رأيت فيها الضعف يصنع أى شىء؟

تحدث بجرأة وثبات، ومشى طويلاً إلى الصحراء التى شك "سات بوجا" فى أن أى شىء منها موجود عند المغنى "كيوتيب". سافرا بعيداً، استهدفا بغموض الابتعاد عن كل علامات الحدود، اختفى النهر من مرمى البصر، وتلاشت أصوات الطريق السريع.

لقد وجد "سات بوجا" نفسه مرة أخرى مأخوذاً بقناعة "جامجوتى". فكل شىء اعتقد فيه، فجأة تسلل إليه الشك. سأله، لكن ماذا تفعل حينما تكون الحياة... تكون مرعبة؟

ضحك "جامجوتى" ضحكة مكتومة. تطلب من الرجل العجوز نقوداً.

وقف "سات بوجا" ضد هذه الصحراء بأحلامها عن البحر القديم والرمال والرياح. إنه لم يكن مصنوعاً من هذا، لا يحتاج أكثر من قطعة صغيرة من العالم، مسكين بحق. فهو قد عرف أنه لم تكن هناك، لحظة واحدة أبداً كتلك الموجودة فى صور التنوير التى استخدمتها أمه لتمنحه إياها. إن الفنانين ورواة الحكايات قد صنعوا القديسين والآلهة عن طريق تحريرهم من الروتين الزمنى. قال المعلم شيئاً مثل هذا. لقد كانت هناك شاعرية فى الطريقة التى تحدث بها. قال إن حياة الزهد وردة مضغوطة تحت زجاج، لقطة للمحيط فى أجمل تضخماته. استطاع "سات بوجا" أن يصور "جامجوتى". "دونالد" مرة أخرى يجلس فى الخلفيات الكثيرة للمستقبل، مع أشجار البرتقال والمقاعد الحديدية فى المروج، وسيجارات

ضخمة للتدخين، وشرب شيئًا ما مُعَتقًا قويًا فى قبو من القرون الوسطى، إلى صوت ضحك حماسى للنقود الضخمة، التفاصيل المراوغة لشبابه الغامض.

بدأ "جامجوتى" يمشى فى دائرة، مازال يتحدث ـ شىء ما حول الحقيقة المطلقة، كيف أن السعى إليها الآن كان مثل القاطنين الأوائل للأرض عائدين إلى البحر، من أجل عنصر بمفرده يعيشون فيه. لكن فى منتصف خطوته توقف واتسعت عيناه. لمس مؤقتاً ما بين ساقيه.

قال "سات بوجا"، "جامجوتى".

سأل "جامجوتى"، فزعاً، من؟ جر قدميه بصعوبة. قال، يا الله، أنت توجد حيثما أكون. تكاثفت قطرات من العرق على جلده. لمس تراب الأرض بأنامله كما لو كان يختبر نعومة الفراش.

لحق به "سات بوجا"، ولم يتكلم أى منهما، كانا يحملقان. وعلى هذه القشرة من الأرض البغيضة استشعر القارة من تحتها. تخيل أن المسافة كانت صخرة عملاقة بعد صخرة مثل الأمواج المتكسرة، ترتد إلى الخلف، إلى المحيط الذى جاء بأسلافه الأوائل. ما الذى كان أكثر قدماً من تنشئة عائلة، أكثر من العيش فى بساطة ورغد؟ هل كان هذا هو الحب الذى احتفظ بك بعيداً عن التنوير؟ أراد أن يضحى بشىء ما. أصبحت الشمس غير محتملة، اقتربت على نحو مزعج، ذابت ظلالهما، وما شعر به الآن كان

الغضب، شعر به جديداً جداً وغريباً مثل نفس ثانية تجلس بداخله. لم يكونا بعيدين عن "لوس آلموس"، الأحلام ونوايا هذا العمر. جاء الرجال هنا ليختبروا قدرتهم على التدمير. استطاع أن يفهم ذلك تقريباً. لقد ظلت ذكرياته عن هذا العنف على التلال قوية، طبع المخلب ظلاً أكثر توهجاً من التراب.

قال "جامجوتى" فجأة، ما كل هذا الحديث عن العودة إلى الطرق القديمة؟ بدا أنه استعاد هدوءه. الناس تتحدث دائماً كيف أن الأشياء كانت أفضل من قبل. لكن بالعودة حينئذ، فإن الأزمان الجيدة الحقيقية، كانت هى المذابح. لقد ذهبت أنت إلى قرية قريبة وقتلت واغتصبت ونهبت، وأنت تتذكر تلك اللحظات على أنها أروع اللحظات فى حياتك. فكر إلى أى مدى وصلنا. لقد كنا خائفين من أسلافنا. لقد كانوا مثل الحيوانات. فقط أقرأ "العهد القديم". وحوش!.

وقف وتعثر على طول منحدر التل، يمسح كل شىء،ويقرص بسعادة على جلده الأحمر.

عرف "سات بوجا" أن "جامجوتى" كان على حق ثانية. فقد فكر فى هذه الحكمة، وعادت إليه السكينة مرة أخرى. تسلل بعيداً عن الاتجاه الذى أتيا منه، متتبعاً الخطوط الباهتة.

وبمرور الوقت، مر "سات بوجا" من خلال التلال المتجعدة تحت المعتكف، كان لحم وجهه ورقبته

وذراعيه لامعًا وساخنًا. لقد جذب قميصه فوق رأسه، مندهشاً من المدى الذى وصلا إليه، وبدأ يفهم ما الذى سيحدث لـ"جامجوتى" تحت هذه الشمس. فكر فى العودة. لم يفعل أبداً أى شىء مثل هذا أو أراد أن يفعله. بدا القرار أبدياً مثل ذلك الذى جاء به من بعيد من البيت. لقد تجنب المعتكف الأخضر، مخترقاً عبر المشهد القاحل حتى وجد قناة رملية تتبعها حتى "دراى برانش".

لم يكن "برينـدان هـاورد" فى المنـزل، لكن "سات بوجا" عرف أين يخبئ المفتـاح تحت كتلـة خشبية أرجوانيـة فى الحـديقة. دلف إلى الداخل وتوجه إلى الحمام. كانت ملابسه مهترئة. وضعها فى القمامة، ثم اغتسل تحت "الدش" ومشط العقد المجعدة من شعره. وحددت حروق الجلد عظام وجهه. تفرس محدقاً فى نفسه الجديدة. لقد بدا كما لو أنه ظهر فجأة ووقف حيث كان يقف الآن وحملق. كان وجهه أقوى من أى شىء قد عرفه، لامعاً مثل لوحة عن الحرب.

وبعد فترة قصيرة عاد "بيرنـدان هاورد" إلى البيت. كان "سات بوجا" فى واحد من أردية الحمام الخاصة به. لم يظهر الاندهاش على "بريندان هاورد". قال "سات بوجا" إنه يريد أن يستعيد غرفته التى كانت ممتازة ـ وافق بإيماءة من المعلم.

أخبره "بريندان هـاورد"، ينبغى أن تعلم أن أباك قد توقف هنا الليلة الماضية.

جاهد "سات بوجا" من أجل أن يأخذ نفساً. إنه يعنى - استطاع أن يفهم - أن أباه جاء ليسحبه. ومن تحت طاولة المطبخ وضع "بريندان هاورد" حقيبة من الممتلكات التى استغنى عنها. وجد "سات بوجا" المزيد من ثيابه. ارتدى الملابس سريعاً، ربط عمامة طويلة وشدها على شعر ذقنه.

سأل "بريندان هاورد" حينما فتح "سات بوجا" الباب، إلى أين أنت ذاهب؟

إلى المعتكف. للتأمل. ينبغى أن أكون مستعداً.

وفى تحذير نادر منه، سلمه "بريندان هاورد" حزمة من الأطعمة أرسلتها أم "سات بوجا". قال، فى حالة إذا كنت ستحتفظ بالغرفة على أية حال.

لقد ثبت أن التأمل مستحيل. انتظر "سات بوجا" فى المبنى. هبت نسمة من الهواء ثم سكنت تماماً. رفرفت أوراق شجر الحور فى السماء. رآه بضعة من أعضاء المعتكف العابرين ونظروا مرتين. أبطأ من تنفسه، محاولاً التركيز على إبعاد الخوف، فنهاية اليوم الذى طال ألهبت أعصابه وشعر بالاختناق. لقد فكر فى "جوانيتا"، وبدا سريعاً أن شخصاً نصف شفاف رفرف فى السماء. والغريب أن هذا الحنين لم يعد يشعر به نوعاً من اليأس. فمجرد جلوسه الآن والنظر على ضوء الشمس يتبدد، شعر بأن شيئاً ما ينتهى وكائن ما يتشكل. الشكل ومض وخبا. حدق فى القبة الذهبية وفى الصحراء. وتساءل، ما هذا؟ وعبر

الخضرة، اقترب "فرانسوا". أصبحت الشمس زهرة دافئة تغرب بعيداً من أسفل، كما لو أنه الجنوب. اندهش "سات بوجا" عندما لاحظ كم كان أبوه قصيراً بالفعل.

جلس "فرانسوا" وأخذ نفساً. كانت هناك نعومة فى نظرته. تذكر "سات بوجا" وجه أبيه منذ زمن طويل، فى أحد أيام الشتاء، ندف الثلج فوق شعره، اندفاعه حينما دخل من الباب مجهداً من يوم العمل، إحباطه من بيت لا أحد فيه يشتاق إلى عودته. مازالت عيناه تبرقان. هل كان حباً أو شجاعة أو أملاً؟

قال "فرانسوا" حينما انتهت شعيرة الصمت، إننى فخور بك؟ إذا كان بإمكانى الرجوع، ربما كنت هنا تماماً معك.

وشعر "سات بوجا" من الطريقة التى قال بها هذا بقوة الأرض من حولهما، كما لو أنها المرة الأولى التى يراه.

هبت الريح ثم خفتت ونشطت ثانية. جاء صوت بضع نغمات غريبة من الفندق القريب، شىء ما يشبه انقلاب علب الصفيح من القمامة، عزف مباشر من الفرقة الموسيقية الليلية.

سأل "فرانسوا"، إذًا ما الذى تخطط له؟

اعترف "سات بوجا" أنه لم يكن متأكداً، لكنه اتخذ هذه الممارسة العميقة، صوتاً للحكمة، كما لو

أنها قرار يُتخذ فى مجال الأعمال. أضاف، إننى فى حالة حب، أجرب هذا. وصف "جوانيتا"، وكيف أنها حامل، وإنه يريد أن يمنحها حياة سعيدة.

قال "فرانسوا"، حامل، وابتسم.

لست أنا.

أوه... فهمت. لكنها اتفقت معك.

لم أتكلم معها حتى الآن.

عن هذا؟

اعترف "سات بوجا"، لا، مطلقاً.

قطب "فرانسوا" حاجبيه، لكنه وافق على أن هذه مجرد تفاصيل. وقال، لقد مررت بمواقف مماثلة. إنه ليس أمراً سهلاً.

ولأنه قد أشرك أباه بأنه كان واقعاً فى الحب، فقد شعر "سات بوجا" بالنبل.

أخبره "فرانسوا" فى النهاية، اسمع، ربما كنت أحتضر.

هربت أفكار "سات بوجا" مع أنفاسه. لم يستطع أن يدرك ذلك، فأباه يبدو مازال شاباً. شرح "فرانسوا"، وحاول "سات بوجا" أن يجعل رئتيه تعملان. أراد أن يكون شجاعاً، فى الحقيقة مثل أبيه. فكر فى كل شيء قد تعلمه، التأملات والصلوات، لكنها كلها بدت فجأة سخيفة. فقد شعر أن ما أخبره

به أبوه من المستحيل أن يكون خاصاً. لقد تطلب الصمت. اغرورقت عينا "سات بوجا" بالدموع.

هل أنت متأكد؟

نعم، بالفعل. لا شك فى هذا.

صاح طائر مجهول وحام فى صفحة السماء الباردة. تمددت الأرض وانطوت على البعد. كانت الرياح، بعد حرارة النهار، كما لو أنه لم تكن هناك رياح من قبل. كان هناك شذى مخفى لليل، برودة مساء صيفى جاف، سكون الأقسام المظلمة.

أخبره "فرانسوا"، هذا مكان جيد.

حول ضوء الشمس المتبقى العالم ذهبياً.

وخلال هذا السكون سمعا أصواتاً قلقة، حذاء يطقطق على البلاط عندما جرت امرأة برداء أبيض عبر ممر المعتكف. الآخرون تجمعوا عند الأبواب، أحد الرجال بعمامة محارب يمسك تليفوناً خلوياً ويهز رأسه، يده تغطى فمه عندما يتكلم. كان يحملق فى "سات بوجا" و"فرانسوا".

قالت المرأة الشابة، "سات بوجا"، إن "جامجوتى" قد مات. لقد استُدعيت الشرطة على التو. إنهم يريدونك أن تبقى هنا. إنهم يريدون التحدث إليك.

وبالفعل كانت هناك بالفعل أربع سيارات سوداء تملأ مكان الانتظار. تسلق رجلان من كل واحدة منهم، وفى لحظة وقفوا هناك، ثمانية ظلال ضخمة، مثل

صور حيوان "الموظ" يرتدون زى الشرطة ورآهم "سات بوجا". توقع أن يأتى الجميع من السيارات الأربع للاتهام. استطاع أن يتنفس بصعوبة.

حينما نظر "فرانسوا" إليه، كانت نظرته بعيون من عرف كل شىء. انتزع حزام نقوده ودفع به إلى يدى "سات بوجا".

قبض على مرفقه وجذبه وهو يقول، اهرب.

ترنحا إلى أسفل التلال من المعتزل، وقد تملكتهما رعشة الخوف والتواطؤ والحب. لوح "فرانسوا" بذراعيه ليحول اتجاهه، وهو يصيح، اهرب حيث انفصل موازياً للشرطة التى كانت تمشى إلى جانبه.

برزت أشجار العرعر من الظلال. وقاطعت الممرات الحجرية المجردة. وانزلقت قدم "فرانسوا" على الأرض المتكسرة. لقد عرف أن هذا القرار ربما كان من أسوأ ما اتخذه، لكنه شعر به مليئًا بالحب. شهق من البهجة. فعلى الرغم من أن ابنه ربما يكون بريئاً فهو أفضل له لو كان مذنباً.

كانت الشرطة من فوقه، يجرون سريعاً فى خطوات متموجة، حينما توقف "فرانسوا" ليرقص فى الطين. لقد عقد ذراعيه مثل هؤلاء السكارى الذين يقلدون طائر الكركى. لن تكون هناك بعد الآن أحلام زائفة، لا رءوس مجمدة، أو أجساد تنمو مشوشة لقرون منذ الآن.

لقد اعتقدت الشرطة أنهم قد أمسكوا به، لكنه ركض بسرعة قديمة وسرعان ما اختفى.

مازال هناك وقت للتأمل فى هذا المساء. بدأت الإيقاعات العنيفة للموسيقى المكسيكية التقليدية فى الطَرْق فى سطح الفندق، بينما فى المعتكف، تجمع رهط من الرجال يدمدمون ومجموعة من النساء بثيابهن البيضاء. لقد أتوا إلى ما بعد النافورات المعطلة وحدائق التأمل النامية التى تعود إلى أيام إقامتهم الأولى البريئة.وقفوا معاً أمام الامتداد الغامض للمنحدرات المتفسخة والأخاديد العميقة. لكن لم يكن هناك شىء يرونه، فقط الصخور الجافة المجهولة فى ضوء الشمس الذى يرجع صدى الصمت.

كان "فرانسوا" أول من وجد الطريق السريع. صوت فرامل تصفر ببطء فى الهواء. جرى إلى الباب. أومأ السائق وسأله عن وجهته. كل ما قاله "فرانسوا"، الشمال. احتفظ بثباته،حاول وهو منزعج أن يقبض على أنفاسه. فكر فيما يمكن أن يحدث فيما بعد.

ظل جالساً لفترة، الراديو يصدر طنيناً موحشاً من النغمات حينما جال ببصره. وفى الضوء الناتج عن الحركة لاحظ أن سائق الشاحنة كان يرتدى ثوباً نسائياً تحت قميصه، تظهر شرائطه وأهدابه عند الأكتاف على شكل قلب عند بطنه المقابلة لعجلة القيادة.

فى البداية لم يقدر "سات بوجا" على الجرى. تعثر، أراد أن يسقط ويتكور، صرخة حادة خرجت

تلقائياً من حنجرته. كاد أن يُقبض عليه لولا أن "فرانسوا" حول مساره. وفى النهاية سيطر على نفسه إلى أن صار فقط يلهث بصوت كالنباح. وسرعان ما تحولت ثيابه إلى اللون البنى، واستطاع أن يقوم بتمويهات جيدة. مازال يحدوه الأمل أن يصل إلى "جوانيتا". تذكر كيف أضاء وجه أبيه بالافتخار مثل البللورة. إنه شعور مثل المشاركة فى السر. وعلى الرغم من أن رئتى "سات بوجا" تنسحبان إلى نقطة مؤلمة جداً، إلا أنه أمر جسده وأجبره على الجرى.

استفحل ظلام العالم. تشابكت الفروع، تلوى الصبار مثل الأفاعى. لديه على فخذه رزمة من المال ترقد عميقاً تئز فى جيوب ثوبه. أتت إليه صورة "جامجوتى" يبكى تحت الشمس الحارقة، فمبرره الذى اضطره أن يهجره أخيراً تحطم من مثل هذا الضوء. فقد كان "سات بوجا" بريئاً فى اعتقاده بأن كل شخص يكون قوياً بما يكفى لأن ينجو من هذا. وفى إطار المعرفة بما فعله كان السكون مفزعاً. للمرة الأولى لم يكن لديه اختيار سوى نفسه. هل كان يوجد هناك شىء آخر؟ فقط هذه الحياة، أن ينتظر الميلاد الجديد، أن يعيش ويولد مرة أخرى فى حال أفضل قليلاً.

وعلى البعد، كما لو إن النسيم قد حمله، كان توهج الطريق العام وطنينه. تنفس بصعوبة بالغة. تسلق فى اتجاهه، وسقط أمام المنحدر الحاد. زحف وسط القمامة والغبار حتى وصل إلى جانب الطريق

المرصوف. تجمدت رئتاه. تنبض عروقه فى مكامنها. رقد هناك غير قادر على الحركة، جسده مضخة لـ"الأدرينالين".

أبطأت شاحنة عابرة وتوقفت. انطوى القماش المشمع إلى الحواف المعدنية، وزحف من تحته بضعة رجال. كانوا صغار الجسم لونهم أسمر. بكلمات من الإسبانية قدموا التشجيع الأبكم إلى بعضهم البعض. توقفوا ليجذبوا البنطلونات الجينز المتسخة، ثم انحنوا ليفحصوا "سات بوجا". دمدموا وهزوا أكتافهم، ثم تركوه. جاء الآخرون وحملوه عائدين. بدأت الشاحنة فى التقدم، وأخذ القماش المشمع فى التموج. أمسكوا بحوافه ليمنعوه من أن يرفرف. وشعر "هارفى" بصدره يهدأ. بدت الرياح كهواء جديد. راقبه الرجال فى صمت. وجعله الاختناق فى سكون دائم. وانفجر لأول مرة فى السعال، وتلوى حتى تمزقت رئتاه، فمه مفتوح كما لو إنه يصرخ. رقد على الألواح غير المتساوية، يشعر بالاندفاع، إلى لا شىء يمسك به، إلى قماش مشمع يرفرف مثل جناحين عملاقين. تنفس، أنفاساً عميقة عبر هذه الستائر الحاجبة، المحرك يدق من أسفل، الطريق السريع يتراجع أمام الأضواء المنطلقة إلى بعيد أمام حدود الظلام الخارجى فى رمقه الأخير.

خاتمة

لويزيانا

كانت أصعب السنين تلك السنوات التى كانت مازالت فيها "إيزابيل" صغيرة جداً على الالتحاق بحضانة الأطفال. تعين على "بارت" أن يعمل ورديات الليل فى نزل وضيع ليكون معها، نصف نائم أثناء النهار أو ما بعده، يضعها على الطاولة فى سلتها عندما يغفو، ذقنه على قبضته، مقابل مبالغ زهيدة. وحينما كانت فى الثالثة، ثبت عمله ليلاً، وحصل على وردية مثيلة فى مشروع لمؤسسة "كونوكو" للبترول ليتركها فى الحضانة، قلقاً على كل دقيقة تقضيها فيها، ليستريح فقط حينما اكتشف أنها كانت هى التى تأكل طعام الأطفال الآخرين وتخطف منهم الدمى بجرأة وشكيمة قوية. وظلت ضخمة بالنسبة لعمرها خلال الدراسة الابتدائية، ورآها حينما كان ينتظرها بعد المدرسة تضرب الأولاد وتطرحهم أرضاً، وتصيبهم بالتقلصات والبطحات. وخشى بشأن درجاتها، إلا أن ميولها قد تقررت من خلال وقتهما معاً، تتركز حول

قراءة رواية تلو الأخرى، بمفردها أو مع بعضهما البعض يتصفحان الكتب المصورة التى أخذتها من المكتبة، حتى تقول دعنا نفعل شيئاً آخر، ويسأل هو هل نحن مضطرون إلى ذلك؟ حتى الاحتجاز فى المدرسة لم يسبب لها ضرراً لأنها كانت تعمل فيها على الانتهاء من الكتب المدرسية وتقفز بدرجاتها.

وفى المرحلة الثانوية كانت مرحة وذكية، كانت غالباً ما تُطرد بسبب أنها كانت ترفع زوجًا من الملابس الداخلية الملطخة على سارية العلم بعد أن تكتب اسم مدير المدرسة عليها، لكنهم احتفظوا بها فقط لأنهم لا يستطيعون الفوز فى دورى كرة السلة المحلى بدونها. وعلى الرغم من أن "بارت" كان قلقاً من أنها سوف تتحول إلى فتاة خرقاء وقبيحة مثله، إلا أنها كانت نحيفة بقدر معقول مع تكوين عضلى ووجه خمرى جميل. وفى المدرسة الثانوية كان عمرها أصغر من الصف الدراسى بسنتين، وعرف أن لديها الاستعداد للوقوع فى كارثة الحب. كانت فى الخامسة عشرة، طولها ستة أقدام وثلاثة، والولد الذى اختارته ستة وثمانية، مهرج، لاعب كرة قدم، له ملامح قرصان. كانا يذهبان معاً فى المساء إلى المدرسة الثانوية المنافسة فى منطقتهم يرشون الطلاء على اسمها، "القلب المقدس"، ويضعون مكانها بضع كلمات أخرى، امتنعت الصحف المحلية أن تكتبها، لكنها أشارت إليها على أنها علامة على الانحطاط القومى. لقد أصاب إحساسها بالحب "بارت" فى الصميم، حتى

أنها أدركت وجلست معه وسألت لماذا اختار أن يبقى بدون امرأة طوال تلك السنين.

وفى هذه الأثناء فى شركة "كونوكو"، حصل على ترقية من عامل نظافة إلى أعمال الصيانة العامة لتركيب الأنابيب، وفى النهاية إلى كبير عمال بعد فترة من التدريب. وحينما كانت فى الخامسة، رأى منزلاً رخيصاً على قائمة الرهونات العقارية وسدد الدفعة المقدمة. كان يقع على طريق هادئ تفصله الأحجار عن نهر صغير ومستنقع. وفى هذا اليوم الأول بينما كان يطلى المنزل، تسللت خلف المنزل من خلال المروج خلف الحظيرة القديمة إلى النهر الصغير. ومن المياه الصفراء طفت الأسماك نحو أشعة الشمس، سمك كبير يشبه الطوربيد وعيون مثل السدادات المطاطية، يفتح فمه الذى يشبه منقار البطة يسحب به الحشرات الطافية. وعلى الجانب الآخر فناء النفايات الذى امتد بالقرب من الشاطئ حيث تكومت الإطارات ومقاعد السيارات والخراطيم المفرغة ولوحات عدادات السيارات. وفوق الأشجار كانت السماء بلون القطن المبلل. بعد أبيها كان هو حبها الأول. ولسنين سوف تغادر المنزل بمفردها، تمضى إلى ما وراء السقيفة والحظيرة، بطول الغابة إلى حيث اغتسلت الجذور ونُقعت منذ سنين بالأمطار والرطوبة، حيث كان للهواء المظلم رائحة الطين.

حاول "بارت" فى البداية أن يتغلب عليها، ثم ببساطة جعل المنزل محمياً بطارد للحشرات واشترى

لها قبعة بشبكة حامية مثل خمار الحداد حتى لا يحط البعوض على وجهها، على الرغم من أنها لم تستعملها أبداً. وعند النهر، بدأت أسئلتها الأولى عن الحياة. شرح لها أن أمها قد ماتت فى حادثة سيارة، وكان لديها صورة امرأة بالقرب من مصباح الإضاءة، الرأس مائلة، كل عظمة لوجنتيها قوية مثل كعب اليد. لون شعرها نحاسى فى الضوء الخافت، وشفتاها شاحبتان. لقد تأملت كل المعالم، حتى الشارع الرمادى الذى بدا بالحروف القليلة لواجهات محلاته ومظلاته، تدعو إلى الامتنان. وفيما بعد، حينما صارت تهتم بعلم الأنساب، شارك "بارت" فى الإنترنت من أجلها.

وعلى الرغم من أنها لم تستطع أن تتبع أبا "بارت"، نجحت فى أن تحدد مكان "جودى". أرسلت صور لرخصة قيادته، وأخبرها المتخصص فى علم الأنساب أنه يعتقد أن اسم "وايت" مزيف، حيث إنه الاسم الشائع استخدامه فى بطاقات الهوية المزورة. تذكر "بارت" أن جدها كان ملاكماً، وبالبحث فى الشبكة العنكبوتية وجدت "جودى وايت" مذكوراً على موقع من عمل الهواة. جمع المعلومات من موقع عن العظماء المفقودين، الملاكمون الذين يخلو سجلهم من الهزائم والاختفاءات غير المفسرة. كتب يقول، هل كان هو "جودى وايت"؟ الرجل الذى كسر فك "ليون براون" وكسر يده معها... ذكرت المقالة حقائق من عبر القارة، وأنه قبل ليلته الأخيرة أكمل "جودى" كشفه عن "جودى هيرفى". تابعت "إيزابيل". الرابطة التالية للبحث فى

مجال عمل العائلة فى "كيبيك"، فى "جاسبيسى"، تاريخ الولادة نفسه، فقط ثلاث سنوات. ومن هناك جاهدت كما لو كانت تعيد تركيب التاريخ المفقود، تكتشف اسم "هيرفى" فى الأماكن غير المعتادة، فى حوادث المناطق المعزولة التى تحفها المخاطر. ولذلك بعثت المزيد من الرسائل. وأعطاها "بارت" فى أحد الأيام حزمة غير ملونة من وكالة تحقيقات خاصة. تضمنت معلومات عن جدتها، وذكرت "جودى وايت" فى علاقته بخطف طفلة من مكان لا يبعد أكثر من ساعتين من المكان الذى يعيشان فيه. بدأت البحث فقط عن هذه المرأة، تبعث بالرسائل مرة أخرى، حينما يغالبها الحب.

وفى هذا الخريف والشتاء، ذهبت إلى كل مكان مع صديقها على دراجة نارية. ركباها من أجل السعادة البسيطة، متتبعين الطرق فيما بين الولايات التى تشير إليها لافتات فوق الأعمدة وأعالى الأشجار والمستنقعات، إلى "نيوأورليانز"، أو الأكواخ خلف الطرق حيث أكلا أطباق سرطان البحر ذا اللون الأحمر اللامع، ورطبا على قلبيهما بالجعة المثلجة. وعلى الألواح الخشبية المجوفة أنصتا إلى صرير الروافد ودعامات الكوخ. كان الطريق السريع غارقاً فى الظلام. وخرجا ورقدا على ألواح القصدير التى كانت مازالت دافئة من الشمس. وبعد المدرسة حينما كانت فتاة، تحدث لها العجائز العبريون أتباع "ياهوه" وأتباع كنيسة "المورمون" عن الله، بملابس مبللة بالعرق

والرطوبة حتى أسفل ملابسهم الداخلية الغريبة. لقد تخيلت الله ليس أكثر من إحساس - ما تشعر به الآن أطراف أصابعها فى داخل ذراعها، شعرها، فى عيونها، حتى أنها تستطيع أن تنظر إليه.

وحينما أخبرها ذات يوم عن رغبته فى أن يرى البلد، فهمت وأرادت أن تذهب أيضاً، لكن بالأحرى بطريقتها وأن تقابله فى مكان ما. تخيلت السفر فى السيارات العابرة، النوم فى الأماكن الغريبة، الركوب المجانى، أو ركوب الحافلات عبر السهول المغبرة، بالتدريج تصبح ما ستكونه. كان هذا الشهر بارداً، ملبداً بالغيوم، الأمطار تصفع الألواح الزجاجية، تمشى غالباً إلى النهر الصغير، تشعر بالسعادة من الطين فى الشتاء الجميل. تابعت الممر المفضى إلى الريح المدمدة للطريق السريع، الالتفاف الثقيل للمحركات والعجلات. استنشقت عادم محركات "الديزل"، المطاط الساخن والمعادن والزيوت المحروقة. انحسر قوس قزح المزدهر بتأثير البترول. حملقت فى السطح الذهبى الرقيق الذى جعلها تعتقد أنها كانت ترى عميقاً حتى صعود "الشماليون الأوائل" فى الحرب الأهلية الأمريكية من أسفل، وتحققت من أن العتمة تتغلغل إلى أدنى وأدنى.

خيمت السحب الواطئة على السماء فوق الطريق السريع. وجدت الأمطار طريقها إلى فروة رأسها ورقبتها وأكتافها. دمدمت الريح فيما بين الأشجار. عادت وحذاؤها منقوع فى الماء، وتلبدت حشائش

المروج تلتف كالدوامات فى المياه. وبدت حجرة المعيشة مظلمة فى دوامات الماء الضوئية. جمعت أشياء قليلة. انتظرت أمام المرآه حتى تهدأ الرياح.

لقد أسماها أبوها "وثنية" بسبب حبها للنهر وما أسمته "موسم الحرق"، أخبرته أنه حينما يكوم رجال الساحة المخلفات وأجزاء السيارات ـ موسم خامس مثل "السنة الجديدة الصينية"، دائماً ما يتزامن هذا مع عيد ميلادها. لقد رأت أن أباها رجل طيب، لكنه بسيط غير طموح، عاش من أجلها، وأخفى حبه فى هوسه الساكن بالطهى والروايات التاريخية وأفلام العصابات. كان قوى البنيان له ذقن معقودة وأنف بصلية. وأُعجِبت بيديه المتكتلة الضخمة، واعتقدت أنه لم يكن هناك شىء أقوى منها فى العالم. وحينما بدأ مزارعو الأرز يبنون أحياءً متجاورة ومزارع ويطهرون الغابات على طول النهر الصغير، أصبح عضواً متحدثاً فى مجموعة النقاش المحلية. وقع كل هذا فى حدود عالمه الصغير الذى كان يعتز به. أعاد الصياغة كثيراً، ففكك الأقسام وجعل ضوء الشمس يدخل، ورفع الأساس، وحين لم تعد الأبواب تُغلق وظهرت العيوب فى ورق الحائط، كان سعيداً أن يصلح كل شىء. لقد درس المعمار الحديث، وطلى الجدران من الخارج بلون السماء الأزرق وأضاء قاعها. وحصل على دورة دراسية فى صنع الأثاث وإعادة تصميم الديكور الداخلى على حسب النسب الخاصة. وفى ليلة باردة من شهر فبراير، قاد بها شمالاً بينما هى نائمة، حيث

أيقظها عند جبال "تينسى" حتى تستطيع أن تمشى فى الثلوج لأول مرة.

وحينما وقعت فى الحب، بدأ هو يمارس الذهاب إلى صالة ألعاب الملاكمة، كآخر وسيلة لمقاومة الجنون. تذكر الحيوية المفقودة، وفى الوقفات المطولة حينما يميل إلى حقيبة الملاكمة مثل صديق قديم وهو يلهث، فكر أكثر مما يمكن أن يكون لديه من ناحية أخرى. استطاع أن يرى أن حياته رائعة: فلأكثر من عقد من الزمان كان مشهوراً فى معية ابنته، ولا شىء، ليس الفقر أو الصمت، ولا النظرات المذهولة إلى حجمهما حينما يدخلان إلى أحد الأماكن، كان يزعجهما. فالعمل وتربيتها لم يتركا إلا قليلاً من الوقت للندم أو الشعور بالذنب، وهو قد تعلم أن يترك الموتى يعيشون ويتنفسون ويأتون إليه حينما يرغبون، فجأة بعنف أو غضب أو تسامح يملأهم الحب. فسنوات من الأبوة قد علمته المتطلبات الحقيقية للحب، وحينما تذكر "إيزا"، تدفق الكثير إلى هذا النبض الواضح، بما يكفيه بصورة مطلقة. إن الطريق المؤكد من بين الطرق قد عرفه الآن، هو الذى يأخذك فى اتجاه الله، وفقط حينما فكر فى ابنته، فى جمالها بالرغم من عنف ميلادها - أنها كانت واحدة من المحبوبات - نظر إلى النجوم.

عاد إلى البيت متأخراً بعد ظهر أحد الأيام. ذهب إلى النهر الصغير. كانت الغابة ساكنة مثل غرفة نوم ضيف، لكن على البعد تأتى أصوات منخفضة

للمحركات على الطريق فيما بين الولايات. ومن الطين أينعت زهرات الشتاء التى لا اسم لها، زاهية حتى فى الضوء الأزرق الخافت. رفع تمساح صغير كئيب أنفه يتشمم فى قلب الظلام. قفزت سمكة صغيرة ثلاث مرات، تتوهج جوانبها الشاحبة للإنذار. عبر المستنقع الساكن، كان هناك رجال فى القمصان الحمراء وبذل العمل يشعلون الإطارات والمقاعد ويقطعون أجزاء السيارات المكشوفة ويسحقون واقيات الصدمات البلاستيكية على الحشائش المبلولة. ومن ثَمَّ فقد عرف. إن الممر الأقرب إلى الطريق السريع كان من خلال المرعى إلى النمو الإسكانى الجديد. وجدها هناك، ساعاته فى صالة الألعاب انتهى موعدها. تحمل حقيبة الظهر لكنها توقفت فى حزن على تل صغير.

حاول أن يخبرها لماذا هى لا تستطيع، الأخطار المحيقة، الاستحالة، لكنه قابل نظرة هذه الفتاة التى طالما قهرت الخوف فى مسابقات الخطابة وتهجى الكلمات وتولت أدوار القيادة، فهى التى جعلت فصلها يفوز فى المصارعة وحققت إنجازات باهرة. وهى التى تمارس تمرينات رفع الجسم بالتعلق بالقضبان وتقيس عضلات ذراعيها يومياً بشريط، وتخبر "بارت" أن الحب لا يدوم أبداً لأنه لا يوجد من لديه قلب كبير بما يكفى لفتاة من حجمها. هو الذى فى عينيه رأت مكاناً للنور كله، النجم المتوهج، زجاجات الجعة المتهشمة على الحصباء، الشمعة التى تضىء على

شظية من كئوس الخمر. لقد حذرها ذات مرة من أن أطفالها سيكونون مثل فقمات البحر مثله هو، وأن الحظ السعيد لا يمكن أن يدوم إلى الأبد. فالآلهة ستكون غيورة.

حملت الريح إليهما رائحة الكبريت. قالت بصوت ندم مكتوم، أوه إنهم يحرقون، كان في وقت من الأوقات متآلفاً، وهو ما أثار اندهاشه دائماً. وقريباً في منطقة النمو السكاني، كان هناك شباب يعملون مؤخراً، يزيلون المروج يلفونها مثل البسط ويقشرونها من الأرض المجرفة. كان الأسفلت الموصل إلى المنازل جديداً، ووضِعَت الكتل الضخمة في مساحات قاحلة، ولم تُركب بعد نوافذها حتى بدت كبيوت الأشباح، تصفق فيها اللدائن البلاستيكية في الممرات.

قال، انصتي، وهي التي أحبته بعناد، وظنت دائماً أنه دائماً يفهم، جيداً وبهدوء، أنصتت. ومن بعيد كانت الرياح تحمل السحب بعيداً، ومع كلماته صُدِمت من لمعان السماء، مثل زرقة شاشة التليفزيون حينما يطقطق الـ"دي في دي". واشتد الدخان. وقفا، وأنصتت حتى اشتعلت النيران في الحشائش الميتة، حتى كان غروب الشمس ضباباً ذهبياً فوق المستنقعات، حتى كان للأشجار وجود شائك بمفردها.

قالت، لا أستطيع أن أتخيل. فكرت في كل شيء يمكن أن تريده، غير قادرة على أن تأخذ نفسها، في كل ذلك الذي قد تركته، الشذى الكامل لطين الشتاء

الجميل، الليالى الباردة وهما يقرءان معاً، رائحة الحريق فى مهب الريح، ذهبت على حين غرة.

قال، انتظرى، فقط انتظرى قليلاً.

كل رسالة حملت معها إجابة، لغز، جزء مفقود من التاريخ.

كان "هارفى" يعيش فى "سان لويس" تحت اسم "جوان إلهوسبد". لقد لون شاربه بشكل دقيق وحاجبيه بعلامة دائمة، وكان بيته شقة فى طابق تحت الأرض فى مبنى متصدع، مبنى عند الحافة السفلى من قناة قديمة وتحت المستويات السفلى المتدلية من موقف للسيارات مكون من ثمانية طوابق. فقط هو وأصهاره المكسيكيون يستطيعون أن يعيشوا براحة تحت هذه السقوف الواطئة، ومع الزمن طوروا العيون الواسعة والصلابة الأرضية للأقزام. لقد تعلم أن يأكل الخبز المكسيكى المرشوش بعلب مسحوق الحبوب، وأن يشرب الجعة الخفيفة الرخيصة، ويعبر بنفسه مشهد سوء الحظ، وأن يحتفظ بصمته وهو يقلم ويشذب الحشائش للأغنياء. والتقط قدراً لا بأس به من الإسبانية على الرغم من الميول المقتضبة لأصدقائه. ومعاً ذهبا بعد العمل إلى وسط المدينة واستخرجا نسخاً مصورة بالليزر من جواز سفره.

وفى هذه الشهور احتفظ بالنقود مخفية فى حزام كان يرتديه باستمرار. أصبح فطناً، فظاً، تعلم أن يبصق إلى مسافات بعيدة، وأن يكذب من واقع

اللحظة، حتى أنه فى المرات القليلة التى لوحظ فيها الحزام النايلون، قال إنه بسبب مشاكل معوية، وأجبر نفسه على أن يخرج غازات. وتأمل استخدامات ثروته، وتساءل كيف يمكنه أن يخرج من البلد إلى أمريكا الوسطى حيث أخبروه أن النساء هناك أجسامهن صغيرة، وأنه؛ يمكنه أن يعيش فى الريف المشمس مع أشجار الموز من عنده. تخيل أنه يمكنه أن يرحل بنفسه بسهولة كافية إلى المكسيك، لكنه كان قلقاً من أن حرس الحدود المكسيكيين سيأخذون منه النقود. إن الرسالة التى تلقاها عند "بريندان هاوارد" حفظها فقط خارج الحسابات من أن هذا يمكن يوفر احتمالية أن العلاقات البعيدة يمكن أن تكون راغبة فى المساعدة على استعادته. لكن فى لحظة رأى أنه لا يوجد مبرر لأن يتغير. ولكونه هارباً فقد أعطاه حداً عملياً، إحساساً قاطعاً بالتقدير. لقد أحب أن يتوقف ويتمطع ويأخذ أنفاساً عميقة. إن شذى الحياة العطر وصل إليه أخيراً، جز الحشائش وعزق الأرض، وانبعاث نضج جسده هو نفسه. لقد أحب رائحة الشوارع المهجورة، والموسيقى عند الغسق، وطريقة اللامبالاة التى عاملوه بها عائلات السود من شرفاتهم. لقد تحقق ذات يوم وهو على رصيف مهمل يأكل التوت اللاذع الذى ينمو حول صنبور إطفاء الحريق، أن هذا هو الزهد الحقيقى.

وبعد ظهيرة أحد الأيام، حينما أغارت الشرطة، اختبأ داخل إطار قديم بالخارج. وبعد حلول المساء،

انسل إلى الخارج، هز أوصاله وأدى بضعة تمارين لليوجا ليمدد أطرافه، ثم توجه إلى الجنوب. والآن هو قد عرف المكسيكيين الهاربين. وفى عربات الخبز أو النظافة أو توصيل الطلبات، أو جالساً فى الأماكن المغلقة يفرقع زجاجات الجعة التى يشربها عند نزع غطائها بأسنانه، فعل هذا متوجهاً إلى "لويزيانا". مكسيكى أزرق العينين لونه بنى من أصل وطنى، متأثر بلدغة، وقدمان باطنهما مسطح يعانقان الأرض، ومع بطنه التى كبرت، بدا مثل سنجاب معتدل. كان المساء حينما وصل.

كان شىء ما يحترق. بتلات من رماد تنحدر فوق الفناء والاندفاعات الثقيلة التى لم ترتفع أو تتبدد انجرفت، سحب سوداء على الحشائش مثل متشردين راقدين. كان للمنزل جدار أزرق واحد ونوافذ عالية. تطلبت الخطوات أن يرفع ركبته من أجل أن تصل قدمه. طَرق. لم يجب أحد. وبعد أن انتظر برهة، جذب الباب. ومضى إلى الداخل. كانت بضعة مصابيح طويلة مضاءة. حذاء ركض كان كبيراً بما يكفى ليكون إناءً للزهور، وبدت الأريكة كما لو أنها قُطعت من أشجار حية ومفروشة بالوسائد. وكانت المداخل متوردة من خلال السقف. وحيث وقف كان هناك مقعد للمطبخ مرتفع من نوعية تشبه فى التركيب برج "إيفل". وجذب بكلتا يديه المقعد، مستخدماً درجاته كسُلَّم يصعد عليه. وركل بقدمه ركلة خفيفة، شاعراً أن هذا هو العالم الجديد، غير

مُتَوَقع وجميل. والتمعت الأشعة الأخيرة من غروب الشمس بلون ذهبى على النوافذ. وأصدر بفمه صافرة نغمة حزينة لأمرأة تبكى؛ ثم أراح ظهره متعباً من رحلته، أغلق عينيه واستعد للانتظار.

الفهرس

الكتاب الأول

الجزء الأول

الجزء الثانى

الكتاب الثانى

الجزء الأول

الجزء الثانى

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «إنتر».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية نجوى شعبان، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى - إيتالوكالڤينو. رواية (عدد خاص) جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء / للكاتب التركى أورهـان باموق - رواية - «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط/ للكاتب المصرى إبراهيم عبدالمجيد - أدب رحلات - «جائزة التفوق».

١٤ - قرية ظالمة / للكاتب المصرى محمد كامل حسين - عدد خاص - «جائزة الدولة للأدب».

١٥ - الرجل البطىء / للكاتب الجنوب أفريقى ج . م . كوتسى - رواية - «جائزة نوبل».

١٦ - طحالب / للكاتبة الجنوب إفريقية مارى واطسون - متتالية قصصية / «جائزة كين» .

١٧ - شوشا / للكاتب البولندى اسحق باشيفيس سنجر/ رواية / «جائزة نوبل».

١٨ - شارع ميجل/ للكاتب من ترينداد/ ف. س. نايبول. رواية/ «جائزة نوبل».

١٩ - الحياة الجديدة - للكاتب التركى «أورهان باموق» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٠ - عشر مسرحيات مختارة - للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» - مسرح - «جائزة نوبل».

٢١ - الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ «جائزة بن مالامود».

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمي ـ للكاتب الفرنسي «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ «جائزة الجونكور».

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركي «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجري.. للكاتب البرتغالي «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورچ بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالي «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. «جائزة نوبل».

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلّو.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كوتسي .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلاني والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. «جائزة چورج بوشنر الكبرى».

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. «جائزة بيريباروبيا».

٣٢– مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. «جائزة البوليتزر».

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. «جائزة نوبل للآداب».

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. «جائزة البوكر».

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. «الجائزة الوطنية للآداب».

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. «جائزة الأورانج».

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى إيريك فوتورينو.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة نادال».

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية چويس كارول أوتس.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة بلانيتا».

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية كيران ديساى.. ر واية.. «جائزة البوكر».

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية انجريد توبوا.. رواية.. «جائزة الرواية الأولى فى فرنسا».

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥٠ ـ يوميات عام سئ.. للكاتب الجنوب إفريقى ج.م كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى أندرو ميللر.. رواية.

٥٢ ـ إنقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى شيركو فتّاح.. رواية.. «جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى».

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الانجليزية دوريس ليسنج.. مسرح.. «جائزة نوبل».

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى شيركو فتّاح.. رواية.. «جائزة نظرات أدبية».

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر.. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى جان مارى جوستاف لوكليزيو.. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الاسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ رحلة العم ما.. للكاتب الجابونى چان ديڤاسا نياما.. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة ثرفانتيس.

٦٧ ـ داى.. للكاتبة الاسكتلندية «أ. ل. كينيدى».. رواية.. جائزة كوستا.

يصدر قريبًا من هذه السلسلة

١ـ نداء دينيتى.. چان ديڤاسا نياما.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء ٢٠٠٩ .

٢ ـ كتاب الخط والرسم.. جوزيه ساراماجو.. جائزة نوبل فى الآداب ١٩٩٨.

٣ ـ صخب الميراث.. جان ديڤاسا نياما.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء ٢٠٠٩.

الرواية

تتبع الرواية أجيال عائلة فرنسية كندية عبر أمريكا الشمالية خلال القرن العشرين، يكافح أفرادها من أجل أن يجدوا لأنفسهم مكاناً فى العالم، عائلة أصابتها اللعنة بخلل وراثى تسبب فى أن أطفال "هيرفى" يولدون إما عمالقة أو أقزاماً، والكتاب الأول من الرواية يتتبع مصير "العمالقة" مستكشفاً مهنة "جودى هيرفى" كملاكم فى جورجيا ولويزيانا فى ستينيات القرن العشرين وهروبه من الحياة القاسية مع طفلته الرضيعة التى تقرر حينما تكبر الزواج بصورة عذرية غريبة من رجل يكبرها بعقود.

بينما يتتبع "الكتاب الثانى" مصير "أقزام" العائلة.. فـ "فرانسوا" يبحث عن أبيه لسنوات، بينما يهرب ابنه "هيرفى" من المجتمع الحديث إلى السعى الروحى، لكن لا يستطيع أحد من عائلة "هيرفى" أن يتخلى عن الحنين إلى المكان الذى يمكن أن يجدوا فيه أناساً تشبههم، وكأن الرواية تقول لنا إن الدماء التى تجرى فى عروقنا والتى آلت إلينا من أسلافنا هى التى تتحكم فى رغباتنا وطموحنا وتحدد مصائرنا، فنعود وقت أن تتملكنا الحسرة نبحث عن حقيقتنا على الدرب الذى سلكه الأجداد.

الروائى: دى واى بيشارد، كاتب أمريكى كندى.

الجائزة: جائزة الكومنولث ٢٠٠٧



ISBN# 9789774214119
6 221149 017863

١٥ جنيهاً

الهيئة المصرية العامة للكتاب